جين أوستن

دير نورثانجر

رواية

ترجمة: إيناس التركي

آفاق

دير نورثانجر
رواية مترجمة..

الكاتبة: چين أوستن
ترجمة: إيناس التركي

الجزء الأول

- 1 -

لم يكن أيُّ شخصٍ ممن رأوا كاثرين مورلاند في طفولتِها، ليفترض أنها وُلِدت لتكون بطلة. كانت مكانتُها في الحياة، إضافة إلى شخصية والدها ووالدتها، وشخصيتها هي وطباعها، جميعها ضدها بدرجة متساوية. كان والدها كاهنًا، من دون أن يعاني الإهمالَ أو الفقرَ، وكان رجلًا محترمًا للغاية، على الرغم من أنَّ اسمه كان ريتشارد ([1])، ولم يكن يتحلَّى بالوسامة على الإطلاق. كان يتمتَّع بالاستقلال المادي إلى حدٍّ بعيدٍ، إلى جانب عملِه ككاهنٍ في أبرشيتين جيدتين، ولم يكن يميل إلى حبس بناته على الإطلاق. كانت والدتها امرأة ذات منطقٍ سليمٍ مفيدٍ، وطباعٍ طيبة، وما هو لافت للنظر أكثر من ذلك هو أنها كانت تتمتع بصحة جيدة؛ أنجبت ثلاثَة أبناء قبل ولَادة كاثرين، وبدلًا من وفاتها في خلال ولادتها لتلك الأخيرة، كما قد يتوقع أيُّ شخصٍ، بقيت على قيد الحياة، وعاشت لتنجب ستة أطفالٍ آخرين، ولتراهم وهم يكبرون حولها بينما تتمتع هي نفسها بصحة ممتازة. دومًا ما سوف تُعَد أسرةٌ مكونة من عشرة أطفال أسرة رائعة، حين يكون للجميع العدد الملائم من الرؤوس والأذرع والسيقان. لكن آل مورلاند لم يكن لهم نصيبٌ أكبر من ذلك في الكلمة، حيث كانت ملامحهم بصفة عامة عادية للغاية، وظلَّت كاثرين لسنواتٍ عديدة من حياتِها تفتقر إلى الجمال مثل بقيَّتهم. كانت ذات قامة نحيلة تفتقر إلى الرشاقة، ولها بشرةٌ شاحبةٌ غير متورِّدة، وشعرٌ أسود باهتٌ، وملامح حادة. يكفي هذا القدر بالنسبة إلى هيئتها. لم تكن عقليتها أيضًا تؤهِّلها للبطولة، إذ كانت مولعة بكل ألعاب الصبية، وكانت تفضِّل كثيرًا لعب الكريكيت، ليس أكثر من اللعب بالدمى فحسب، بل أيضًا بدرجة أكبر من باقي متع الطفولة البطولية، مثل القيام على رعاية حيوان زُغبة، أو إطعام طائر كناري، أو ري شجيرة ورد. في الواقع، لم تكن تستسيغ الحديقة على الإطلاق، وإذا حدث وأن قطفت أيَّ زهورٍ على الإطلاق، فقد كان ذلك في الأساس للاستمتاع بإساءة السلوك. على الأقل هذا هو ما تمَّ استنتاجُه من تفضيلها الدائم لتلك الزهور التي كانت ممنوعة من أخذها. كانت تلك هي ميولها، كما كانت قدراتُها غير اعتيادية بذات الدرجة؛ فلم تتمكَّن أبدًا من تعلُّم أو فَهْم أي شيء قبل أن يعلِّمها أحدهم إياه، وحتى ساعتها لم تكن تستطيع الفهم أحيانًا، حيث كانت تشرد كثيرًا، وتتصف بالغباء في بعض الأحيان. ظلَّت والدتُها تعلِّمها طوال ثلاثة أشهر إلقاء قصيدة «استرحام المتسول»، وفي نهاية المطاف، تعلَّمت شقيقتُها سالي التالية لها في العمر إلقاءها بصورة أفضل منها. لا يعني ذلك بأي حالٍ من الأحوال أنَّ كاثرين كانت تتَّصف بالغباء على الدوام، فقد تعلَّمت حكاية «الأرنب والأصدقاء العديدون» بأسرع ما يمكن مثل أي فتاة في إنجلترا. تمنَّت والدتها أن تتعلَّم الموسيقى، وكانت كاثرين على ثقة أنَّ ذلك سوف يروق لها، لأنها كانت مغرمة جدًّا بالعبث بمفاتيح البيانو الصغير القديم البائس، لذا بدأت وهي في الثامنة من العمر. تعلَّمت لمدة عام، ولم تتحمَّل الأمرَ. لم تكن السيدة مورلاند تصر على أن تصير بناتها مصقولاتٍ اجتماعيًّا إذا تعارض ذلك مع قدراتهنَّ أو ذوقهنَّ، فسمحت لها بالتوقُّف عن الدروس. كان اليوم الذي صرفت فيه مدرسَ الموسيقى من أسعد أيام حياة كاثرين. لم يكن ذوقُها في الرسم أفضل حالًا، ومع ذلك فكلما تمكَّنت من الحصول على الطرف الخارجي من صفحات رسائل والدتها، أو العثور على أي قطعة ورق أخرى شاردة، رسمتْ عليها ما باستطاعتها من صور المنازل والأشجار والدجاج، التي كانت جميعها تشبه بعضها بعضًا إلى حدٍّ كبيرٍ. علَّمها والدُها الكتابة والحساب، وعلَّمتها والدتُها اللغة الفرنسية. لم تكن مهارتُها كبيرة في أيٍّ

منهما، وكانت تتهرَّب من دروسِها فيهما متى استطاعت ذلك؛ يا لها من شخصية غريبة غير مسؤولة! ومع كل أعراض الفساد تلك في العاشرة من العمر، فلم يكن قلبُها يحمل الشرَّ، ولم تكن عصبية المزاج. نادرًا ما اتصفت بالعناد، أو باتت مشاكسة. وكانت بالغة اللطف حيال الصغار، مع القليل فحسب من نوبات الاستبداد. علاوة على ذلك، كانت صاخبة وجامحة، تكره القيود والنظافة، ولا تحب شيئًا في العالم أكثر من التدحرج على المنحدر الأخضر الواقع خلف المنزل.

هكذا كانت كاثرين مورلاند في العاشرة من عمرها. في الخامسة عشرة، أخذ مظهرُها يتحسَّن؛ شرعت تجعِّد شعرَها، وتتوق لحضور الحفلات الراقصة. كما تحسَّنت بشرتُها، وباتت ملامحُها أكثر نعومة عندما ازداد وزنُها وتورَّد وجهُها، واكتسبت عيناها حيوية أكبر وصارت هيئتها أكثر تميُّزًا. أفسح حبُّها للعب في الطين المجالَ لميلها إلى التزيُّن، وصارت نظيفة، مثلما أصبحت أنيقة. بات من دواعي سرورها سماعها أحيانًا لتعليقات والدها ووالدتها بخصوص التحسُّن الذي طرأ على شخصِها. من بين الكلمات التي كانت تطرق مسامعها بين حين وآخر: «صارت كاثرين فتاة حسنة المظهر للغاية. تكاد تكون جميلة اليوم». وكم كانت تلك الكلمات موضع ترحيب لديها! أن تكاد تبدو جميلة هو أكثر شيء يبعث على البهجة يمكن أن تحققه فتاة قضت أول خمسة عشر عامًا من عمرِها وهي تبدو عادية تمامًا، بدرجة أكبر من أي شيء يمكن أن تحوز عليه فتاة جميلة منذ مولدها.

كانت السيدة مورلاند امرأة طيبة للغاية، وكانت تتمنَّى رؤية أطفالها في أفضل حالٍ يمكن أن يكونوا عليه، إلَّا أنَّها كانت منشغلة للغاية في أغلب الأوقات بالولادة وبتعليم الصغار، لدرجة أنَّ بناتها الأكبر سنًّا اُضطررن لا محالة إلى رعاية أنفسهن، لذا لم يكن من المثير للدهشة أنَّ كاثرين، التي لم تكن بطبيعتها تتمتع بأي صفاتٍ بطولية، كانت تفضِّل وهي في الرابعة عشرة من عمرها لعب الكريكيت والبيسبول وركوب الخيل والانطلاق في أرجاء البلدة، أكثر من تفضيلها للكتب، أو على الأقل تلك الكتب التي تحوي معلومات. حيث إنها لم يكن لديها أيُّ اعتراضٍ على الكتب على الإطلاق، بشرط عدم اكتساب أي معرفة مفيدة منها، وأن تكون كلها مجرد حكاياتٍ بلا حاجة للتفكير. لكن من سنِّ الخامسة عشرة إلى السابعة عشرة، صارت بطلة تحت التدريب؛ قرأت جميعَ الأعمال التي يتعيَّن على البطلات قراءتها لتزويدِ ذاكرتهن برصيدٍ من تلك الاقتباسات التي تكون مفيدة للغاية وتبعث على الهدوء البالغ في خضم تقلُّبات حيواتهن المليئة بالأحداث.

تعلَّمت من ألكسندر بوب لوْمَ أولئك الذين «يتحمَّلون سخرية الويلات».

وتعلَّمت من توماس جراي أن: «كم من زهرة وُلِدت لتتخضَّب خجلًا من دون أن يراها أحدٌ، ولتهدر شذاها في ريح الفلاة».

كما تعلَّمت من جيمس طومسون: «كم هي مهمة ممتعة، أن تعلم الفكرة الغضة الانطلاق».

أما شكسبير، فقد اكتسبت منه مخزونًا هائلًا من المعلومات، من بينها أنَّ «أشياء تافهة بخفة الهواء، بمثابة تأكيدات قوية لدى الغيور، كأدلة الكتب المقدسة».

وأنَّ «الخنفساء المسكينة التي ندهسها، تشعر في معاناتها الجسدية بآلامٍ تضاهي تلك التي يحسُّها العملاق عند وفاته».

وأنّ المرأة الشابة الواقعة في الحبِّ تبدو دومًا «كتمثالٍ للصبر جالس على شاهد قبرٍ، يبتسم في وجه الحزن»

كانت حتى هذه اللحظة قد حقَّقتْ تقدُّمًا بما فيه الكفاية، وصارت بارعة للغاية في عديدٍ من النقاط الأخرى. فعلى الرغم من عدم قدرتها على كتابة سونيته، إلَّا أنَّها أجبرت نفسَها على قراءتهم، وعلى الرغم من عدم وجود فرصة على ما يبدو لأن تصيب جميعَ حضور إحدى الحفلات بالنشوة من خلال عزفها مقدمة لحن بيانو من تأليفها، إلا أنها كانت تستطيع الاستماع إلى أداء الآخرين بأقل قدرٍ من الشعور بالتعب. كان أكبر قصورٍ لديها هو القلم، إذ لم تكن لديها أدنى فكرة عن الرسم، ولا حتىٍ بما يكفي لمحاولة رسم وجه حبيبها، بدرجة يمكن معها اكتشاف لمستها في الصورة. فشلت في هذه النقطة على نحوٍ بائسٍ، في الوصول لذروة البطولة الحقيقية.

في اللحظة الراهنة، لم تكن تدرك قصورَها ذاك، إذ لم يكن لها حبيبٌ لترسم صورتَه. كانت قد بلغت السابعة عشرة من عمرها من دون أن تلتقي شابًّا ودودًا واحدًا يمكنه أن يثير مشاعرَها، ومن دون أن تثير في أحدهم شغفًا حقيقيًّا، ومن دون أن تثير أيَّ إعجابٍ حتى، إلا بدرجة بسيطة جدًّا وعابرة للغاية. كان هذا أمرًا غريبًا حقًّا! لكن بصفة عامة، من الممكن تفسير الأمور الغريبة إذا بحثنا في أسبابها على نحوٍ لائقٍ؛ لم يكن هناك ولو لورد واحدٌ يقطن الحي، ولا حتى بارونيت، لم تكن هناك ولا أسرة واحدة من بين معارفهم أنشأت وربَّتْ صبيًّا عُثِرَ عليه بالصدفة على عتبة بابهم، ولا شابًّا واحدًا مجهول الأصل، كما لم يكن والدها وصيًّا على أحدٍ، ولم يكن لدى إقطاعي الأبرشية أي أبناءٍ.

لكن عندما يتعيَّن على امرأة شابة أن تكون بطلة، فلا يمكن أن يمنعها من ذلك عنادُ أربعين أسرة محيطة بها، يجب أن يحدث شيء ما، وسوف يحدث بالفعل، ما يلقي ببطلٍ في طريقِها.

أمرَ الطبيبُ السيِّدَ ألين، صاحب معظم الأملاك المحيطة بفولرتون، وهي القرية التي كان يعيش بها آل مورلاند في ويلتشير- أمره بالذهاب إلى باث للعلاج، لإصابته بالنقرس، وكانت زوجته سيدة حسنة الطباع، تميل إلى الآنسة مورلاند، وفي الغالب كانت تدرك أنه إذا لم تصادف امرأةٌ شابة أيَّ مغامراتٍ في قريتِها، فعليها أن تسعى بحثًا عنها خارج حدود القرية، لذا دعت الآنسة مورلاند لمرافقتِهما، فامتثل السيِّد والسيِّدة مورلاند؛ وامتلأتْ كاثرين سعادة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى جانب ما ذُكر بالفعل عن الصفات الشخصية والعقلية لكاثرين مورلاند (وهي على وشك الخوض في كل الصعوبات والمخاطر المتعلقة بالإقامة لمدة ستة أسابيع في باث) فمن الممكن أيضًا أن يُذكر -بهدف منح القارئ معلومات أكثر تحديدًا، ومخافة فشل الصفحات التالية في إعطاء فكرة عمَّا يجب أن تكون عليه شخصيتها- أنَّ قلبَها كان حنونًا، وطباعُها مرحة ومنفتحة، من دون غرورٍ أو تصنُّع من أي نوع. وقد تخلَّص سلوكُها للتوِّ من مشاعر الحرج والخجل التي تتصف بها الفتياتُ، وكانت شخصيتها لطيفة، وجميلة عندما تعتني بمظهرها، وعقلُها جاهلٌ وغير مطلِّع مثل حال عقل الأنثى في السابعة عشرة من العمر غالبًا.

من المفترض بطبيعة الحال أنَّ مشاعر قلق الأمومة لدى السيدة مورلاند وصلت لذروتِها عند اقتراب ساعة الرحيل، لا بُدَّ وأنَّ ألفَ شعورٍ بالقلق بشأن الشرور التي تتهدَّد ابنتها الحبيبة كاثرين بسبب هذا الفراق الرهيب قد أثقل قلبها بالحزنٍ، وأغرقها بالدموع لآخر يوم أو يومين من وجودهما معًا. ولا بُدَّ بالطبع من أنٍ النصائح المهمة والعملية قد تدفَّقتْ من شفتيها ًالحكيمتين خلال لقائهما للوداع في غرفتِها. لا شكَّ في أنَّ التحذيرات في مثل تلك اللحظة من عنف النبلاء والبارونات الذين يستمتعون باختطاف الشابات إلى المزارع النائية، قد تخفِّف من المشاعر التي تثقل قلبَها، من عساه لا يظن ذلك؟ لكن السيدة مورلاند كانت تعرف أقلَّ القليل عن اللوردات والبارونات، لدرجة أنَّها لم تكن لديها أدنى فكرة عن شرورِهم بصفة عامة، ولم يكن لديها أدنى شكٍّ عن المخاطر التي قد تتهدَّد ابنتها بسبب مكائدهم. اقتصرتَ تحذيراتُها على النقاط التالية: «أرجو يا كاثرين أن تتدثري بالملابس جيدًا، وتدفئي عنقك عند عودتك ليلًا من قاعات الاحتفالات، وأتمنَّى أن تحاولي تسجيلَ بعض الحسابات الخاصة بالأموال التي سوف تنفقينها، سأمنحكِ هذا الدفتر من أجل ذلك الغرض».

لا بُدَّ من أن سالي، أو بالأحرى سارة (فأي امرأة شابة تلك التي يمكنها الانتماء لطبقة اجتماعية مرتفعة من دون أن تغيِّر اسمَها بقدر المستطاع عند وصولها لسن السادسة عشرة؟)، قد صارت بحكم الموقف الصديقة المقرَّبة لشقيقتِها ومحل سرها، ومع ذلك، فمن اللافت للنظر أنها لم تصمِّم على أن ترسل لها كاثرين خطابًا مع كل بريدٍ قادم، ولم تجعلها تقطع وعدًا بوصف شخصيةٍ كل المعارف الجدد، ولا نقل تفاصيل كل محادثة مثيرةً للاهتمام قد تدور في باث. في الواقع فإنَّ آل مورلاند تعاملوا مع كل شيء متعلِّق بهذه الرحلة المهمة بدرجة من الاعتدال ورباطة الجأش، بدت متسقة إلى حدٍّ ما مع المشاعر العادية للحياة الطبيعية، أكثر منها مع المشاعر المرهفة والأحاسيس الرقيقةٍ التي من المفترض أن يثيرها دومًا الفِراق الأول للبطلة عن أسرتِها. وبدلًا من أن يمنحها والدها الحقَّ في السحب من رصيدِه المصرفي بلا حدودٍ، أو حتى يضع في يدها ورقة مالية من فئة المئة جنيه، أعطاها عشرة جنيهات فقط، ووعدها بالمزيد حينما ترغب في ذلك.

حدث الفِراق تحت ظل هذه الرعاية غير الواعدة، وبدأت الرحلة. تمت بهدوءٍ ملائم، وفي أمانٍ لم يعكِّر صفوه حادثٌ. لم يصادفهم أي لصوصٍ أو عواصفَ، ولم يطرأ حادثٌ سعيدٌ تَنقلب على إثره العربة ليتعرفوا بعدها على البطل من خلال ذلك. لم يحدث شيءٌ أكثر إثارة للقلق من خوف السيدة

ألين أن تكون قد نسيت قبقابَها ([2]) في نُزلٍ ما ذات مرة، وقد ثبت لحسن الحظ أنَّ مخاوفها تلك لا أساس لها من الصحة.

وصلوا إلى باث، وامتلأت كاثرين حماسًا وبهجة. تنقَّلت بنظراتِها في كلِّ مكانٍ، عندما اقتربوا من ضواحيها الرائعة والمذهلة، وبعد ذلك ركبوا العربة عبر شوارعها التي أوصلتهم إلى الفندق. أتت هناك لتكون سعيدة، وها هي تشعر بالسعادة بالفعل.

سرعان ما استقروا في سكنٍ مريحٍ في شارع بولتيني.

من المناسب الآن توضيح بعض صفات السيِّدة ألين، كي يتمكَّن القارئ من الحكم على الكيفية التي ستسهم بها أفعالُها فيما بعد في المشكلات في هذا العمل بشكلٍ عامٍّ، وكيف ستسهم على الأرجح في إخضاع كاثرين المسكينة لكلِّ اليأس والتعاسة التي يمكن أن تصوِّرها نهاية رواية، سواء كان ذلك بسبب تهورها أو سوقيتها أو غيرتها، إما من خلال اعتراض رسائلها أو تشويه سمعتها أو طردها.

كانت السيِّدة ألين واحدة من تلك الفئة من الإناث العديدات اللاتي لا تثير صحبتهن سوى مشاعر الدهشة لوجود أي رجال في العالم يمكن أن يحبوهن بما يكفي للزواج منهن. لم يكن لديها نصيبٌ من الجمال أو الموهبة أو الإنجازات ولا حُسن التصرُّف. كان مظهر المرأة النبيلة والهدوء الشديد والمزاج الهادئ وسطحية التفكير هو كل ما يمكن أن يفسِّر اختيارَها من قبل رجلٍ عاقلٍ وذكي مثل السيد ألين. من جهة ما، كانت مهيَّأة بدرجة مثيرة للإعجاب لتقديم امرأة شابة إلى المجتمع، حيث كانت هي نفسها مغرمة بزيارة كل مكانٍ ومشاهدة كل شيء تمامًا مثل أي امرأة شابة. كانت الأزياء هي شغفها، وكانت تستشعر متعة بريئة من أناقة مظهرها، ولم يكن من الممكن دخول بطلتنا إلى حيِّز الحياة العامة إلا بعد ثلاثة أو أربعة أيام قضتها مرافقتها في تعلُّم الأزياء الشائعة، وزُودت بعدها بالملابس التي تتماشى مع أحدث الصيحات. قامت كاثرين هي الأخرى ببعض المشتريات، وعندما انتهت كل هذه الترتيبات، حلَّت الأمسية المهمة التي ستدخل فيها قاعة الحفلات الواقعة شمال المدينة. تمَّ قصُّ شعرها وتصفيفه من قبل أكثر الأيدي مهارة، وارتدت ملابسَها بعناية. أعلنت كلٌّ من السيدة ألين وخادمتها أنها تبدو تمامًا كما ينبغي. مع هذا التشجيع، تمنَّت كاثرين أن تتمكَّن على الأقل من المرور وسط الحشد من دون التعرُّض لانتقاداتٍ، أما بالنسبة إلى الإعجاب، فقد كان دومًا موضع ترحيب عندما يأتي، لكنَّها لم تعوِّل عليه.

استغرقت السيدة ألين وقتًا طويلًا للغاية في ارتداء ملابسها، لدرجة أنهم لم يدخلوا قاعة الرقص إلا في وقتٍ متأخرٍ. كان موسم ازدحام، والغرفة ممتلئة، وانحشرت السيدتان بالداخل قدر استطاعتهما. أما بالنسبة إلى السيد ألين، فقد توجَّه مباشرة إلى غرفة لعب الورق، وتركهما بمفردهما للاستمتاع بالحشد. مع قدرٍ من الحرص على سلامة ثوبها الجديد أكبر من مقدار حرصها على راحة الشابة التي تحت حمايتها، شقَّت السيدة ألين طريقَها وسط حشد الرجال المتجمعين عند الباب، بأقصى سرعة سمح لها به الحذر الذي تعيَّن عليها التزامه. مع ذلك، ظلَّت كاثرين على مقربة منها، وشبكت ذراعها بذراع صديقتها بإحكام شديدٍ، كي لا يفرقهما أيُّ تدافُعٍ من الحشد المتجمع. لكن لدهشتها المطلقة، وجدت أنَّ ولوج الغرفةً لم يكن بأي حالٍ من الأحوال وسيلة للابتعاد عن التشابك مع الحشد، بل بدا أن ذلك يزداد كلما تقدمتا نحو الداخل. وفي حين أنها تخيَّلت أنه بمجرد عبورهما من الباب فسوف تتمكَّنا

من العثور على مقعديْن بسهولة وتصيرا قادرتين على مشاهدة الرقصات براحة تامة، لكن الحال كان أبعد ما يكون عن ذلك، وعلى الرغم من مثابرتهما التي لا تكلُّ التي قادتهما لرأس القاعة، إلَّا أنَّ وضعَهما ظلّ كما هو على حاله. لم يلمحا شيئًا من الراقصين سوى بعض الريش المرتفع الذي تعتمره السيدات. مع ذلك، استمرَّتا في التقدُّم إلى الأمام، حيث لاح أمام نظرهما شيءٌ أفضل، وبجهدٍ مستمرٍّ وبراعة وجدتا نفسيهما أخيرًا في الممرِّ الكائن خلف أعلى المقاعد ارتفاعًا. كان الحشدُ أخفَّ هنا عنه بالأسفل، ومن ثمَّ سنحت للآنسة مورلاند فرصة إلقاء نظرة عامة على جميع الناس بالأسفل، وعلى كل المخاطر التي تكبَّدتها خلال مرورها بينهم. بدا مشهدًا رائعًا، وبدأت تشعر لأول مرة في ذلك المساء أنها في حفلٍ راقصٍ. كانت تتوق للرقص، لكنَّها لم تكن تعرف أحدًا في القاعة. فعلت السيدة ألين كلَّ ما بوسعها القيام به في مثل هذا الوضع، بأن ظلَّت تكرِّر بهدوءٍ شديدٍ بين فينة وأخرى: «أتمنَّى لو استطعتِ القيامَ للرقص يا عزيزتي، آمل أن تتمكني من العثور على شريكٍ». شعرت صديقتُها الشابة بالامتنان لها لبعض الوقت لأمنياتها تلك، إلَّا أنَّها تكررت كثيرًا، وثبت أنها غير فعالة على الإطلاق، حتى سئمت كاثرين أخيرًا، ولم تعد تكرر شكرَها.

مع ذلك، لم تتمكَّنا من الاستمتاع بالراحة لفترة طويلة في ذلك المكان المرتفع الذي وصلتا إليه بشقِّ الأنفس؛ سرعان ما تحرك الجميعُ لتناول الشاي، وتعيَّن عليهما التزاحُم للخروج مثل الآخرين. شرعت كاثرين تشعر بشيء من خيبة الأمل، إذ سئمت من تعرُّضها المستمر للتزاحم وسط الناس الذين لم يكن في وجوههم بصفة عامة أيُّ شيء مثير للاهتمام، والذين لم تكن تعرف أحدًا منهم على الإطلاق، حتى إنَّها لم يكن بوسعها التخفيف من ضجر ذلك الزحام بتبادل ولو كلمة مع أيٍّ من رفاقها أسرى ذلك الحشد. وعندما وصلتا أخيرًا لقاعة الشاي، أحسَّت بمزيدٍ من الحرج لعدم وجود جماعة يمكنهما الانضمام إليها، ولا معارف يمكنهما نداؤهم، ولا رجل ليعاونهما. لم تلمحا السيد ألين، وبعد أن بحثتا حولهما من دون جدوى عن مكانٍ ملائم بصورة أكبر، اضطرَّتا إلى الجلوس عند طرف طاولة جلس إليها بالفعل جماعةٌ كبيرة من الناس، من دون أن يكون لديهما شيءٌ يفعلانه هناك أو شخصٌ تتبادلان معه الحديث، سوى بعضهما مع بعض.

بمجرد جلوسهما، هنَّأت السيدة ألين نفسَها لحفاظِها على ثوبها من التلف، قالت:

- كانت ستصير صدمة كبيرة لو تمزق، أليس كذلك؟ إنه مصنوعٌ من قماشٍ قطني بالغ الرقة، أؤكد لكِ أنني لم أرَ من جانبي أيَّ ثوبٍ يعجبني مثله في القاعة بأكملها.

همست لها كاثرين قائلة:

- كم هو مزعجٌ ألَّا يكون لدينا ولو شخصٌ واحدٌ نعرفه هنا!

أجابتها السيدة ألين بهدوءٍ تامٍّ:

- أجل يا عزيزتي، إنه حقًّا أمرٌ مزعجٌ للغاية.

- ما الذي سنفعله؟ يبدو الرجال والسيدات على هذه الطاولة كأنهم يتساءلون عن سبب مجيئنا إلى هنا. نبدو كأنَّنا نفرض أنفسنا على جماعتهم.

- أجل، نبدو كذلك بالفعل. أتمنَّى لو كان لدينا كثيرٌ من المعارف هنا.

- أتمنى لو كنّا نعرف أي شخص، فسيكون لدينا حينها من نذهب إليه.

- هذا صحيحٌ جدًّا يا عزيزتي، ولو كنَّا نعرف أيَّ شخص لانضممنا إليه على الفور. كان آل سكينر هنا في العام الماضي، أتمنى لو كانوا هنا الآن.

- أليس من الأفضل أن نرحل طالما هذا هو الحال؟ فلا توجد هنا أدوات مائدة لنا، كما ترين.

- لم تعد هناك أي أدوات مائدة متوفرةٍ بالفعل، يا له من أمرٍ مستفزٍّ! لكن أعتقد أنه من الأفضل أن نبقى جالستين في هدوءٍ، فالمرء يتعثَّر كثيرًا في مثل هذا الحشد! كيف تبدو عصابة رأسي يا عزيزتي؟ لقد دفعني أحدُهم وأفسدها على ما أخشى.

- لا، فهي تبدو لطيفة جدًّا في الواقع. لكن يا عزيزتي السيدة ألين، هل أنتِ واثقة بأنه لا يوجد أي شخصٍ تعرفينه وسط كل هذا الحشد من الناس؟ أعتقد أنكِ لا بُدَّ وأن تعرفي شخصًا ما.

- أقسم إنني لا أعرف أحدًا. أتمنى لو كنتُ أعرف. أتمنى من كل قلبي لو كان لي معارف كثيرون هنا، حيث كنت حينها سأجد شريكًا لكِ. سأسعد كثيرًا لرؤيتَكِ وأنتِ ترقصين. هناك امرأة غريبة المظهر! يا لغرابة ثوبها الذي ترتديه! كم هو عتيق الطراز! انظري لظهره.

بعد فترة من الوقت، تلقيتا عرضًا لتناول الشاي من أحد المجاورين لهما، قبلتاه بامتنانٍ، وأدَّى ذلك لتبادل حديثٍ خفيفٍ مع الرجل صاحب العرض، كانت تلك هي المرة الوحيدة التي بادلهما فيها أحدٌ الحديثَ ذلك المساء، حتى وجدهما السيد ألين وانضم إليهما عند انتهاء الرقص.

قال على الفور:

- حسنًا يا آنسة مورلاند، أتمنى أن تكوني قضيتِ وقتًا ممتعًا في الحفل الراقص.

قالت وهي تحاول عبثًا إخفاء تثاؤبها:

- وقتًا ممتعًا للغاية.

قالت زوجته:

- أتمنَّى لو كانت قد تمكَّنت من الرقص. أتمنَّى لو استطعنا العثورَ على شريكٍ لها. كنتُ أقول كم كنتُ سأشعر بالسعادة لو أنَّ آل سكينر تواجدوا هنا هذا الشتاء، بدلًا من الشتاء الماضي، أو لو أنَّ آل باري قد حضروا كما ذكروا ذات مرة، كان يمكنها الرقص مع جورج باري، كم أشعر بالأسف لأنها لم تعثر على شريكٍ!

واساها السيِّد ألين قائلًا:

- آمل أن نبلي بصورة أفضل مساء يومٍ آخر.

بدأ الحشدُ يتفرَّق بعد انتهاء الرقص، بما يكفي لترك مساحة للباقين حتى يسيروا في جوٍّ من الراحة. وحان الآن الوقت المناسب للبطلة، التي لم تكن قد لعبت دورًا مميزًا بعد في أحداث تلك الأمسية، كي تُلاحَظ وتحظى بالإعجاب. بانصراف المزيد من الحشد مع مرور كل خمس دقائق، أتاح ذلك لسحرها

مجالًا أكبر. رآها الآن عديدٌ من الشباب الذين لم يقتربوا منها من قبل. مع ذلك، لم يتوقف أحدُهم مشدوهًا من شدة الإعجاب لرؤيتها، ولم تسرِ في الغرفة همساتٌ متلهفة للاستفسار، ولم يطلِق عليها أحدُهم لقبَ «ربة من الربات». ومع ذلك، بدت كاثرين بمظهرٍ جيدٍ للغاية، ولو أنَّ الجمع كانوا قد شاهدوها منذ ثلاث سنوات مضت، لعدُّوها الآن بارعة الجمال.

مع ذلك، نظر إليها البعضُ بقدرٍ من الإعجاب، حيث قال رجلان على مسمعٍ منها إنَّها فتاةٌ جميلة. كان لوقع هذه الكلمات تأثيرها، إذ ما لبثت على الفور أن عدَّت الليلة أكثر إمتاعًا مما وجدتها عليه من قبل، وأحسَّ غرورها المتواضع بالرضا. شعرت بالامتنان للشابين لهذا الإطراء البسيط، أكثر مما كانت ستشعر به بطلة حقيقية لخمس عشرة سونيته تحتفي بسحرها، وتوجَّهت إلى محفتها ([3]) وهي تشعر بالرضا حيال الجميع، قانعة تمامًا بنصيبها الذي حازته من الاهتمام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3 -

صار كلُّ يومٍ الآن يجلب معه مهامَه المعتادة: كان من المقرر زيارة المتاجر، ومشاهدة منطقة جديدة من المدينة، والذهاب إلى القاعة التي تُضخ بها المياه المعدنية ([4])، حيث كانتا تذرعانها جيئة وذهابًا لمدة ساعة، وهما تتأمَّلان الجميعَ من دون تبادل الحديث مع أحدٍ. كانت الرغبة في اكتساب كثيرٍ من المعارف في باث لا تزال تحتل مرتبة الصدارة لدى السيدة ألين، وظلَّت ترددها بعد كل دليلٍ جديدٍ يجلبه كلُّ صباحٍ يثبت أنها لا تعرف أحدًا على الإطلاق.

ذهبتا إلى قاعة الحفلات الكائنة جنوب المدينة، وهنا كان الحظُّ مواتيًا لبطلتنا بدرجة أكبر؛ قدَّمها مُقدِّم الحفل إلى شابٍّ بدا كأنَّه رجلٌ نبيلٌ للغاية ليكون شريكها. كان اسمه تيلني، بدا كأنَّه في الرابعة أو الخامسة والعشرين من عمره، وكان طويلَ القامة إلى حدٍّ ما، ذا سحنة لطيفة وعينين تلتمعان بالذكاء والحيوية، وإن لم يكن وسيمًا تمامًا، فقد كان يشارف حدَّ الوسامة بدرجة كبيرة. كان سلوكُه طيبًا، وأحسَّت كاثرين أنَّها محظوظة للغاية. لم يكن هناك مجالٌ للراحة وتبادُل الحديث خلال رقصهما، لكن عندما جلسا لتناول الشاي، وجدته لطيفًا بالقدر الذي افترضته عليه بالفعل. تحدَّث بطلاقة وحيوية، وكانت هناك درجة من المكر والمُزاح في سلوكه أثارت اهتمامَها، على الرغم من أنها فهمتها بالكاد. بعد تبادُل الحديث لبعض الوقت حول تلك الأمور التي ثارت بشكلٍ طبيعيٍّ من الأشياء المحيطة بهما، خاطبها قائلًا فجأة:

- لقد قصرتُ بدرجة بالغة حتى الآن يا سيدتي في إبداء الاهتمام الملائم الذي يجب أن يبديه الشريك هنا؛ لم أسألكِ بعد عن المدة التي قضيتِها في باث، وعمَّا إذا أتيتِ هنا من قبل، وما إذا زرتِ قاعة الحفلات الواقعة شمال المدينة، والمسرح والحفلات الموسيقية، وما إذا كنتِ معجبة بالمكان بصفة عامة، لقد كنتُ شديدَ التقصير، لكن هل لديكِ الوقت الآن لإجابتي حول هذه التفاصيل؟ إذا سمح وقتكِ سأبدأ على الفور.

- لا داعي لإزعاج نفسكَ بذلك يا سيدي.

- أؤكد لكِ أنه لا يوجد أيُّ إزعاجٍ على الإطلاق يا سيدتي.

ثم رسم على وجهه ابتسامة ثابتة، ورقَّق صوته بتصنُّعٍ، وأضاف قائلًا بتكلُّفٍ:

- هل قضيتِ فترة طويلة في باث يا سيدتي؟

أجابت كاثرين وهي تحاول الامتناع عن الضحك:

- قرابة أسبوع يا سيدي.

أجاب بدهشة مصطنعة:

- حقًّا؟

- لمَ أثار ذلك دهشتكَ يا سيدي؟

قال بنبرة صوته الطبيعية:

- لمَ حقًّا؟ لكن يجب على المرء إظهار شعورٍ ما حيال جوابكِ، وإظهار الدهشة أسهل من إظهار سواها، وهي ليست أقلَّ منطقية من أي شعورٍ آخر. والآن، دعينا نواصل الحديث، هل سبق وأن أتيتِ هنا من قبل يا سيدتي؟

- لا، على الإطلاق يا سيدي.

- حقًّا؟ هل شرفتِ قاعة الحفلات الشمالية بزيارتكِ بعد؟

- أجل يا سيدي. كنتُ هناك يوم الاثنين الماضي.

- هل ذهبتِ إلى المسرح؟

- نعم يا سيدي، حضرت مسرحية يوم الثلاثاء.

- والحفل الموسيقي؟

- نعم يا سيدي، في يوم الأربعاء.

- وهل تعجبكِ باث بصورة عامة؟

- أجل، تعجبني للغاية.

- عليَّ الآن منحكِ ابتسامة متكلِّفة، وبعدها يمكننا أن نصير عقلانيين مرة أخرى.

أدارت كاثرين رأسَها، وهي لا تعرف ما إذا كان بوسعها الضحك.

قال بجدية:

- يمكنني رؤية ما تعتقدينه بشأني، لن أكون سوى شخصية بائسة في دفتر يومياتك غدًا.

- دفتر يومياتي!

- أجل. أعرف بالضبط ما سوف تقولينه: يوم الجمعة، ذهبتُ إلى قاعة الحفلات الجنوبية. ارتديتُ ثوبي القطني المنقوش بالزهور والمزيَّن بزركشة زرقاء، وحذائي الأسود. بدوتُ بمظهرٍ جيدٍ للغاية، لكن تعرضتُ للمضايقة على نحوٍ عجيبٍ من رجلٍ غريبٍ أحمق، أجبرني على الرقص بصحبتِه، وأزعجني بهرائِه.

- في الواقع لن أذكر أيَّ شيء من ذلك القبيل.

- هل أخبركِ بما يجب عليكِ قوله؟

- إذا سمحت.

- رقصتُ مع شابٍّ لطيفٍ للغاية، قدَّمه لي السيِّد كينج. تبادلتُ معه الكثيرَ من الحديث. يبدو فائقَ الذكاء، وآمل معرفة المزيد عنه. هذا هو ما أتمنَّى أن تقوليه يا سيدتي.

- لكن، ربما لا أقوم بالتدوين في دفتر يوميات.

- ربما لستِ جالسة في هذه الغرفة، وأنا لستُ جالسًا إلى جوارِكِ. هذه نقاطٌ يمكن الشك فيها بالقدر ذاته. لا تدونين في دفتر يوميات؟ كيف لأبناء عمومتك الغائبين فَهْم فحوى حياتك في باثٍ من دون دفتر يوميات؟ كيف يمكن حكي الملاطفة والمجاملات اليومية كما يجب ما لم يتم تدوينُها كلَّ مساءٍ في دفتر يوميات؟ كيف ستتذكرين ثيابكِ المختلفة وحالة بشرتكِ وتموج شعركِ لتصفيهم بكل حالاتهم المتنوعة، من دون اللجوء المستمر لدفتر يوميات؟ يا سيدتي العزيزة، أنا لا أجهل عادات الشابات بالدرجة التي تعتقدينها عني. إن عادة كتابة اليوميات المبهجة هذه هي التي تسهم بشكلٍ كبيرٍ في تشكيل أسلوب الكتابة السلس الذي تشتهر به السيدات بصفة عامة. يتفق الجميع على أنَّ موهبة كتابة الرسائل اللطيفة هي صفة تختص بالإناث. ربما يكون للطبيعة دورٌ في ذلك، لكنني على ثقة من أن ذلك يجب أن يكون مدعومًا في الأساس بالمداومة على الكتابة في دفتر يوميات.

قالت كاثرين متشككة:

- لقد انشغلتُ بالتفكير أحيانًا فيما إذا كانت النساء يكتبن خطاباتٍ أفضل كثيرًا من تلك التي يكتبها الرجال! أعني أنني لا أعتقد أنَّ التفوق دومًا ما يكون في صالحنا.

- بقدر ما سنحت لي الفرصة للحكم على الأمر، فإنَّه يبدو لي أنَّ الأسلوب المعتاد لكتابة الرسائل بين النساء لا تشوبه شائبة، سوى في ثلاث نقاط محددة.

- وما هي؟

- خلل عام في موضوع الحديث، وعدم الاهتمام على الإطلاق بعلامات الترقيم، والجهل المتكرر للغاية بقواعد اللغة.

- يا إلهي! لم يكن عليَّ الشعور بالتردد في دحض مجاملتك تلك. فأنتَ لا تُكنُّ لنا تقديرًا كبيرًا على هذا النحو.

- لا أستطيع وضعها كقاعدة عامة، أنَّ النساء يكتبن رسائل أفضل من الرجال، أكثر مما أستطيع وضعها كقاعدة أنهن يغنين ثنائيات بصورة أفضل، أو يرسمن المناظر الطبيعية على نحوٍ أكمل. في كل مهارة تقوم على أساس الذوق، فإنَّ التفوق مقسَّمٌ بالتساوي بين الجنسين.

قاطعتهما السيدة ألين. قالت:

- عزيزتي كاثرين، زيلي هذا الدبوس من كمي؛ أخشى أن يكون قد أحدث فيه ثقبًا بالفعل. سأشعر بأسى بالغ لو وقع ذلك، حيث إنَّ هذا أحد ثيابي المفضلة، على الرغم من أنَّه لم يتكلَّف سوى تسعة شلناتٍ لكلِّ ياردة من القماش.

قال السيد تيلني وهو يتأمَّل النسيج القطني:

- هذا هو ما كنتُ سأخمِّنه تحديدًا يا سيدتي.

- هل أنتَ خبيرٌ في الأقمشة القطنية يا سيدي؟

- إلى حدٍّ بعيدٍ. دومًا ما أشتري ربطات العنق الخاصة بي بنفسي، وأنا أجيد الحكم بدرجة ممتازة. وكثيرًا ما وثقتْ بي شقيقتي في اختيار ثيابها. اشتريتُ لها ثوبًا منذ عدة أيام، وظنَّت كلُّ سيدة شاهدته أنَّه صفقة رائعة؛ لم أدفع سوى خمسة شلنات لكلِّ ياردة منه، مع أنه قماشٌ قطني هندي أصلي.

أُعجِبت السيدة ألين أيَّما إعجاب ببراعتِه، وقالت:

- لا يهتم الرجال عادة بمثل هذه الأشياء إلَّا فيما ندر. لا يمكنني أبدًا جعل السيد ألين يفرق بين ثوبٍ وآخر من أثوابي. لا بُدَّ وأنك تمثِّل سلوى كبيرة لشقيقتك يا سيدي.

- أتمنَّى أن أكون كذلك يا سيدتي.

- أرجو أن تخبرني يا سيدي، ما رأيكَ في ثوب الآنسة مورلاند؟

قال وهو يتفحَّصه بجدية:

- إنَّه جميلٌ للغاية يا سيدتي، لكن لا أعتقد أنَّه سوف يتحمَّل الغسيل. سوف ينسل على ما أخشى.

ضحكتْ كاثرين قائلة:

- كيف يمكنك أن تكون...

كادت تقول «غريبًا لهذا الحدِّ».

أجابته السيدة ألين:

- أنا أؤيد رأيكَ تمامًا يا سيدي، وقد أخبرتُ الآنسة مورلاند بذلك عندما ابتاعته.

- لكنكِ تعلمين يا سيدتي أنَّ القماش القطني الخفيف هذا يمكن إعادة استخدامه لغرضٍ أو لآخر، ستحصل الآنسة مورلاند منه على ما يكفي لصنع منديل أو قلنسوة أو عباءة. لا يمكن أبدًا إضاعة النسيج القطني هدرًا، لقد سمعتُ شقيقتي تقول ذلك عشرات المرات، عندما كانت تسرف في شراء ما يفوق احتياجها، أو تهمل عند قصِّه لأجزاءٍ صغيرة.

- إنَّ باث مكانٌ ساحرٌ يا سيدي. توجد عديدٌ من المتاجر الجيدة هنا. لكننا للأسف نقيم بعيدًا في الريف. لدينا متاجر جيدة للغاية في سالزبوري، لكنَّها بعيدة جدًّا، إذ تُعد ثمانية أميالٍ مسافة طويلة. يقول السيد ألين إنها تسعة أميال، وهناك علامة على الطريق تحدِّدها بوصفها تسعة، لكنني على ثقة بأنَّها لا يمكن أن تزيد عن ثمانية. وهي مُرهِقة للغاية، حيث أعود بعدها وأنا منهكة تمامًا، لكن هنا يستطيع المرء الخروجَ وشراء أغراضه في خمس دقائق.

كان السيد تيلني مهذبًا بدرجة كافية حتي يبدي الاهتمامَ بما قالته، وظلَّت تحادثه عن الأقمشة القطنية حتى استؤنِفَ الرقص مرة ثانية. بينما هي تستمع إلى حديثهما، خشيت كاثرين أنَّه كان يشغل نفسه بنواقص الآخرين بدرجة زائدة عن الحدِّ بعض الشيء.

قال بينما هما يسيران عائدين إلى قاعة الرقص:

- ما الذي تفكرين فيه بجدية بالغة هكذا؟ ليس في شريككِ، على ما آمل، لأنّه من خلال الطريقة التي تهزِّين بها رأسَكِ، يبدو أنَّ تأمُّلاتك غير مرضية.

تخضَّب وجه كاثرين بالحمرة، وقالت:

- لم أكن منشغلة بالتفكير في أي شيء.

- هذا الجواب فيه دهاءٌ وعمقٌ بكلِّ تأكيدٍ، لكنني أفضِّل أن تخبريني مباشرة أنكِ لن تقولي لي ما يشغلكِ.

- حسنًا إذن، لن أفعل.

- أشكركِ. سرعان ما سوف نتعارف قريبًا، إذ صرتُ مخولًا بمشاكستكِ حول هذا الموضوع كلما التقينا، ولا يوجد في العالم ما يساعد على تطور المعرفة الحميمة أكثر من ذلك.

رقصا مرة أخرى، وعندما انتهى الجمع، افترقا مع الشعور بميلٍ قوي لاستمرار التعارف، من جانب السيدة على الأقل. لا يمكن القطع بما إذا كانت قد انشغلت بالتفكير فيه كثيرًا وهي تشرب نبيذها الدافئ الممزوج بالماء، أو وهي تهيِّئ نفسَها كي تأوي إلى الفراش حتى تحلم به وهي هناك. لكن آمل ألَّا تكون قد استغرقت سوى في نوم خفيفٍ أو غفوة صباحية على أكثر تقديرٍ، لأنَّه إذا كان الأمر صحيحًا كما أكد أحدُ الكُتَّاب المشهورينَ، أنه لا توجد أي مبررات لوقوع سيدةً شابة في الحب، قبل إعلان الرجل حبَّه لها (5)، فلا بُدَّ وأنه من غير اللائق بدرجة كبيرة أن تحلم سيدة شابة برجلٍ قبل أن يُعرف أنَّ الرجلَ حلم بها أولًا. ربما لم يكن السيد ألين قد فكر بعد في مدى ملائمة السيد تيلني كحالمٍ أو حبيبٍ، لكنَّه اطمأنَّ بعد الاستقصاء أنَّه ليس محلَّ اعتراضٍ كأحد المعارف العاديين للشابة التي تحت وصايتِه، إذ كان قد تجشَّم العناءَ في وقتٍ سابقٍ من تلك الأمسية لمعرفة من يكون شريكها، وتأكَّد من كون السيد تيلني كاهنًا من أسرة محترمة للغاية في جلوسترشير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 4 -

سارعت كاثرين إلى قاعة مضخات المياه المعدنية بحماسٍ أكبر من المعتاد في اليوم التالي، شاعرة بالثقة بأنَّها سوف تلتقي السيد تيلني هناك قبل انقضاء النهار، وعلى استعدادٍ لمقابلته بابتسامة. إلا أنَّها لم تضطر إلى الابتسام، حيث لم يظهر السيد تيلني. كان يمكن رؤية جميع من في باث في القاعة، سواه هو، في أوقاتٍ مختلفة من تلك الساعات التي يروج خلالها ارتيادُ المكان. مرَّت حشودٌ من الناس دخولًا وخروجًا في كل لحظة، صعودًا وهبوطًا عبر الدرج. أناس لا يكترث بهم أحدٌ، ولا يرغب في رؤيتهم أحدٌ، وكان هو وحده غائبًا.

قالت السيدة ألين بينما جلستا بالقرب من الساعة الضخمة، بعد أن ذرعتا القاعة حتى حلَّ عليهما التعب:

- إنَّ باث مكانٌ ساحرٌ للغاية. كم سيكون الأمر لطيفًا لو كان لدينا أيُّ معارف هنا.

كانت السيدة ألين قد عبَّرت عن شعورها هذا كثيرًا من قبل من دون جدوى، لدرجة أنه لم يكن هناك أيُّ سببٍ يدعوها الآن لتأمل أن يلي قولها هذا أيُّ جديدٍ. لكن يقال لنا ألا نيأس من تحقيق أي شيء نرغب فيه، إذ إن المثابرة من دون كللٍ كفيلة بتحقيق ما نتمنَّى. وكانت المثابرة التي ظلَّت تكرر بها أمنيتها كلَّ يوم من دون كللٍ على وشك أن تؤتي ثمارها، حيث إنها لم تكن قد جلست لمدة عشر دقائق بالكاد، قبل أن توجه لها سيدة في نفس عمرها تقريبًا تجلس بالقرب منها الكلمات التالية بكياسة شديدة، بعد أن ظلَّت تتأمَّلها باهتمامٍ لعدة دقائق:

- أعتقد يا سيدتي أنَّني لا يمكن أن أكون مخطئة، لقد مضى وقتٌ طويلٌ منذ أن سررتُ بلقائكِ آخر مرة، لكن أليس اسمكِ هو ألين؟

بعد الجواب على سؤالِها من دون ترددٍ، أعلنت السيدة الغريبة أنَّ اسمَها ثورب، وتعرَّفت السيدة ألين على الفور على ملامح زميلة دراستها السابقة وصديقتها المقربة التي رأتها مرة واحدة فقط منذ زواج كلٍّ منهما قبل سنواتٍ عديدة مضت. كانت فرحة لقائهما هذا عظيمة بطبيعة الحال، إذ لم تكونا تعرفان شيئًا عن بعضهما طوال خمسة عشر عامًا الماضية. تبادلتا الإطراء حول جمال مظهريهما، وبعد التعليق على طول الفترة الزمنية التي انقضت منذ أن اجتمعتا معًا آخر مرة، وعن مفاجئتهما من أنَّهما التقتا في باث، وسعادتهما للقاء صديقة قديمة، شرعتا في الاستفسار وإعطاء المعلومات حول أسرتيهما والشقيقات وأبناء العمومة، وكلتاهما تتحدثانِ في ذات الوقت، على استعدادٍ لتقديم المعلومات بدرجة أكبر كثيرًا من استقبالِها، وقد سمعت كلُّ واحدة منهما أقلَّ القليل مما قالته الأخرى. إلَّا أنَّ السيدة ثورب تمتَّعت بميزة كبيرة فاقت بها السيدة ألين كمتحدثة، بوصفها لديها أسرة من الأبناء. وعندما استفاضت في الحديث عن مواهب أولادها، وجمال بناتها، وحكت عن أوضاعهم المختلفة وتوقعاتهم للمستقبل، وكيف أنَّ جون في أوكسفورد، وإدوارد في المدرسة، وويليام في البحرية، وأنَّ ثلاثتهم محبوبون ومحترمون في مناصبهم المختلفة أكثر مما كان أي ثلاثة أشخاصٍ من قبل، لم تكن لدى السيدة ألين معلومات مماثلة لتقدمها، ولا انتصارات شبيهة لتقصَّها على مسامع صديقتها غير الراغبة وغير المصدقة. اضطرَّت إلى أن تجلس وتبدي الاستماع لكل هذا الحديث

الأمومي المتدفق. مع ذلك، واست نفسها بالاكتشاف الذي وقعت عليه عينها الحادة، وهو أنّ الدانتيل الذي يزيِّن سترة السيدة ثورب لم يكن يضاهي نصفَ جمال الدانتيل الذي يزيِّن ثوبَها هي.

صاحت السيدة ثورب، مشيرة نحو ثلاث شابات أنيقات المظهر كنَّ يتقدَّمن نحوها وقد تشابكت أذرع بعضهن مع بعض:

- ها هن بناتي العزيزات قادمات. يا عزيزتي السيدة ألين، كم أتوق لتقديمهن لكِ. سوف يشعرن بسعادة بالغة للقائكِ. أطولهن هي إيزابيلا، كبرى بناتي، أليست شابة جميلة؟ الأخريان محل إعجاب بالغ أيضًا، لكنني أعتقد أن إيزابيلا هي أجملهن.

تمَّ تقديمُ الآنسات ثورب، وكذلك تمَّ تقديمُ الآنسة مورلاند، التي نُسي أمرُها لفترة قصيرة. بدا أنَّ الاسم لفت انتباههن جميعًا، وبعد تبادل الحديث معها بلطفٍ شديدٍ، علَّقت الشابة الكبرى قائلة للباقين بصوتٍ مرتفعٍ:

- كم تشبه الآنسة مورلاند شقيقها بدرجة مفرطة!

صاحت الأم قائلة:

- إنها صورة منه حقًّا!

وكرَّرن جميعًا مرتين أو ثلاث قائلات:

- كنتُ سأعرف أنها شقيقته لو شاهدتها في أي مكانٍ!

أحسَّت كاثرين بالدهشة للحظة، لكنَّ السيدة ثورب وبناتها لم يكدن يبدأن في رواية تاريخ معرفتهن بالسيد جيمز مورلاند، حتى تذكرت أنَّ أكبر أشقَّائها قد عقد صداقة حميمة مؤخرًا مع شابٍّ في كليته يحمل اسم ثورب، وأنه قضى الأسبوع الأخير من عطلة عيد الميلاد مع أسرته بالقرب من لندن.

بعد شرح الأمر برمته، نطقتْ الآنسات ثورب بعديدٍ من المجاملات بخصوص رغبتهن في التعرُّف عليها بصورة أفضل، واعتبارهن صديقات بالفعل من خلال صداقة شقيقيْهنَّ، وما إلى ذلك. استمعت كاثرين لذلك بكلِّ سرورٍ، وأجابت بكلِّ التعبيرات الجميلة التي في وسعها استحضارها، وكأوَّل دليلٍ على الصداقة، سرعان ما دُعيت لتشبك ذراعَها بذراع الآنسة ثورب الكبرى، والتجوُّل برفقتِها عبر القاعة. غمرت كاثرين السعادة لازدياد معارفها في باث، حتى كادت تنسى السيد تيلني بينما هي تتبادل الحديثَ مع الآنسة ثورب. الصداقة هي بالتأكيد أفضل بلسم لآلام الحب المُحبَط.

دار حديثُهما حول تلك الموضوعات التي كان نقاشُها الحرُّ بشكلٍ عامٍّ يسهم بدرجة كبيرة في توثيق أواصر الحميمية بين شابَّتين، مثل الأزياء، والحفلات الراقصة، والمغازلات، والأشخاص غريبي الطباع. لكن بما أن الآنسة ثورب كانت تكبر الآنسة مورلاند في العمر بأربع سنوات، وتفوقها خبرة على الأقل بأربع سنوات، فقد كانت تتمتَّع بأفضلية واضحة في مناقشة هذه النقاط. كان بوسعِها مقارنة الحفلات الراقصة في باث بتلك الموجودة في تونبريدج، ومقارنة أزياء باث بأزياء لندن، كما استطاعت تصحيحَ آراء صديقتها الجديدة بخصوص الكثير من التفاصيل المتعلقة بالملبس الأنيق. وكان بوسعها اكتشاف أي غزلٍ يدور بين أي رجلٍ وسيدة رغم كونهما لم يتبادلا سوى الابتسام

فحسب، والإشارة إلى شخصٍ غريب الأطوار وسط ازدحام الحشد. تلقت مهاراتها تلك الإعجاب الذي تستحقُّه مِن كاثرين، التي كان كلُّ ذلك جديدًا تمامًا بالنسبة إليها. كان من الممكن أن يصبح التقدير الذي ولَّدته تلك المواهب بصورة طبيعية أكبر من أن يسمح بالألفة بينهما، لولا بهجة الآنسة ثورب وبساطة سلوكها، وتعبيرها المتكرر عن سعادتها لتعارفهما هذا، مما خفَّف كلَّ شعورٍ بالرهبة، ولم يخلِّف سوى المودة الرقيقة.

لم يكن ارتباطُهما المتزايد ببعضهما ليقنع ببضع دوراتٍ عبر قاعة مضخات المياه المعدنية فحسب، بل تطلَّب الأمرُ منهما عندما غادرتا المكان معًا أن ترافق الآنسة ثورب الآنسة مورلاند حتى باب منزل السيد ألين، حيث افترقتا بمصافحة طويلة بالغة المودة، بعد ارتياحهما لمعرفة أنهما سوف تلتقيان مرة أخرى في المسرح تلك الليلة، وستؤديان صلواتهما في الكنيسة نفسها في صباح اليوم التالي. ركضت كاثرين صاعدة الدرج مباشرة، وراقبت ابتعاد الآنسة ثورب عبر الطريق من خلال نافذة غرفة المعيشة. أعجبت برشاقتِها في المشي، والطابع العصري لهيئتِها ولباسِها، وأحسَّت بالامتنان كما يجب للصدفة التي أتت لها بمثل هذه الصديقة.

كانت السيدة ثورب أرملة، لا تتمتَّع بثراءٍ بالغ. كانت امرأة ودودة حسنة النية، وأمًّا متساهلة للغاية. اتَّصفتْ ابنتُها الكبرى بجمالٍ فائقٍ، أمَّا الصغرتان، فمن خلال تظاهرهما بأنَّهما تضاهيان شقيقتهن جمالًا، وتقليد سلوكها وارتداء الملابس بنفس الأسلوب، فقد أبليتا بلاءً حسنًا.

يهدف هذا الوصف الموجز للأسرة لأن يحلَّ محلَّ اضطرار السيدة ثورب نفسها إلى سرد تفاصيل دقيقة مطوَّلة عن مغامراتها السابقة ومعاناتها، التي كان من المتوقع لولا ذلك أن تحتلَّ الفصول الثلاثة أو الأربعة التالية ويُسرَد فيها حقارة اللوردات والمحامين، وتُكرر بها تفاصيل محادثات دارت منذ عشرين عامًا مضتْ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

لم تنشغل كاثرين في المسرح ذلك المساء بدرجة كبيرة في ردِّ إيماءات وابتسامات الآنسة ثورب، على الرغم من أنَّ ذلك استغرق كثيرًا من وقت فراغها بالتأكيد، إلى الحد الذي يجعلها تنسى التفتيش بنظرها مستفسرة عن وجود السيد تيلني في كل مقصورة تصلها عيناها، لكنَّ بحثَها ذاك كان من دون جدوى. لم يكن السيد تيلني يميل إلى المسرح أكثر من ميله إلى قاعة مضخات المياه المعدنية. تمنَّت أن يسعدها الحظُّ أكثر في اليوم التالي، وعندما تحقَّقت آمالَها وساد طقسٌ جميلٌ في الصباح، لم يساورها أي شكٍّ في الأمر، إذ إنَّ الطقس الجيد في باث أيام الأحد كان يدفع كلَّ من بالمنازل خارجها، فيظهر الجميع في مثل هذه المناسبة ليتجولوا في الأرجاء، وهم يتبادلون الحديث مع معارفهم بشأن ذلك اليوم الفاتن.

ما إن انتهى القداس، حتى انضم آل ثورب وآل ألين بعضهما إلى بعضٍ بحماسٍ. وبعد أن مكثوا لفترة كافية في قاعة مضخات المياه ليكتشفوا أنَّ الحشودَ هناك لا تحتمل، وأنه لا وجود لأي أشخاصٍ من الطبقة الراقية، وهو ما يكتشفه الجميع في كلِّ يوم أحد طوال الموسم، سارعوا بالابتعاد والذهاب إلى مبنى الهلال (6) لاستنشاق الهواء النقي مع صحبة أفضل. هناك تشابك ذراعا كاثرين وإيزابيلا مرة أخرى، وتذوقتا حلاوة الصداقة من خلال الحديث الصريح غير المتحفظ. تبادلتا الحديثَ المطول بكثيرٍ من المتعة، إلَّا أنَّ آمال كاثرين في رؤية شريكها ثانية خابت مرة أخرى؛ لم يظهر في أي مكانٍ، وفشلت جميعُ الجهود في البحث عنه، سواء في النزهات الصباحية أو التجمعات المسائية. لم يظهر في قاعات الحفلات الشمالية ولا الجنوبية، ولا في الحفلات الراقصة الرسمية أو غير الرسمية، ولا بين المشاة أو راكبي الخيل، أو سائقي العربات في الصباح. لم يكن اسمُه مسجَّلًا في دفتر الزوار بقاعة مضخات المياه، ولم يعد هناك المزيدُ مما يمكن لفضولها تخيله. لا بُدَّ أنه رحل عن باث. ومع ذلك، فلم يذكر أن إقامته سوف تكون قصيرة لهذا الحدِّ!

هذا الجو من الغموض الذي دومًا ما يليق بالبطل، ألقى في خيال كاثرين بسحرٍ متجددٍ حول شخصيته وسلوكه، وزاد من تلهُّفِها لمعرفة المزيد عنه. لم تتمكَّن من اكتشاف شيء من آل ثورب، إذ لم يكونوا قد أمضوا سوى يومين فحسب في باث، قبل لقائهم بالسيدة ألين. مع ذلك، كثيرًا ما انغمست في الحديث عن هذا الموضوع مع صديقتها الجميلة، التي تلقَّت منها كلَّ التشجيع لمواصلة التفكير فيه، لذا لم يضعف الانطباع الذي خلَّفه في مخيلتِها. كانت إيزابيلا واثقة تمام الثقة بأنَّه لا بُدَّ وأن يكون شابًّا فاتنًا، وعلى نفس القدر من الثقة بأنه لا بُدَّ وأن يكون قد أُعجب بعزيزتها كاثرين، وبالتالي سيعود قريبًا. كانت تميل إليه أكثر لكونه رجلَ دين.

- عليَّ الاعتراف أنني متحيزة للغاية لتلك المهنة.

انفلت منها ما يشبه التنهيدة بينما هي تقول ذلك. ربما أخطأت كاثرين في عدم مطالبتها معرفة السبب وراء تلك المشاعر الرقيقة، لكنها لم تكن خبيرة بما يكفي بخبايا الحب أو واجبات الصداقة، لتعرف متى يستدعي الموقف المُزاح بخفة أو متى يحتاج الأمر إلى المطالبة بالمصارحة.

بدت السيدة ألين بالغة السعادة الآن، وراضية تمامًا عن باث، فقد عثرت على بعض المعارف، وأسعدها الحظ بحيث كانوا أسرة صديقة قديمة غالية. واكتملت سعادة الحظ بأنَّ هؤلاء الأصدقاء لم يكونوا بأيِ حالٍ من الأحوال يرتدون ملابسَ باهظة الثمن مثلها هي. لم تعد عبارتُها اليومية المتكررة هي: «أتمنَّى لو كان لدينا بعضُ المعارف في باث!»، بل تحوَّلت لتصير: «كم أنا سعيدة لأنَّنا التقينا السيدة ثورب!». وكانت حريصة على تنمية العلاقة بين الأسرتين، بنفس قدر حرص الشابة الواقعة تحت وصايتها وإيزابيلا أنفسهما. لم تكن ترضى عن اليوم مطلقًا، ما لم تقضِ معظمه بصحبة السيدة ثورب، وهما تتبادلان ما كانتا تطلقان عليه مسمَّى «الحديث». لكن لم يكن هناك أيُّ تبادل للآراء على الإطلاق تقريبًا، ولا أي تشابه في موضوعات الحديث تقريبًا، إذ إنَّ السيدة ثورب كانت تتحدث في الغالب عن أبنائها، بينما تتحدث السيدة ألين عن ثيابها.

تقدَّمت علاقة الصداقة بين كاثرين وإيزابيلا بسرعة تضاهي دفء بدايتها، ومرَّتا سريعًا بكلِّ درجات الود المتزايد، حتى لم يعد هناك أيُّ دليلٍ جديد عليه يمكنهما تقديمه لأصدقائهما أو لنفسيهما. نادتا بعضهما باسمهما الأول، ودومًا ما كان ذراعاهما متشابكتين عند ذهابهما للتمشية، كما كانت كلٌّ منهما ترفع طرف ثوب الأخرى وتثبِّته بالدبابيس قبل الرقص، ولم تفترق إحداهما عن الأخرى عند تقسيم مجموعات الرقص. وفي حال ما إذا حرمهما صباحُ يوم ممطرٍ من أي متع أخرى، كانتا تصممان على اللقاء وتحدي المطر والأوساخ، فتجتمعان في غرفةٍ مغلقةٍ لقراءة الروايات معًا، أجل، الروايات! فلن أتبنى تلك العادة غير الكريمة التي تفتقر إلى الحكمة، التي هي شائعة جدًّا بين كُتَّاب الروايات، حيث يحقِّرون بانتقادِهم وازدرائهم نفس تلك الأعمال التي يضيفون هم ذاتهم إلى أعدادها، وينضمون إلى أكبر أعدائهم في إضفاء أقسى الألقاب على هذه الأعمال، ونادرًا ما يسمحون لبطلاتهم بقراءتها، وإذا حدث وأن تناولت إحداهن رواية بطريق الخطأ، فمن المؤكد أنها سوف تقلِّب صفحاتها التافهة باشمئزاز. واأسفاه! لو لم تناصر بطلة إحدى الروايات بطلة رواية أخرى، فممن إذن يمكنها أن تتوقَّع نيل الحماية والاحترام؟ لا يمكنني الموافقة على ذلك. لندع النقَّاد يستمتعون بانتقاد انسياب الخيال هذا، والحديث باستهجانٍ عن كلِّ رواية جديدة، وعن الحُثالة التي أضحت المطابع تئنُّ تحت وطأتها. دعونا لا يتخلَّى بعضنا عن بعضٍ، فنحن جماعة نتعرض للطعن من الآخرين. على الرغم من أن أعمالنا وفَّرت متعة أشمل وأصدق من تلك التي توفرها أي جماعات أدبية أخرى في العالم، إلا أنَّ أيَّ شكلٍ أدبي آخر لم يلقَ الاستنكار بالقدر ذاته. يكاد عدد أعدائنا يداني عدد قرائنا، إما بدافع من التكبُّر أو الجهل أو مسايرة الصيحات الرائجة. وفي حين أنَّ هناك آلافَ الأقلام التي تمجِّد جهودَ قدرات الشخص رقم تسعمائة الذي يكتب موجزًا لتاريخ بريطانيا، أو ذلك الذي يجمع وينشر في مجلد عشرات الأبيات من قصائد ميلتون وبوب وبريور، مع مقالٍ من مجلة سبيكتيتور وفصلٍ من أعمال ستيرن، فإنَّه يبدو أنَّ هناك رغبةً تكاد تكون عامة في شجب قدرات الروائي والتقليل من قيمة جهده، وفي الاستهانة بالأعمال التي ليس لديها شفيعٌ سوى الذكاء والفكاهة والذوق الرفيع. «أنا لا أقرأ الروايات. نادرًا ما أطالع الروايات. لا تتخيل أنني أقرأ الكثيرَ من الروايات. إنها حقًّا جيدة للغاية بالنسبة إلى كونها رواية»، هذا هو النوع السائد من الرياء. «وما الذي تقرأينه يا آنسة؟»، فتجيب السيدة الشابة قائلة: «أوه! إنها مجرد رواية!»، بينما تنحي كتابَها جانبًا بلا مبالاة مصطنعة أو شعور مؤقت بالخزي. «إنها ليست سوى رواية سيسيليا أو كاميلا أو بيليندا فحسب». أو باختصار، مجرد عملٍ ما تظهر خلاله أعظمُ قدرات العقل البشري، الذي يُنقل عبره بأفضل لغة منتقاة أعمُّ المعارف

شمولًا عن الطبيعة البشرية، وأفضل تصوير لأشكالها المختلفة، وأفضل استفاضة بحيوية للذكاء والفكاهة. لو كانت نفس تلك الشابة منشغلة بمجلدٍ من أعداد مجلة سبيكتيتور، بدلًا من مثل هذا العمل، كم كانت ستفخر بإظهار الكتاب وذكر اسمِه، على الرغم من ضعف احتمالات انشغالها بقراءة أي جزءٍ من تلك المجلدات الضخمة، التي ستثير موضوعاتُها أو أسلوبُها اشمئزازَ أي شابة تتمتع بذوقٍ رفيعٍ. إذ إنَّ جوهرَ صفحاتها يحوي في الغالب سردًا لحكاياتٍ من الصعب تصديقها، وشخصياتٍ غير طبيعية، وموضوعاتٍ للحديث لم تعد تهمُّ أيَّ شخصٍ على قيد الحياة، كما أنَّ لغتَها أيضًا سوقية للغاية في كثيرٍ من الأحيان، بحيث تعطي انطباعًا سيِّئًا للغاية عن العصر الذي يمكنه تحمُّل مثل تلك اللغة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 6 -

المحادثة التالية التي دارت ذات صباحٍ بين الصديقتين في قاعة مضخات المياه بعد تعارف دام لمدة ثمانية أو تسعة أيام، هي نموذجٌ من دفء ارتباط بعضهما ببعض، ومن الرقي والتعقُّل وأصالة الفكر والذائقة الأدبية التي ميَّزت حصافة ذلك الارتباط.

التقيتا بناءً على موعدٍ محددٍ مسبقًا، وبما أنَّ إيزابيلا وصلت قبل صديقتِها بنحو خمس دقائق، كان أول ما قالته لها بطبيعة الحال هو:

- يا صديقتي العزيزة، تُرى ما الذي أخَّركِ إلى هذا الحد؟ لقد مكثتُ في انتظاركِ دهرًا كاملًا على الأقل!

- أحقًّا فعلتِ؟ أنا آسفة جدًّا لذلك، لكنني ظننتُ أنني أتيتُ في الوقت المناسب. الساعة الواحدة فحسب. أتمنى ألَّا تكوني قد انتظرتِ هنا لفترة طويلة.

- أوه! لعشرة دهور على الأقل! أنا على ثقة من أنني أنتظر هنا منذ نصف ساعة. لكن دعينا نذهب الآن للجلوس في الطرف المقابل من القاعة، ونستمتع بوقتنا. لديَّ مئات الأشياء التي أرغب في إخباركِ عنها. في البداية، شعرتُ بقلقٍ بالغ من أن تمطر السماء هذا الصباح حينما أردتُ الخروج. بدا الجوُّ غائمًا للغاية، وكان ذلك سيصيبني بتعاسة بالغة! أتعلمين، لقد شاهدتُ أجملَ قبعة بوسعكِ تخيلها في نافذة متجرٍ بشارع ميلسوم الآن، تشبه قبعتكِ بدرجة كبيرة، لكنها مزيَّنة بشرائط حمراء بدلًا من خضراء. تمنَّيتُ الحصولَ عليها بشدة. لكن يا عزيزتي كاثرين، ما الذي كنتِ تفعلينه طيلة هذا الصباح؟ هل واصلتِ قراءة أودولفو؟ (7)

- أجل، لقد انشغلتُ بقراءتِها منذ أن استيقظتُ، ووصلتُ حتى الحجاب الأسود.

- حقًّا؟ يا له من أمرٍ رائع! أوه! لن أخبركِ ما يختفي خلف الحجاب الأسود ولو مقابل كنوز العالم بأكملِه! ألستِ متشوقة لمعرفة ذلك؟

- أوه! أجل، إلى حدٍّ كبير! تُرى ماذا يمكن أن يكون؟ لكن لا تخبريني، لا أريد أن يخبرني أحدٌ تحت أي ظرفٍ من الظروف. أعرف أنه لا بُدَّ وأن يكون هيكلًا عظميًّا. أنا متأكدة أنه الهيكل العظمي للورينتينا. أوه! أنا مسرورة للغاية بالكتاب! أتمنَّى لو قضيتُ حياتي بأكملِها في قراءتِه. أؤكد لكِ أنَّه لو لم يكن عليَّ لقاؤكِ، لِمَا تركته مقابل العالم بأسرِه!

- يا عزيزتي! كم أنا ممتنَّة لكِ. وعندما تنتهين من قراءة أودولفو، سنقرأ معًا رواية «الإيطالي»، وقد أعددتُ لكِ قائمة من عشرة أو اثنتي عشرة رواية أخرى من نفس النوع.

- أفعلتِ حقًّا؟ يا لسعادتي! ما اسمهم جميعًا؟

- سأقرأ لكِ العناوين مباشرة. ها هي مدوَّنة في دفتري: قلعة ولفينباخ، كليرمونت، تحذيرات غامضة، ساحر الغابة السوداء، جرس منتصف الليل، يتيمة نهر الراين، وأسرار مرعبة. ستكفينا هذه لبعض الوقت.

- أجل، حسنًا. لكن هل جميعها مرعبة؟ هل أنتِ على ثقة بأنّ كلهم يثيرون الرعب؟

- نعم، تمام الثقة، إذ إن إحدى صديقاتي، الآنسة أندروز، وهي فتاة لطيفة، واحدة من ألطف الكائنات في العالم، قد قرأتها جميعها. أتمنى لو كنتِ تعرفين الآنسة أندروز، ستعجبين بها للغاية، إنَّها تغزل لنفسها أجمل عباءة يمكنكِ تخيُّلها. أظنها جميلة كملاكٍ، وأنا منزعجة للغاية من الرجال لعدم إعجابهم بها! أنا أوبِّخهم جميعًا بشدة بسبب ذلك.

- توبخينهم! هل توبخينهم لعدم إعجابهم بها؟

- نعم، هذا هو ما أفعله. لا يوجد شيءٌ لن أقدِم عليه من أجل أصدقائي الحقيقيين. ليست لديَّ القدرة على الحب بنصف مشاعري فحسب، ليس هذا من طبعي. دومًا ما يكون تعلّقي بالآخرين بشدة مفرطة. لقد قلتُ للقبطان هانت في واحدة من تجمعاتنا هذا الشتاء إنني لن أرقص معه إذا استمرَّ في مشاكستي طيلة الأمسية، ما لم يعترف أنَّ الآنسة أندرو جميلة كملاكٍ. يعتقد الرجال أننا غير قادراتٍ على إقامة علاقات صداقة حقيقية كما تعلمين، وأنا مصممة على أن أوضح لهم الفارق. وإذا سمعتُ أيَّ شخصٍ الآن يتحدث عنكِ باستخفافٍ، ستثور ثائرتي على الفور. لكنَّ حدوثَ ذلك غير مرجح على الإطلاق، حيث إنكِ من ذلك النوع من الفتيات الذي يفضِّله الرجال للغاية.

قالت كاثرين وهي تتخضب حمرة:

- أوه! يا عزيزتي، كيف يمكنكِ قول ذلك؟

- أنا أعرفكِ تمام المعرفة. أنتِ تتمتعين بحيوية بالغة، وهو ما تفتقر إليه الآنسة أندروز بالتحديد. فعليَّ الاعتراف أنَّ بها شيئًا مضجرًا بدرجة كبيرة. أوه! يجب أن أخبركِ أنه بعد أن افترقنا بالأمس، رأيتُ شابًّا يتأمَّلكِ بشدة بالغة. أنا على ثقة من أنَّه واقعٌ في حبكِ.

تضرَّج وجه كاثرين بالحمرة، وأبدت استنكارَها مرة أخرى. ضحكت إيزابيلا.

- هذا صحيحٌ، بشرفي. لكنَّني أتفهَّم الأمرَ، فأنتِ لا تبالين بإعجاب أيِّ شخصٍ، سوى رجلٍ واحدٍ، لن أذكر اسمَه. كلا، لا أستطيع أن ألومكِ.

واصلت إيزابيلا الحديث بنبرة أكثر جدية قائلة:

- من السهل فَهْم مشاعركِ. أعرف جيدًا كيف لا يسعد المرءُ باهتمام أي شخصٍ آخر، حين يكون القلبُ متعلقًا حقًّا بأحدهم. يبدو كلُّ شيء لا يتعلَّق بالمحبوب تافهًا وغير مثيرٍ للاهتمام! أستطيع تفهُّم مشاعركِ تمامًا.

- لكن لا يجب عليكِ إقناعي بأنني منشغلة بالتفكير في السيد تيلني لهذا الحدِّ، فربما لا أراه مرة أخرى أبدًا.

- لا ترينه مرة أخرى أبدًا! يا عزيزتي، لا تقولي هذا. أنا متأكدة أنكِ ستشعرين بالتعاسة لو فكرتِ على هذا النحو.

- لا، في الواقع لا ينبغي عليَّ ذلك. لن أتظاهر بأنّني لم أعجب به للغاية، لكن طالما كانت لديَّ رواية أودولفو لأقرأها، أشعر أنه لا يوجد ما يمكن أن يجعلني أحسُّ بالتعاسة. أوه! ذلك الحجاب الأسود المريع! يا عزيزتي إيزابيلا، أنا متأكدة أنَّ الهيكل العظمي للورينتينا لا بُدَّ وأن يكون وراءه.

- إنه أمرٌ فائقُ الغرابة بالنسبة إليّ أنكِ لم تقرئي أودولفو من قبل. لكنني أفترض أنَّ السيدة مورلاند تعترض على الروايات.

- لا، إنها لا تعترض. فهي كثيرًا ما تقرأ بنفسها رواية «السير تشارلز جرانديسون»؛ لكن الكتب الجديدة لا تقع في طريقنا كثيرًا.

- «السير تشارلز جرانديسون»! إنَّه كتابٌ بشعٌ للغاية، أليس كذلك؟ أتذكر أنَّ الآنسة أندروز لم تتمكَّن من إكمال المجلد الأول منه.

- إنَّه لا يشبه أودولفو على الإطلاق، لكنني أعتقد مع ذلك أنَّه ممتعٌ للغاية.

- أتعتقدين ذلك حقًّا؟ إنكِ تثيرين دهشتي. كنتُ أظنُّ أنَّه غيرُ قابلٍ للقراءة. لكن يا عزيزتي كاثرين، هل استقررت على ما سوف تعتمرينه على رأسكِ الليلة؟ أنا عازمة على تقليد ملبسكِ تمامًا في كل المناسبات؛ فإن الرجال يلحظون ذلك أحيانًا، كما تعرفين.

قالت كاثرين ببراءة شديدة:

- لكن لا أهمية لذلك لو لاحظوا بالفعل.

- أهمية! يا إلهي! أنا أجعلها قاعدة عامة، ألَّا أهتم بما يقولونه. كثيرًا ما يكونون بالغي الوقاحة، لو لم تعامليهم بجرأة وتجبرينهم على التزام حدِّهم.

- هل هم كذلك حقًّا؟ حسنًا، لم ألحظ ذلك قطُّ. دومًا ما يتصرفون معي على نحوٍ مهذبٍ للغاية.

- أوه! دومًا ما يتصرفون بتكبُّرٍ بالغٍ. إنَّهم أكثر المخلوقات غرورًا في العالم، ويعتقدون أنهم ذوو أهمية كبيرة! بالمناسبة، على الرغم من أنني فكرت في الأمر مئة مرة، إلا أنني دومًا ما أنسى سؤالكِ عن نوع البشرة التي تفضلينها في الرجال. هل تفضلينهم شقرًا أم سمرًا؟

- لا أكاد أعرف. لم أفكر في ذلك كثيرًا. أفضِّل شيئًا ما بين ذلك، على ما أعتقد. أفضِّل الشعر البني، ليس فاتحًا، ولا داكنًا للغاية.

- حسنًا، يا كاثرين. هذا يصفه تمامًا. لم أنسَ وصفَكِ للسيد تيلني. «بشرة سمراء، بعينين داكنتين، وشعر داكن نوعًا ما». حسنًا، إن ذوقي مختلفٌ. أنا أفضِّل الأعين الفاتحة. أما بالنسبة إلى البشرة، أتعرفين، فأنا أفضل تلك الشاحبة أكثر من أي بشرة أخرى. يجب ألا تفضحي سري، إذا حدث وأن التقيتِ بأحد معارفكِ ممن ينطبق عليهم هذا الوصف.

- أفضح سرك! ما الذي تعنينه؟

- لا، لا توجعيني. أعتقد أنني قلتُ ما فيه الكفاية. دعينا نسقط الموضوع.

امتثلت كاثرين بقدرٍ من الدهشة، وبعد أن ظلت صامتة لبضع لحظاتٍ، كانت على وشك العودة إلى ما أثار اهتمامَها في ذلك الوقت أكثر من أي شيء آخر في العالم، وهو الهيكل العظمي للورينتينا. لكن صديقتها منعتها حينها بأن قالت:

- بحق السماء! دعينا نبتعد عن هذا الطرف من القاعة. أتدرين أنَّ هناك شابين بغيضين ظلّا يحدّقان بي طوال نصف الساعة الماضية؟ لقد أزعجاني بالفعل. لنذهب ونلقي نظرة على الوافدين، فمن غير المحتمل أن يتبعانا إلى هناك.

ذهبتا إلى دفتر أسماء الوافدين، وبينما تفحَّصت إيزابيلا الأسماء، كانت مهمة كاثرين هي مراقبة سلوك هذين الشابين المثيرين للقلق.

- إنهما ليسا قادمين نحونا، أليس كذلك؟ أتمنى ألَّا يكونا وقحين بالدرجة التي تدفعهما لتتبُّعنا. أرجو أن تخبريني لو كانا قادمين، فأنا مصممة على ألا أرفع رأسي لأنظر.

في غضون لحظاتٍ قليلة، أكدَّت لها كاثرين بسرورٍ حقيقيٍّ أنَّه لا حاجة بها للشعور بالاضطراب بعد الآن، إذ إن الرجلين غادرا قاعة المضخات للتوِّ.

سألتها إيزابيلا، وهي تستدير على عجلٍ:

- في أي اتجاه ذهبا؟ كان أحدُهما شابًّا بالغَ الوسامة.

- ذهبا في اتجاه ساحة الكنيسة.

- حسنًا، أنا سعيدة للغاية لأنَّني تخلَّصتُ منهما! والآن، ما رأيكِ أن ترافقيني إلى بناية إدجار لتشاهدي قبعتي الجديدة؟ لقد ذكرتِ أنكِ ترغبين في رؤيتها.

وافقت كاثرين على الفور، لكنها أضافت قائلة:

- لكن ربما نلحق بالشابين.

- أوه، دعكِ من هذا! إذا أسرعنا الخطو، فلن نلبث أن نتجاوزهما، وأنا أتوق لأن أريكِ قبعتي الجديدة.

- لكن إذا انتظرنا بضع دقائق فحسب، فلن يعودَ هناك خطرٌ من رؤيتنا لهما على الإطلاق.

- أؤكد لكِ أنني لن أقدِّم لهما أيَّ مجاملة من هذا النوع على الإطلاق. ليست لديَّ أيُّ نية لمعاملة الرجال بمثل هذا القدر من الاحترام. هذه هي الطريقة لإفسادهم.

لم يكن لدى كاثرين اعتراضٌ ضد ذلك النوع من المنطق، لذا لإظهار استقلالية الآنسة ثورب، وعزمها على إذلال الجنس الآخر، انطلقتا على الفور بأسرع ما يمكنهما، لملاحقة الشابين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلال نصف دقيقة، انتقلتا من الساحة الكائنة أمام قاعة المضخات، إلى الممر المقنطر الواقع في الجهة المقابلة لممر يونيون، إلَّا أنَّهما توقفتا هناك. قد يتذكر كلُّ شخصٍ على دراية بباث مدى صعوبة عبور شارع تشيب عند هذه النقطة. حيث إنه حقًّا شارعٌ ذو طبيعة مزعجة، وقد اتصل لسوء الحظ بالطريقين الرئيسين المؤديين إلى لندن وأوكسفورد، بالإضافة إلى وجود النزل الرئيس بالمدينة، حتى إنه لم يكن يمرُّ يومٌ واحدٌ من دون أن تُحتجز فيه جماعاتٌ من النساء على أيٍّ من جانبي الطريق، سواء بسبب عربات الركاب والبضائع، أو الخيل، مهما كانت أهمية ما يسعين خلفه، سواء كان ذلك البحث عن المعجنات أو القبعات، أو حتى (كما هو الحال هنا) الشباب. أدركت إيزابيلا سوء الحظ هذا، وندبته على الأقل ثلاث مرات في اليوم منذ أن أتت للإقامة في باث، وكتبت لها الأقدار أن تشعر بسوء الحظ هذا وتندبه مرة أخرى، لأنه في ذات اللحظة التي وصلتا فيها إلى الجهة المقابلة لممر يونيون، وعلى مرأى من الشابين اللذين كانا يسيران عبر الحشود، ويمران بين مزاريب المياه في ذلك الزقاق الهام، لم تتمكَّنا من العبور بسبب اقتراب عربة يقودها سائقٌ محترفٌ على طريقٍ سيِّئ الرصف بعنفٍ يمكن أن يعرِّض حياته وحياة الركاب المصاحبين له وحياة حصانه للخطر.

قالت إيزابيلا وهي ترفع نظرها للأعلى:

- أوه! يا لهذه العربات البغيضة! لكم أبغضها.

لكنَّ بغضَها ذاك، رغم كونه مبررًا، لم يدم كثيرًا، حيث ألقت نظرة أخرى وصاحت قائلة:

- رائع! السيد مورلاند وشقيقي!

قالت كاثرين في نفس اللحظة:

- يا إلهي! إنَّه جيمز!

وعندما انتبه الشابان، أُوقف الحصان على الفور بعنفٍ كاد يسقطه على مؤخرته. بعد أن أتى أحد الخدم مهرولًا، قفز الشابان خارجين من العربة، وتسلَّم الخادم العربة والحصان في عهدته. لم تكن كاثرين تتوقع هذا اللقاء على الإطلاق، واستقبلت شقيقها بأقصى درجات السعادة. ولأنَّه كان ذا طبعٍ ودودٍ للغاية، وشديد التعلُّق بها، فقد أظهر لها من جانبه كلَّ أمارات السعادة التي تضاهي سعادتها هي بقدر استطاعته. في حين كانت عينا الآنسة ثورب اللامعتان ما تفتئان تصارعان لجذب انتباهه، وسرعان ما أولاها اهتمامه بمزيجٍ من الفرح والإحراج، الذي كان من الممكن أن تستشفَّ منه كاثرين-لو كانت أكثر خبرة بتطور مشاعر الآخرين، وأقل انغماسًا في مشاعرها الخاصة- أنَّ شقيقها يعتقد أنَّ صديقتها جميلة تمامًا مثلما تعتقد هي.

ما لبث أن انضمَّ إليهم جون ثورب، الذي كان منشغلًا في تلك الأثناء بإصدار الأوامر بخصوص الخيل، ونالت كاثرين منه مباشرة ما تستحقه من الانتباه. إذ إنه في حين اكتفى بلمس يد إيزابيلا بخفَّة ومن دون اهتمام، فقد منحها هي نصف انحناءة قصيرة، بعد أن سحب إحدى قدميه للخلف بشكلٍ كاملٍ. كان شابًّا قَويًّا متوسط الطول، بملامح عادية، ويفتقر للرشاقة. بدا كأنَّه يخشى الظهور بمظهر

فائق الوسامة، إذا لم يرتدِ زيًّا مثل سائس الخيل، أو أن يبدو كرجلٍ نبيلٍ بدرجة زائدة عن الحدِّ، لو لم يتصرَّف بحميمية مفرطة في المواقف التي يتعيَّن عليه التزام الاحترام فيها، والتصرُّف بوقاحة في المواقف التي يُسمح له فيها بالحميمية. أخرج ساعته وقال:

- كم يبلغ طول المدة التي ظللنا نتسابق فيها من تيتبوري، في ظنِّكِ يا آنسة مورلاند؟

- لا أعرف طول المسافة.

أخبرها شقيقها أنها تبلغ ثلاثة وعشرين ميلًا.

صاح ثورب قائلًا:

- ثلاثة وعشرين! بل بالأحرى خمسة وعشرين!

احتجَّ مورلاند، مناشدًا إياه بسلطة الكتب الإرشادية للطرق، وأصحاب النزل، وعلامات الطريق، لكنَّ صديقَه تجاهلهم جميعًا، إذ كان لديه اختبارٌ مضمونٌ أكثر لقياس المسافة. قال:

- أعرف أنها لا بُدَّ وأن تكون خمسة وعشرين ميلًا، من خلال المدة التي قضيناها. الساعة الآن الواحدة والنصف، وقد انطلقنا من ساحة النزل في تيتبوري بينما ساعة البلدة تدق معلنة الحادية عشرة. وأنا أتحدَّى أي رجلٍ في إنجلترا أن يجعل حصاني يركض أقلَّ من عشرة أميال في الساعة وهو مشدود باللجام. هذا يجعل المسافة خمس وعشرين ميلًا بالضبط.

أجابه مورلاند:

- لقد أسقطت ساعة. كانت الساعة العاشرة فحسب عندما أتينا من تيتبوري.

- الساعة العاشرة! أقسم بحياتي إنها كانت الحادية عشرة! لقد عددتُ كلَّ دقة من دقاتها. سيفقدني شقيقكِ هذا عقلي، يا آنسة مورلاند. لكن انظري لحصاني، هل سبق وأن رأيتِ في حياتكِ من قبل حيوانًا خُلق من أجل السرعة مثله؟

كان الخادم قد ركب العربة للتوِّ، وأخذ يقودها مبتعدًا.

واصل قائلًا:

- يا له من حصانٍ أصيلٍ. ثلاث ساعات ونصف! حقًّا! لقطع ثلاثة وعشرين ميلًا فحسب! فلتنظري لذلك الكائن، ولتصدقي أنَّ ذلك ممكنٌ لو استطعتِ.

- إنه يبدو متعرقًا بكل تأكيد.

- متعرقًا! لم تهتز له شعرة، حتى وصلنا إلى كنيسة والكوت. لكن انظري إلى مقدمته، وإلى خاصرته، ولاحظي كيف يتحرك فحسب. لا يستطيع ذلك الحصان الانطلاق بسرعة أقل من عشرة أميالٍ في الساعة. حتى لو قيدتي ساقيه، سيستمرُّ في التقدُّم. ما رأيكِ في عربتي، يا آنسة مورلاند؟ إنها أنيقة، أليس كذلك؟ معلقة جيدًا، وقد صُنعت في لندن، لم يمضِ أكثر من شهر على حيازتي لها. صُنعت لرجل في إحدى كليات أوكسفورد، وهو صديقٌ لي. إنَّه شابٌّ طيبٌ للغاية. قادها لبضعة

أسابيع على ما أعتقد، حتى بات من الملائم له التخلص منها. تصادف حينها فحسب أنني كنتَ أبحث عن عربة خفيفة من نفس النوع، على الرغم من أنني كنتُ عازمًا على شراء عربة أكبر يجرها حصانان أيضًا، لكنني التقيته بالمصادفة على جسر ماجدالين بينما يقود في طريقه إلى أوكسفورد في الفصل الدراسي الماضي. قال: «آه! ثورب، هل ترغب في عربة صغيرة كهذه؟ إنَّها رائعة وفريدة من نوعها، لكنني سئمت منها للغاية!». قلت له أوه! اللعنة! أنا رجلك الذي تبحث عنه، كم تطلب ثمنًا لها؟ فما المقدار الذي تظنين أنه طلبه، يا آنسة مورلاند؟

- أنا على ثقة بأنني لن أستطيع التخمينَ على الإطلاق.

- إنَّها معلقة مثل العربات الأكبر حجمًا، كما ترين، وبها مقعدٌ، وصندوقٌ لتخزين الأمتعة، وجرابٌ للسيف، وحواجز للحماية من الرذاذ المتناثر، ومصابيح، وحليات من الفضة، وكل ما ترينه بالكامل، والهيكل الحديدي كالجديد تمامًا أو أفضل حتى. لقد طلب خمسين جنيهًا. وقد أنهيتُ الصفقة معه على الفور، ألقيتُ له بالمال، وصارت العربة ملكًا لي.

قالت كاثرين:

- أنا واثقة بأنني أعرف أقلَّ القليل عن مثل هذه الأشياء، لذا لا يمكنني الحكم ما إذا كان ذلك الثمن رخيصًا أم باهظًا.

- لا هذا ولا ذاك. أعتقد أنني كان بوسعي الحصول عليها بسعرٍ أقل، لكنني أكره المساومة، وكان فريمان المسكين بحاجة إلى المال.

قالت كاثرين بسعادة بالغة:

- كان ذلك لطفًا بالغًا منك.

- أوه، اللعنة! عندما يكون بوسع المرء إسداء معروفٍ لأحد الأصدقاء، فأنا أكره التصرف بحقارة حينها.

استفسرا عن التحركات التي تنتويها الفتاتان، وعند معرفة المكان الذي سوف تذهبان إليه، تقرر أن يصطحبهما الشابان إلى بناية إدجار، لتقديم التحية للسيدة ثورب. قاد جيمز وإيزابيلا الطريق، وكانت تلك الأخيرة قانعة تمامًا بنصيبها، وتسعى راضية لضمان نزهة ممتعة لذلك الذي كان يحمل تزكية مزدوجة لكونه صديق شقيقها، وشقيق صديقتها. كانت مشاعرها بالغة النقاء، وأبعد ما تكون عن التلاعُب، لدرجة أنهم عندما تجاوزوا الشابين محلَّ الخلاف السابق في شارع ميلسوم، كانت أبعد ما يكون عن محاولة جذب انتباههما، فلم تلتفت للخلف باتجاههما سوى ثلاث مراتٍ فحسب!

ظلَّ جون ثورب بالطبع بصحبة كاثرين، وبعد بضع دقائق من الصمت، بدأ يتحدث مجددًا عن عربته.

- مع ذلك، يا آنسة مورلاند، ستجدين أن بعض الناس قد يعدُّون ذلك سعرًا زهيدًا، إذ كان بوسعي بيعها بسعرٍ يزيد بمقدار عشرة جنيهات، في اليوم التالي مباشرة. عرض عليَّ جاكسون، وهو من كلية أخرى في أوكسفورد، ستين جنيهًا دفعة واحدة. كان مورلاند بصحبتي حينها.

أجاب مورلاند، الذي سمع الحديث الدائر:

- أجل، لكنَّك نسيتَ أنَّ الصفقة كانت تشمل حصانكَ.

- حصاني! أوه، اللعنة! لن أبيع حصاني ولو مقابل مئة جنيه. هل تحبين العربات المفتوحة، يا آنسة مورلاند؟

- أجل، بدرجة كبيرة. نادرًا ما تسنح لي الفرصة لركوب إحداها، لكنني أميل إليها إلى حدٍّ بعيدٍ.

- يسعدني ذلك؛ سأصطحبكِ للنزهة في عربتي كلَّ يومٍ.

أجابت كاثرين وهي متضررة بعض الشيء، لشكِّها في لياقة قبول مثل ذلك العرض:

- أشكركَ.

- سأصطحبكِ غدًا إلى تلِّ لانسداون.

- شكرًا لكَ، لكن ألن يحتاج حصانُك إلى نيْل قسطٍ من الراحة؟

- الراحة! لقد قطع ثلاثة وعشرين ميلًا فحسب اليوم! وهو شيء لا يذكر. لا شيء يفسد الخيل مثل الكثير من الراحة. لا شيء يعجِّل بنهايتهم مثل ذلك. لا، لا، سوف أمرِّن حصاني بمتوسط أربع ساعات يوميًّا خلال فترة وجودي هنا.

أجابت كاثرين بجدية بالغة:

- أحقًّا ستفعل ذلك؟ سوف يعني ذلك أربعين ميلًا في اليوم.

- أربعين، أو خمسين حتى، ما الذي يعنيني أنا في ذلك! حسنًا، سوف أصطحبكِ إلى لانسداون غدًا، وضعي في اعتبارك أنني أعد هذا اتفاقًا.

استدارت إيزابيلا وصاحت قائلة:

- كم سيكون ذلك ممتعًا! يا عزيزتي كاثرين، كم أحسدكِ! لكنني أخشى يا أخي أنه لن يكون لديك مكانٌ لشخصٍ ثالثٍ.

- شخص ثالث! لا، لا. لم أحضر إلى باث لاصطحاب شقيقاتي للتنزُّه. سيكون ذلك مدعاة للسخرية، يا إلهي! يجب على مورلاند أن يعتني بكِ.

وقد أدَّى ذلك لحوارٍ مليء بالمجاملات بين الشابين، لكنَّ كاثرين لم تستمع للتفاصيل ولا لنتيجة الحوار. تراجع حوارُ رفيقها من نبرته السابقة المليئة بالحيوية، ليقتصر على مجرد جملٍ قصيرة حاسمة من المديح أو التنديد بملامح كل امرأة يلتقونها. وبعد أن استمعت له كاثرين ووافقته بقدر استطاعتها، بكلِّ كياسة واحترام عقل امرأة شابة، تخشى المخاطرة بإبداء رأي خاص بها في مواجهة ذلك الرجل الواثق في نفسه، خاصة فيما يتعلَّق بجمال بنات جنسها، تجرَّأت في النهاية على تغيير الموضوع بأن طرحت سؤالًا شغل محل الصدارة من تفكيرها لفترة طويلة. قالت:

- هل سبق لك وأن قرأت أودولفو، يا سيد ثورب؟

- أودولفو! أوه، يا إلهي! لا، أنا لا أقرأ الروايات على الإطلاق. فلديَّ أشياءُ أخرى تشغلني.

أحسَّت كاثرين بالمهانة والخجل، وأوشكت على الاعتذار عن سؤالِها ذاك، لكنَّه منعها من ذلك بأن قال:

- كلُّ الروايات مليئة بالهُراء والتُّرهات. لم تصدر أيُّ رواية لائقة بدرجة مقبولة منذ صدور رواية توم جونز، باستثناء رواية الراهب. لقد قرأتُ تلك الأخيرة منذ عدة أيامٍ. أما بالنسبة إلى البقية، فهي أكثر الأشياء حماقة في الوجود.

- أعتقد أنَّك سوف تحب أودولفو لو قرأتها، فهي مثيرة للاهتمام بدرجة كبيرة.

- يا إلهي، لا، لست أنا! لا، إذا قرأتُ أيَّ رواية، فسوف تكون من روايات السيدة رادكليف. إن رواياتها ممتعة بما يكفي، وتستحق القراءة، وتوفر للمرء بعضَ التسلية.

قالت كاثرين بشيء من التردُّد، خوفًا من إلحاق الحرج به:

- إنَّ أودولفو من تأليف السيدة رادكليف.

- أهي كذلك حقًّا؟ أجل، أتذكر أنَّها كذلك بالفعل. كنت أفكر في ذلك الكتاب الآخر التافه، الذي كتبته تلك المرأة التي يثيرون ضجة بشأنها، التي تزوَّجت ذلك المهاجر الفرنسي.

- أعتقد أنك تقصد رواية كاميلا؟

- أجل، ذلك هو الكتاب الذي أعنيه. إنَّه مصطنعٌ للغاية! رجل بالغ يتأرجح! لقد تناولتُ المجلد الأول ذات مرة وتصفحته، لكن سرعان ما اكتشفتُ أنَّه لا يصلح. في الواقع، لقد خمنتُ طبيعته من قبل أن أراه. ما أن سمعتُ أنها تزوجت مهاجرًا، حتى بت واثقًا بأنني لن أستطيع الانتهاء من قراءته. (8)

- لم يسبق لي قراءته من قبل.

- أؤكد لكِ أنكِ لم تخسري شيئًا. فهو عبارة عن أفظع نوعٍ من الهُراء بوسعكِ تخيله. لا يدور به شيءٌ على الإطلاق، سوى رجلٍ بالغٍ يتأرجح ويتعلم اللغة اللاتينية، أقسم بحياتي إنه لا شيء غير ذلك.

استمرَّ هذا النقد الذي لم تدرك كاثرين المسكينة للأسف مدى إنصافه، حتى وصلوا إلى باب مسكن السيدة ثورب. وحينها تحوَّلت مشاعر قارئ كاميلا الفطن غير المتحيز، لتفسح المجال لمشاعر الابن المطيع الحنون، عندما التقوا بالسيدة ثورب التي لمحتهم من أعلى وهم في الممرِّ.

قال مصافحًا إياها بحرارة:

- آه، أمي! كيف حالكِ؟ من أين لكِ بتلك القبعة العجيبة، التي تجعلكِ أشبه بالساحرة العجوز؟ ها قد جئت أنا ومورلاند لنقيم معكِ لبضعة أيام. لذا عليكِ البحث عن فراشيْن جيديْن في مكانٍ ما بالقرب منكِ.

بدا أنّ هذا الخطاب أرضى جميع أمنيات قلب والدته، إذ استقبلته بأكبر قدرٍ من السعادة والبهجة. بعد ذلك، منح شقيقتيه الأصغر سنًّا قدرًا مساويًا من حنانه الأخوي، حيث سأل كلًّا منهما عن حالها، وعلَّق قائلًا إنهما تبدوان قبيحتين للغاية.

لم ترضِ سلوكياته هذه كاثرين، إلَّا أنَّه كان صديق جيمز، وشقيق إيزابيلا. كما خفَّف من حكمها عليه أن إيزابيلا أكدَّت لها عندما انصرفتا لمشاهدة القبعة الجديدة، أن جون يعتقد أنها الفتاة الأكثر سحرًا في العالم، وأن جون طلب الرقص معها قبل أن يفترقوا ذلك المساء. لو كانت كاثرين أكبر سنًّا أو أكثر اعتدادًا بالنفس، لربما لم تؤثر مثل هذه الهجمات بصورة تُذكر، لكن حين يجتمع الشباب مع انعدام الثقة، فإن الأمر يتطلَّب ثباتًا شديدًا للعقل لمقاومة جاذبية أن تُدعى الفتاة الأكثر سحرًا في العالم، وأن تُطلَب للرقص في وقتٍ مبكرٍ للغاية على هذا النحو. وكانت النتيجة أنه عقب انصراف آل مورلاند بعد أن قضيا ساعة بصحبة آل ثُورب، وسارا متوجهين معًا إلى السيد ألين، قال جيمز بعد أن أغلِق الباب خلفهما:

- حسنًا يا كاثرين، هل يعجبكِ صديقي ثورب؟

وبدلًا من أن تجيبه كما كانت ستفعل على الأرجح لو لم تكن هناك علاقة صداقة في الأمر، ولا حاجة بها للمجاملات، قائلة «إنه لا يعجبني على الإطلاق»، أجابته على الفور:

- إنه يعجبني كثيرًا، ويبدو لطيفًا للغاية.

- إنه من ألطف الشبان على الإطلاق. وهو ثرثار بعض الشيء، لكن ذلك بمثابة تزكية له لدى بنات جنسكِ، على ما أعتقد. وهل يعجبكِ باقي أفراد الأسرة؟

- بدرجة كبيرة للغاية، خاصة إيزابيلا.

- أنا سعيدٌ جدًّا لسماع قولكِ هذا، فهي تمامًا من ذلك النوع من الشابات اللاتي أتمنَّى رؤيتكِ مرتبطة بصحبتهن. إنَّها تتمتع بالكثير من حسن التقدير، وهي غير متكلِّفة على الإطلاق، وودود للغاية. لطالما تمنيتُ أن تتعرَّفي بها، كما يبدو أنَّها تميل إليكِ بشدة. لقد مدحتكِ بأسمى ما يمكن من المديح.

أمسك يدها بمودة، وواصل الحديث قائلًا:

- ويمكنك أنتِ حتى يا كاثرين، أن تفخري بمديح شابة مثل الآنسة ثورب.

أجابته قائلة:

- إنني فخورة بالفعل. أنا أحبها كثيرًا، ويسعدني أن أجدكَ أنت الآخر معجبًا بها. لم تذكر عنها شيئًا بالكاد، عندما راسلتني بعد زيارتكَ لهم.

- لأنني ظننتُ أنني سوف أراكِ بنفسي قريبًا. أتمنَّى أن تقضيا الكثيرَ من الوقت معًا وأنتما في باث. إنها أكثر الفتيات لطفًا، وتتمتَّع بعقلية فائقة! إن جميع أفراد الأسرة مولعون بها، ومن الواضح أنَّها المفضَّلة لدى الجميع. لا بُدَّ وأنها تحظى بالكثير من الإعجاب في مكانٍ كهذا، أليس كذلك؟

- بلى، إلى حدٍّ كبيرٍ بالفعل، على ما أظن. يعتقد السيد ألين أنَّها أجمل فتاة في باث.

- أظن أنّه يعتقد ذلك بالفعل، ولا أعرف أيَّ رجلٍ بوسعه الحكم على الجمال أفضل من السيد ألين. لا حاجة بي لسؤالكِ عمَّا إذا كنتِ سعيدة هنا، يا عزيزتي كاثرين؛ في وجود رفيقة وصديقة مثل إيزابيلا ثورب، سيكون من المستحيل أن تكوني غير ذلك. وأنا على ثقة من أن آل ألين يعاملونكِ بلطفٍ بالغٍ.

- أجل، لطف بالغ للغاية. لم أكن سعيدة بهذا القدر من قبل قطُّ. وها أنتَ قد جئتَ الآن، وسيكون الأمر أكثرَ بهجة من أي وقتٍ مضى. كم هو لطفٌ منكَ أن تأتي كل هذه المسافة خصيصًا كي تراني.

تقبَّل جيمز امتنانها هذا، وأهَّل ضميره أيضًا لتقبله بأن قال لها بصدقٍ تامٍ:

- حقًّا يا كاثرين، إنني أحبكِ كثيرًا.

تبادلا الاستفسارات والمعلومات بخصوص الأشقاء والشقيقات، وأحوال البعض، ونمو الباقين، والشؤون العائلية الأخرى، واستمرَّا في حديثهما ذاك مع استطرادٍ بسيطٍ فحسب من جانب جيمز، امتدح فيه الآنسة ثورب، حتى وصلا إلى شارع بولتيني، حيث رحَّب به السيد والسيدة ألين بكثيرٍ من اللطف. دعاه ذلك الأول لتناول العشاء معهم، ودعته الأخيرة لتخمين سعر فرائها الجديد وتأمُّل مزاياه. كان لديه موعدٌ مسبقٌ في بناية إدجار، منعه من قبول دعوة أحد الصديقين، واضطرَّه إلى الرحيل مسرعًا ما أن أرضى مطالب الأخرى. بعد الاتفاق على موعد لقاء الفريقين بالتحديد في القاعة ثمانية الأضلاع (9)، صار لدى كاثرين الوقت للاستمتاع برفاهية الخيال المتوتر والقلِق والمشوب بالاضطراب مع صفحات أودولفو، بعد أن انفصلتْ تمامًا عن جميع الاهتمامات الدنيوية المتعلِّقة باللباس والعشاء، وقد عجزت عن تهدئة مخاوف السيدة ألين بشأن تأخُّر حائكة الملابس المُتوقع قدومها، ولم يكن لديها سوى دقيقة واحدة من بين ستين دقيقة لتقضيها حتى في التفكير في سعادتها الشخصية، لكونها مرتبطة بالفعل خلال تلك الأمسية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 8 -

على الرغم من رواية أودولفو والحائكة، إلَّا أنَّ الجماعة القادمين من شارع بولتيني وصلوا إلى قاعة الحفلات الشمالية في وقتٍ مناسبٍ تمامًا. كان آل ثورب وجيمز مورلاند قد وصلوا قبلهم بدقيقتين فحسب. وبعد أن استقبلتْ إيزابيلاَ صديقتها بالاحتفاء المعتاد، بأكبر قدرٍ من الابتسام والودٍ وإبداء الإعجاب بثوبِها وغبطتها على تموج شعرها، تبعتا مرافقيهم إلى قاعة الرقص وقد شبَّكت كلٌّ منهما ذراعها بذراع بالأخرى، وهما تتهامسان كلما طرأت لهما فكرة، وأحيانًا بدلًا من التهامس بالأفكار كانتا تكتفيان بضغطة يد أو ابتسامة ودودة.

بدأ الرقص في غضون دقائق قليلة بعد جلوسهم، وكان جيمز قد ارتبط بشريكة للرقص في وقتٍ مبكرٍ من ذلك المساء تمامًا مثل شقيقته، وأخذ يلحُّ بشدة على إيزابيلا للقيام للرقص. إلا أنَّ جون كان قد ذهب إلى غرفة لعب الورق لتبادل الحديث مع أحد الأصدقاء، فأصرَّت إيزابيلا أنه لا يوجد ما سيغريها بالانضمام إلى جماعة الراقصين، قبل أن تتمكَّن عزيزتها كاثرين من الانضمام إليهم هي الأخرى. قالت:

- أؤكد لكَ أنني لن أقوم من دون شقيقتكَ العزيزة مقابل كنوز العالم بأكملِه، لأنَّه في حال ما إذا فعلتُ، فمن المؤكد أنه سيفترق بعضنا عن بعضٍ طوال المساء.

تلقَّت كاثرين لطفَها هذا بامتنانٍ، وبقوا على وضعهم هذا لثلاث دقائق أخرى، عندما استدارت إيزابيلا التي كانت تتهامس مع جيمز على الجانب الآخر، والتفتت نحو شقيقته مرة أخرى هامسة:

- يا عزيزتي، يؤسفني أن عليَّ تركككِ، إذ إنَّ شقيقكِ نافد الصبر بدرجة بالغة ويتوق للبدء في الرقص، أعرف أنكِ لن تمانعي ذهابي، وأنا على ثقة من أنَّ جون سوف يعود خلال لحظاتٍ، ويمكنكِ حينها العثور عليَّ بسهولة.

على الرغم من خيبة أملها بعض الشيء، إلَّا أنَّ كاثرين كانت ألطف من أن تبدي أيَّ اعتراضٍ، وعند قيام الآخرين، لم يسعفها الوقت سوى للضغط على يد صديقتها قبل انصرافهم وهي تقول:

- وداعًا يا عزيزتي الحبيبة.

مع ذهاب آنسات آل ثورب الأصغر سنًّا أيضًا للرقص، بقيت كاثرين تحت رحمة السيدة ثورب والسيدة ألين، اللتين جلست بينهما الآن. لم تستطع منع نفسها من الشعور بالانزعاج لعدم ظهور السيد ثورب، حيث إنها لم تكن تتوق للرقص فحسب، لكنها كانت مدركة أيضًا أنه لا يمكن معرفة حقيقة وضعها، وأنها بدت كأنها تشارك عشرات الشابات الأخريات الجالسات خزي الافتقار إلى شريكٍ للرقص. أن تتعرض للخزي في أعين العالم، وتلبس رداء العار، بينما قلبها عامرٌ بالنقاء، وسلوكها بأكمله بريءٌ، وكون سوء تصرف شخصٍ آخر هو المصدر الحقيقي لذلِّها هذا، لهو أحد تلك الظروف التي تختص بحياة البطلة، وجلدها تحت هذه الظروف هو بالتحديد ما يرفع من مكانة شخصيتها. كانت كاثرين أيضًا تتَّصف بالجلد، إذ عانت من دون أن يفلت من شفتيها أيُّ تذمرٍ.

أفاقت من شعورها بالخزي هذا بعد عشر دقائق، وقد انتابها شعورٌ بالسعادة، ليس لرؤية السيد ثورب، بل السيد تيلني، على بُعد ثلاث ياردات من مكان جلوسِها. بدا أنَّه يتحرَّك قادمًا في ذلك الاتجاه، لكنَّه لم يرها. بالتالي، فإنَّ الابتسامة والتضرج اللذين أثارهما ظهوره المفاجئ في كاثرين تلاشيا من دون أن يلوِّثا أهميتها كبطلة. بدا وسيمًا، ومفعمًا بالحيوية كعهده، وكان يتبادل الحديثَ باهتمام مع شابة أنيقة جميلة المظهر استندت على ذراعه، وخمَّنت كاثرين على الفور كونها شقيقته، وهكذا أضاعت من دون تفكير الفرصة في اعتبارها قد فقدته إلى الأبد لكونه متزوجًا بالفعل. لكن بالاسترشاد فقط بكلِّ الأفكار البسيطة والمحتملة، لم يطرأ على ذهنِها قطٌّ أنَّ السيد تيلني قد يكون متزوجًا. فلم يتصرَّف أو يتحدث كالرجال المتزوجين الذين تألفهم، ولم يذكر وجود زوجة قطٌّ، كما أنه ذكر وجود شقيقة له. من كل تلك الظروف، نشأ الاستنتاج الفوري بأنَّ شقيقته هي من تقف بجواره الآن، وبالتالي بدلًا من أن تتحوَّل إلى شحوبٍ يشبه الموت، والانهيار في نوبة من البكاء على صدر السيدة ألين، جلستْ كاثرين منتصبة بكامل هدوئها، وقد تضرَّجت وجنتاها فحسب بحمرة أكثر من المعتاد.

استمرَّ السيد تيلني ورفيقته في الاقتراب ببطءٍ، تتقدَّمهما مباشرة سيدة من معارف السيدة ثورب. توقَّفت هذه السيدة لتبادل الحديث معها، فتوقَّفا هما أيضًا، كأنَّهما برفقتها. انتبه السيد تيلني لكاثرين، فتلقَّت منه على الفور ابتسامة تثبت تعرُّفه عليها، بادلته الابتسام بسرورٍ، ثم اقترب أكثر وتبادل الحديث معها ومع السيدة ألين، التي رحَّبت به بودٍّ بالغٍ.

- أنا سعيدة للغاية لرؤيتك مرة ثانية يا سيدي. في الواقع، لقد كنتُ أخشى أنكَ رحلتَ عن باث.

شكرها لمخاوفها تلك، وقال إنَّه رحل لمدة أسبوع، صبيحة اليوم التالي الذي شرف فيه بلقائهما.

- حسنًا يا سيدي، سأتجاسر على القول بأنك لا تشعر بالأسف للعودة مرة ثانية، إذ إنه المكان الملائم تمامًا للشباب، وفي الواقع للجميع أيضًا. أقول للسيد ألين عندما يتحدث عن ضجره من المكان إنني على ثقة بأنه لا يجب عليه التبرُّم، فهو مكانٌ لطيفٌ للغاية، والتواجُد هنا أفضل كثيرًا من التواجُد في المنزل في مثل هذا الوقت الممل من العام. أقول له إنه سعيدُ الحظ بدرجة كبيرة لأنه أُرسِل هنا للتعافي.

- آمل يا سيدتي أن يضطر السيد ألين إلى الإعجاب بالمكان، عندما يجده مفيدًا له.

- شكرًا لكَ، يا سيدي. لا شكَّ لديَّ في أنه سيفعل. كان أحد جيراننا، الدكتور سكينر، هنا من أجل صحته في الشتاء الماضي، وقد عاد وهو يتمتع بنشاطٍ بالغٍ.

- لا بُدَّ من أنَّ ذلك يمنحكما الكثيرَ من التشجيع.

- أجل يا سيدي. وقد بقي الدكتور سكينر وعائلته هنا لمدة ثلاثة أشهر، لذا أقول للسيد ألين إنَّه لا يجب عليه تعجل الرحيل.

حينها قاطعهما طلب السيدة ثورب من السيدة ألين التحرُّك قليلًا، لتفسح مكانًا للسيدة هيوز والآنسة تيلني، حيث إنهما وافقتا على الانضمام إليهن. سرعان ما تمَّ ذلك، والسيد تيلني لا يزال واقفًا أمامهم. وبعد بضع دقائق من التفكير، طلب من كاثرين الرقصَ معه. على الرغم من سرورها بتلك المجاملة،

إلا أنّها تسبَّبت للشابة في حرج بالغٍ، وعند رفضها لطلبِه، عبَّرت عن حزنها بشدة كما لو كانت تستشعره بالفعل. ولو تصادف أن ثورب، الذي انضم إليها بعدها على الفور، كان قد أتى قبل ذلك بنصف دقيقة فحسب، لظنَّ أنَّ معاناتها تلك تفوق الحد. الأسلوب المستهين للغاية الذي اعتذر به لها عن إبقائها منتظرة إياه، لم يجعلها بأي حالٍ من الأحوال تقنع بنصيبِها بدرجة أكبر. ولم تثر اهتمامها تلك التفاصيل التي خاض فيها خلال قيامهما للرقص، بخصوص خيل وكلاب صديقه الذي تركه للتوِّ، ومقترح بتبادل الكلاب بينهما، بدرجة تمنعها من الالتفات بكثرة نحو ذلك الجانب من الغرفة الذي تركت فيه السيد تيلني. كما لم تلمح طرفًا لعزيزتها إيزابيلا، التي كانت تتوق على نحوٍ خاص لأن تريها ذلك الشاب. كانتا في مجموعتين مختلفتين للرقص. افترقت كاثرين عن كل جماعتها، وصارت بعيدة عن جميع معارفها، وتوالى الإحراج تلو الآخر، ومن كل ذلك استنتجت درسًا مفيدًا، وهو أن الذهاب إلى حفلٍ راقصٍ مع الارتباط المسبق بشريكٍ للرقص لا يؤدي بالضرورة إلى زيادة الاحترام أو المتعة التي تتمتع بهما امرأة شابة. استفاقت فجأة من هذا الاستغراق في التفكير الأخلاقي، بعد لمسة على كتفها. واستدارت لترى السيدة هيوز خلفها مباشرة، وبرفقتها الآنسة تيلني وشاب آخر. قالت:

- أستميحكِ عذرًا، يا آنسة مورلاند، لتطفلي هذا. لكنني لا أستطيع الوصول للآنسة ثورب بأي حالٍ من الأحوال، وقد قالت السيدة ثورب إنكِ لن تمانعي على الإطلاق في السماح بوجود هذه الشابة إلى جواركِ.

لم يكن بوسع السيدة هيوز التقدُّم بطلبها هذا لأي شخصٍ آخر في الغرفة أكثر سعادة من كاثرين لتلبيته. تم تقديم الشابتين بعضهما إلى بعضٍ، وأعربت الآنسة تيلني عن تقديرها لهذا اللطف، بينما عبَّرت الآنسة مورلاند برقة وكرمٍ حقيقي عن عدم استثقالها ذلك الالتزام. أحسَّت السيدة هيوز بالرضا بعد أن تركت الشابة التي تحتً وصايتها مع صحبة محترمة على هذا النحو، فعادت بعدها إلى صديقاتها.

كانت الآنسة تيلني تتمتع بقامة رشيقة وملامح جميلة، وطلعة لطيفة للغاية. وعلى الرغم من أنَّ سلوكَها لم يكن به أيُّ تكلفٍ، فإنَّ أناقة الآنسة ثورب الشديدة كانت أكثر تميزًا من أي تكلُّفٍ مصطنع. كشف سلوكها عن حسن التقدير وحسن التربية. لم تكن بالغة الخجل، ولا منفتحة بدرجة مبالغ فيها. وبدت قادرة على أن تكون شابة جذابة في حفلٍ راقصٍ، من دون الرغبة في جذب انتباه كل رجلٍ بالقرب منها، ومن دون الإفراط في إبداء البهجة أو الانزعاج المبالغ فيه حيال كل حدثٍ تافه. أثار مظهرها اهتمامَ كاثرين، كما أثار اهتمامها أيضًا علاقتها بالسيد تيلني، وأحسَّت بالرغبة في التعرُّف عليها، لذا بادلتها الحديث من دون تردد كلما طرأ على ذهنها شيءٌ لتقوله، وواتتها الشجاعة ووجدت الوقت المناسب لقوله. لكن العوائق التي حالت من تطور علاقة حميمة سريعة بينهما بسبب الافتقاد إلى واحد أو آخر من هذه المتطلبات، منعتهما مما هو أكثر من مجرد تبادل أساسيات التعارف، من خلال معرفة كل منهما كم تحب الأخرى باث، ومدى إعجابها بعمارتها والريف المحيط بها، وما إذا كانت تجيد الرسم أو العزف أو الغناء، أو إذا كانت مولعة بركوب الخيل. ما إن انقضت الرقصتان حتى وجدت كاثرين صديقتها العزيزة إيزابيلا وقد قبضت على ذراعها برقة، وصاحت بحماسٍ كبيرٍ:

- ها قد وجدتكِ أخيرًا. يا عزيزتي، لقد ظللتَ أبحث عنكِ طوال هذه الساعة الماضية. ما الذي دفعكِ للانضمام إلى هذه المجموعة، في حين أنكِ تعلمين أنني كنتُ في المجموعة الثانية؟ لقد كنتُ في منتهى البؤس من دونكِ.

- يا عزيزتي إيزابيلا، كيف كان لي أن أصل إليكِ؟ لم أستطع حتى رؤية مكانكِ.

- هذا هو ما ظللتُ أخبر به شقيقكِ طوال الوقت، لكنَّه لم يصدقني. قلتُ له: «فلتذهب للبحث عنها، يا سيد مورلاند»، لكن من دون جدوى، إذ إنَّه رفض التحرُّك ولو لبوصة واحدة. أليس كذلك يا سيد مورلاند؟ لكنكم جميعًا، يا معشر الرجال، كسالى لأقصى حدٍّ! لقد وبَّخته لأقصى حدٍّ، يا عزيزتي كاثرين، بدرجة ستثير دهشتكِ. فأنتِ تعلمين أنني لا ألتزم بالرسميات مع مثل ذلك النوع من الناس.

همستْ كاثرين وهي تسحب صديقتها بعيدًا عن جيمز:

- انظري لتلك الشابة التي ترتدي الخرز الأبيض حول رأسِها. إنَّها شقيقة السيد تيلني.

- أوه، يا إلهي! أحقًّا؟ دعيني أتأمَّلها في الحال. يا لها من فتاة مبهجة! لم يسبق وأن رأيتُ شيئًا في نصف جمالها! لكن أين شقيقها الذي لا يُقهر؟ هل هو في الغرفة؟ فلترينيِ إياه على الفور لو كان هنا. أتوق بشدة لرؤيته. لا تنصت لحديثنا، يا سيد مورلاند، فنحن لا نتحدث عنك.

- لكن ما كل هذا التهامس؟ ما الذي يدور؟

- حسنًا إذن، كنتُ أعرف أنَّ هذا ما سوف يحدث. أنتم يا معشر الرجال تتصفون بفضولٍ لا يهدأ! ثم تتحدثون عن فضول النساء! لا شيء هناك، لكن فلتهدأ، إذ إنك لن تعرف أي شيء على الإطلاق حول الموضوع.

- وهل تعتقدين أنَّ ذلك كفيلٌ بجعلي أهدأ؟

- حسنًا، لم أرَ أيَّ شخصٍ مثلكَ من قبل! فيمَ يهمكَ أنتَ ما نتحدثُ عنه؟ ربما كنَّا نتحدثُ عنكَ، لذا أنصحكَ بألا تستمع إلينا، فربما تسمع شيئًا غير مرضي للغاية.

خلال هذه الثرثرة العادية، التي استمرت لبعض الوقت، بدا أن الموضوع الأصلي قد نُسي تمامًا، وعلى الرغم من سعادة كاثرين لإسقاط الموضوع لفترة من الوقت، إلا أنَّها لم تستطع منعَ نفسها من الارتياب بعض الشيء في الغياب التام لما أبدته إيزابيلا من رغبة ونفاد صبرٍ لرؤية السيد تِيلني. عندما بدأت الفرقة الموسيقية العزف لرقصة جديدة، أراد جيمز أن يقود رفيقته الجميلة بعيدًا، إلَّا أنَّها قاومت ذلك وصاحت قائلة:

- أخبركَ يا سيد مورلاند، أنني لن أقدم على مثل ذلك ولو مقابل كنوز العالم بأكمله. كيف يمكنكَ أن تكون مزعجًا لهذا الحدِّ؟ تصوَّري فقط، يا عزيزتي كاثرين، ما يريدني شقيقكِ أن أفعله. إنه يريدني أن أرقص معه مرة أخرى، رغم أنني أخبرته أنَّ هذا أمرٌ غيرُ لائقٍ على الإطلاق، ويتعارض تمامًا مع القواعد. سنكون مثار حديث المكان، لو لم نغير الشركاء.

قال جيمز:

- بشرفي، إن ذلك يحدث كثيرًا في مثل هذه التجمعات العامة.

- هُراء! كيف يمكنكَ قول ذلك؟ لكن عندما يكون لديكم معشر الرجال هدفٌ تريدون تحقيقه، فأنتم لا تلتزمون بأي شيء. يا عزيزتي كاثرين، ادعميني، وأقنعي شقيقكِ أنَّ الأمرَ مستحيلٌ. فلتخبريه أنكِ ستصابين بصدمة بالغة لو شاهدتِني أفعل شيئًا كهذا، أليس كذلك؟

- لا، إطلاقًا. لكن طالما أنكِ تعتقدين أنَّ هذا خطأ، فمن الأفضل كثيرًا أن تغيِّري شريككِ.

صاحت إيزابيلا:

- ها قد سمعتَ ما قالته شقيقتكَ، ومع هذا فلن تنصتَ إلى ما تقوله. حسنًا، تذكر أنَّ الخطأ ليس خطئي، إذا تسببنا في اهتياج جميع العجائز في باث. تعالي يا عزيزتي كاثرين، بحق السماء، وقفي بجانبي.

وابتعدتا للذهاب لمكانهما السابق. كان جون ثورب قد رحل في تلك الأثناء، وأحسَّت كاثرين بالرغبة في منح السيد تيلني الفرصة لتكرار طلبه اللطيف الذي سبق وأن أسعدها من قبل، فشقَّت طريقَها نحو السيدة ألين والسيدة ثورب بأسرع ما يمكنها، على أمل أن تجده لا يزال برفقتهما. وعندما خاب أملُها ذاك، أحسَّت أنَّه كان غير منطقي على الإطلاق.

قالت السيدة ثورب، وهي تتوق لسماع الثناء على ابنها:

- حسنًا يا عزيزتي، أتمنى أن يكون شريككِ لطيفًا.

- لطيفًا للغاية، يا سيدتي.

- يسعدني ذلك. يتمتَّع جون بروحٍ ساحرة، أليس كذلك؟

قالت السيدة ألين:

- هل التقيتِ بالسيد تيلني، يا عزيزتي؟

- لا، أين هو؟

- لقد كان معنا للتوِّ، وقال إنَّه سئم من التسكُّع هكذا، وأنه عازمٌ على الذهاب للرقص. لذا ظننت أنه ربما سيطلب منكِ ذلك لو التقاكِ.

تلفتت كاثرين حولها قائلة:

- ترى أين يمكن أن يكون؟

لكنها لم تنتظر حولها لفترة طويلة، حتى شاهدته يقود امرأة شابة إلى الرقص.

قالت السيدة ألين:

- آه، لقد عثر على شريكة. أتمنى لو كان قد طلب منكِ أنتِ.

وأضافت قائلة بعد صمتٍ قصيرٍ:

- إنّه شابٌّ لطيفَ للغاية.

قالت السيدة ثورب وهي تبتسم ابتسامة رضا عن النفس:

- إنَّه كذلك بالفعل، يا سيدة ألين. علي القول، رغم أنني والدته، إنه لا يوجد شابٌّ أكثر لطفًا منه في العالم.

ربما كان ذلك الجواب الذي لا ينطبق على الموقف محيرًا لأفهام الكثيرين، إلا أنه لم يثِر حيرة السيدة ألين، إذ إنها بعد لحظة فحسب من التفكير، همست لكاثرين قائلة:

- أعتقد أنها ظنَّت أنني أتحدث عن ابنها.

أصيبت كاثرين بالضيق وخيبة الأمل. بدا كأن ما كان تحت أنظارها قد أفلت منها للتوِّ، ولم تدفعها قناعتها هذه للرد بلطفٍ عندما تقدَّم نحوها جون ثورب بعد ذلك بقليلٍ، وقال:

- حسنًا يا آنسة مورلاند، أعتقد أنَّ علينا القيام للرقص معًا مرة أخرى، أنا وأنتِ.

- أوه، لا، أنا ممتنة لك كثيرًا، لقد انتهت رقصتنا، وإلى جانب ذلك، فأنا متعبة ولا أنتوي الرقص مرة أخرى.

- حقًّا؟ إذن دعينا نتجوَّل ونسخر من الناس. تعالي معي، وسأريكِ أكثر أربعة يستحقون السخرية في الغرفة بأكملِها: هم شقيقتاي الأصغر وشريكاهما. لقد قضيتُ نصف الساعة الماضية هذه وأنا أسخر منهم.

اعتذرت كاثرين مرة أخرى، وانصرف في النهاية ليسخر من شقيقتيه بمفرده. وجدت كاثرين بقية الأمسية مملَّة لغاية. ابتعد السيد تيلني عن مجموعتهم أثناء تناول الشاي، ليكون مع جماعة شريكته. وعلى الرغم من انضمام الآنسة تيلني لجماعتها، إلا أنها لم تجلس بالقرب منها. كما انشغل جيمز وإيزابيلا بتبادل الحديث معًا، لدرجة أنَّ تلك الأخيرة لم يتسنَّ لها الوقت لمنح صديقتها أكثر من مجرد ابتسامة واحدة، وضغطة يد واحدة، ونادتها مرة واحدة بلقب «كاثرين العزيزة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 9 -

تطوَّرت تعاسة كاثرين بسبب أحداث الأمسية على النحو التالي: تجسدت في البداية على صورة استياءٍ عامٍّ من كل المحيطين بها طوال فترة بقائها في القاعة، وسرعان ما تسبَّب ذلك في شعورها بضجرٍ بالغٍ ورغبة شديدة في العودة إلى المنزل. عند وصولها إلى شارع بولتيني، اتَّخذ ذلك شكل إحساسٍ بالجوع على نحوٍ غير طبيعي، وعند إشباع ذلك الشعور، تحوَّل حتى صارت تتوق بشدة لأن تأوي إلى الفراش. كانت هذه هي أقصى ذروة لشعورها بالضيق، إذ إنها ما إن دخلت فراشها حتى استغرقت على الفور في نوم عميقٍ استمرَّ تسع ساعات، استيقظت منه منتعشة تمامًا، بروحٍ معنوية مرتفعة، وبآمالٍ ومخططاتٍ جديدة. كانت أول أمنية قلبية لها هي تحسين معرفتها بالآنسة تيلني، وكان أول قرارٍ لها تقريبًا هو البحث عنها لهذا الغرض في قاعة مضخات المياه المعدنية ظهيرة ذلك اليوم. كان من المحتم أن يلتقي المرء في قاعة مضخات المياه بأولئك الذين وصلوا باث حديثًا. وكانت قد وجدت ذلك المبنى ملائمًا بالفعل لاكتشاف الإناث المتميزات واستكمال التعارف الأنثوي الحميمي، إذ كان مناسبًا تمامًا للأحاديث الخاصة والأسرار غير المحدودة، حتى إن ذلك شجَّعها بدرجة كبيرة لأن تتوقع العثورَ على صديقة أخرى بين جدرانه. وهكذا استقرَّت على خطتها لذلك الصباح. عكفت على كتابِها بهدوءٍ بعد تناول الإفطار، عازمة على المكوث في نفس المكان والبقاء منشغلة بنفس الشيء حتى تدق الساعة معلنة الواحدة. وبحكم العادة، لم تنزعج من تعليقات وملاحظات السيدة ألين، التي كان خواء عقلها وانعدام قدرتها على التفكير شديدين للغاية، لدرجة أنه على الرغم من أنها لم تكن تتحدث كثيرًا، إلا أنها لم تكن قادرة أيضًا على التزام الصمت التام. لذا بينما هي جالسة لمباشرة عملها، إذا فقدت إبرتها أو انقطع الخيط، أو إذا سمعت عربة في الشارع، أو لاحظت ذرة من التراب على ثوبها، فقد كانت تعلِّق على ذلك بصوتٍ مرتفع، سواء كان هناك شخصٌ يمكنه الرد عليها أم لا. قرابة الثانية عشرة والنصف تقريبًا، جذبها صوتُ طرقاتٍ مرتفعة للغاية سريعًا نحو النافذة، ولم يسنح لها الوقت بالكاد لإخبار كاثرين بوجود عربتين مفتوحتين أمام بابهما، في أولهما خادمٌ فحسب، بينما شقيقها يقود الآنسة ثورب في الثانية، قبل أن يأتي جون ثورب راكضًا أعلى الدرج وهو ينادي قائلًا:

- حسنًا يا آنسة مورلاند، ها أنا ذا. هل بقيتِ في الانتظار طويلًا؟ لم نتمكَّن من المجيء في وقتٍ مبكرٍ عن ذلك؛ لقد استغرق صانع العربات العجوز اللعين دهرًا بأكملِه حتى عثر على عربة ملائمة تصلحُ للركوب، وفي الغالب فإنَّ عربتهما سوف تُصاب بعطلٍ قبل أن نخرج من الشارع. كيف حالكِ، يا سيدة ألين؟ كان حفلًا راقصًا رائعًا الليلة الماضية، أليس كذلك؟ هيا يا آنسة مورلاند، أسرعي، فإنَّ الآخرين في عجلة للانطلاق. إنهما يتعجَّلان انقلاب عربتهما والانتهاء من الأمر.

سألته كاثرين:

- ما الذي تعنيه؟ إلى أين أنتم ذاهبون جميعًا؟

- إلى أين نحن ذاهبون؟ هل نسيتِ اتفاقنا؟ ألم نتفق معًا على التنزُّه بالعربة هذا الصباح؟ يا لذاكرتكِ هذه! سوف نتوجَّه إلى كلافرتون داون.

قالت كاثرين، وهي تنظر نحو السيدة ألين بانتظار رأيها:

- لقد ذُكر شيءٌ بخصوص ذلك، على ما أتذكر، لكنني في الحقيقة لم أكن أتوقع حضوركَ.

- لم تتوقعي حضوري! هذه دعابة جيدة! كنتِ ستوبخينني لو لم أحضر.

في تلك الأثناء، تعرَّض نداء كاثرين الصامت لصديقتها للتجاهل التام، إذ إنَّ السيدة ألين، التي لم تكن تألف على الإطلاق نقلَ أي تعبير من خلال مجرد نظرة، لم تكن على دراية بأنه من الممكن لأي شخصٍ آخر القيام بذلك. كان من الممكن تأجيل رغبة كاثرين في رؤية الآنسة تيلني مرة أخرى لفترة قصيرة، من أجل الذهاب للتنزُّه بالعربة. ولم تعتقد هي أنَّ هناك أيَّ شيءٍ غير لائقٍ في ذهابها مع السيد ثورب، حيث كانت إيزابيلا ستذهب في نفس الوقت برفقة جيمز، لذا اضطرت إلى الحديث بشكلٍ أوضح.

- حسنًا يا سيدتي، ما رأيكِ في ذلك؟ هل يمكنكِ الاستغناء عني لساعة أو ساعتين؟ هل أذهب؟

أجابت السيدة ألين بأقصى قدرٍ من الهدوء واللا مبالاة:

- افعلي ما يروق لكِ يا عزيزتي.

أخذت كاثرين بنصيحتِها، وأسرعت لتستعد. عاودت الظهور مرة أخرى في غضون دقائق قليلة، بعد أن تركت للآخريْن وقتًا يكفي بالكاد لتبادل بضع عبارات وجيزة في مديحها، بعد أن نال ثورب الإعجاب من السيدة ثورب فيما يتعلَّق بعربته. بعدها أسرعا بالنزول، عندما تلقيا أطيب أمنيات الوداع من صديقتها. دعاها واجب الصداقة على الفور وقبل أن تستقل العربة، للتوجه نحو إيزابيلا، التي صاحت قائلة:

- يا عزيزتي، لقد استغرقتِ ثلاث ساعات على الأقل للاستعداد، حتى خشيتُ أن تكوني مريضة. كان حفلًا راقصًا رائعًا، ذلك الذي تمتعنا به الليلة الماضية. لديَّ آلاف الأشياء التي أرغب في إخباركِ بها، لكن فلتسرعي وتستقلي العربة، لأنني أتوق للانطلاق.

أطاعت كاثرين أوامرها، واستدارت مبتعدة، لكن ليس قبل أن تسمع صديقتها وهي تقول لجيمز بصوتٍ مرتفعٍ:

- يا لها من فتاة لطيفة! كم أنا شغوفة بها!

قال السيد ثورب وهو يساعدها على الصعود للعربة:

- لا تخافي يا آنسة مورلاند، إذا تواثب حصاني بعض الشيء عندما ننطلق، فهو سيتقافز مرة أو مرتين على الأرجح، وربما أضطر إلى تلجيمه لدقيقة أو نحو ذلك، لكنَّه سرعان ما سوف يعرف من هو السيد. إنَّه مليء بالحيوية، ولعوبٌ للغاية، لكنَّه لا يتصف بأي نوعٍ من الشرور.

لم تعتقد كاثرين أنَّ تلك الصورة التي رسمها مطمئنة للغاية، لكن كان أوان التراجع قد فات، وكانت أصغر سنًّا من الاعتراف بأنها تشعر بالخوف، لذا استسلمت لأقدارِها، ووثقت بما سمعته من تفاخر صاحب الجواد بأنه يعرف سيده، وجلست في سلامٍ ورأت ثورب يجلس بجانبها. بعد الانتهاء من كل

الترتيبات، أمر الخادم الواقف عند رأس الحصان بنبرة متباهية بأن «يطلق سراحه»، وانطلقوا بعدها بأكثر درجة من الهدوء يمكن تصورها، من دون تقافز أو تواثب، أو أي شيء نحو ذلك. أحسَّت كاثرين بالارتياح لحسن طالعها بالنجاة على هذا النحو، وأعربت عن سعادتِها بصوتٍ مرتفعٍ وهي تشعر بالامتنان والدهشة. سرعان ما أوضح لها رفيقها الأمرَ ببساطة بأن طمأنها قائلًا إن الأمْرَ كلّه يعود لحكمته في الإمساك بالزمام، والتميز والبراعة اللذين وجَّه بهما سوطه. وعلى الرغم من أنَّ كاثرين لم تستطع منع نفسها من التساؤل عن السبب الذي دعاه لإثارة قلقها بشأن الحيل التي يمارسها الحصان طالما أنه يجيد التحكُّم فيه على هذا النحو، إلا أنها هنَّأت نفسَها لكونها برفقة سائق عربة بارعٍ لهذه الدرجة. وعندما لاحظت أنَّ الحصان استمرَّ في السير بنفس الهدوء، من دون إظهار أي ميولٍ لأي حيوية زائدة بدرجة مثيرة للإزعاج، وأنه لا ينطلق بسرعة مخيفة بأي حال من الأحوال (بالنظر إلى أن سرعته بالضرورة هي عشرة أميال في الساعة)، فقد تركت نفسها للاستمتاع بالهواء والتريض والنشاط في يومٍ لطيفٍ من أيام شهر فبراير، مع الوعي بالسلامة. تلا حوارهما القصير الأول بضع دقائق من الصمت، حتى قطعه ثورب بأن قال فجأة:

- إن ألين العجوز ثريٌّ كيهودي، أليس كذلك؟

لم تفهم كاثرين ما يعنيه، فكرر سؤاله مرة أخرى، وأوضح قائلًا:

- العجوز ألين، الرجل الذي تقيمين لديه.

- أوه، أنت تقصد السيد ألين. أجل، أعتقد أنه بالغ الثراء.

- وليس لديه أي أطفالٍ على الإطلاق؟

- لا، لا يوجد أي أطفال.

- يا له من أمرٍ رائعٍ بالنسبة إلى ورثته في المستقبل. إنه عرَّابكِ، أليس كذلك؟

- عرَّابي؟ إنه ليس عرَّابي.

- لكنكِ تقضين الكثيرَ من الوقت برفقتهم.

- أجل، بدرجة كبيرة.

- نعم، هذا هو ما قصدته. يبدو عجوزًا طيبًا بما فيه الكفاية، وأعتقد أنه يسعني القول بأنه عاش حياة طيبة، فهو لا يعاني من النقرس من دون سبب. هل يفرط في الشراب الآن؟

- يفرط في الشراب! لا، ما الذي دعاك للتفكير في مثل ذلك؟ إنه رجلٌ بالغ الاعتدال. أيمكن أن تكون ظننته ثملًا الليلة الماضية؟

- كان الرب في عونكِ! دومًا ما تنشغلن أنتن يا معشر النساء بالتفكير في أنَّ الرجال يعانون من السكر. أتظنين أنَّ زجاجة بوسعها هزيمة رجل؟ أنا على يقين من أنه لو أفرط الجميع في تناول الشراب، فلن يعاني العالم من نصف المشاكل الموجودة به الآن. سيكون ذلك أمرًا رائعًا لنا جميعًا.

- لا يمكنني تصديق ذلك.

- أوه! يا إلهي، سيكون ذلك بمثابة المنقذ للآلاف. لا يُستهلك ولو جزء من مئة من كمية النبيذ التي يجب استهلاكها في هذه المملكة. إن طقسنا الضبابي هذا بحاجة لما يخفِّف من أثره.

- لكن مع ذلك، فقد سمعتُ أنَّ هناك قدرًا كبيرًا من النبيذ يُستهلك في أوكسفورد.

- أوكسفورد! لا يوجد شرابٌ في أوكسفورد الآن، أؤكد لكِ. لا أحد يتناول الشراب هناك. من النادر أن تلتقي رجلًا يتناول ما هو أكثر من لترين على أقصى تقدير. على سبيل المثال الآن، في الحفل الأخير الذي أقمته في محل سكني، كان يُعَدُّ أمرًا استثنائيًّا كوننا قد تناولنا لترين ونصفًا لكل فرد في المتوسط. كان ذلك يعد أمرًا خارجًا عن المألوف. من المؤكد أن النبيذ الذي أقدِّمه فائق الجودة. من النادر أن تجدي شيئًا يضاهيه في أوكسفورد، وربما يكون ذلك تفسيرًا للأمر. لكن هذا سيعطيكِ فكرة عن المعدل العام لتناول الشراب هناك.

قالت كاثرين بحرارة:

- أجل، إنَّه يعطيني فكرة بالفعل، وهي أنكم جميعًا تتناولون قدرًا من النبيذ أكبر مما اعتقدتُ. ومع ذلك، فأنا على ثقة بأن جيمز لا يفرط في الشراب إلى هذا الحدِّ.

تسبَّب قولُها هذا في ردٍّ صاخبٍ وقوي، لم يتضح منه شيءٌ سوى الكثير من التعجُّب الذي يشارف حدَّ السباب، وعند انتهائه ترسخت لدى كاثرين قناعة قوية أنَّ استهلاك النبيذ مفرطٌ في أوكسفورد، ونفس القناعة الراضية برصانة شقيقها بالمقارنة.

بعد ذلك عادت أفكار ثورب كلها مرة أخرى لمزايا عربته، ودعاها لإبداء الإعجاب بالانطلاق والحرية التي يتحرك بها جواده، ورشاقة خطوته وجودة النوابض التي ساهمت في حركة العربة بيسر. كرَّرت كلَّ عبارات الثناء التي تفوه بها بقدر استطاعتها. كان من المستحيل أن تبدأ الكلام قبله، أو أن تسبقه في الحديث. حرمها من ذلك علمه هو وجهلها هي بالموضوع، إلى جانب سرعته في الحديث، وافتقارها للثقة بالنفس. لم تتمكَّن من الإتيان بعبارات ثناء جديدة، بل ردَّدت على الفور كلَّ ما اختار هو التفوه به، واتفقا في الرأي أخيرًا من دون أي صعوبة على أن تجهيزاته هي الأكثر اكتمالًا من نوعها في إنجلترا، وأنَّ عربته هي الأفضل، وحصانه الأسرع، وأنه هو نفسه أمهر سائق عربة.

قالت كاثرين، بعد فترة من التفكير في الأمر كأنَّه مسلَّمٌ به، ولتغيير موضوع الحديث بعض الشيء:

- أتعتقد حقًّا، يا سيد ثورب، أنَّ عربة جيمز سوف يصيبها عطلٌ؟

- يصيبها عطلٌ! أوه! رباه! هل سبق وأن رأيتِ مثل تلك العربة الصغيرة المتداعية في حياتكِ من قبل؟ لا توجد بها قطعة حديدٍ واحدة سليمة. وقد تهالكت عجلاتُها منذ عشر سنوات على الأقل. أما فيما يتعلَّق بهيكلها، أقسم بحياتي إنه بوسعكِ تحطيمها بنفسكِ بمجرد لمسة. إنها أكثر الأشياء اللعينة التي رأيتها تهالكًا على الإطلاق. أحمد الرب أنَّ لدينا ما هو أفضل منها! لن أقبل ركوبها لمسافة ميلين ولو مقابل خمسين ألف جنيهًا.

قالت كاثرين وقد انتابها الخوف بدرجة كبيرة:

- يا إلهي! بحق السماء، دعنا نعود. سوف يتعرَّضان لحادثٍ بكلِّ تأكيدٍ إذا مضينا في طريقنا. دعنا نعود، يا سيد ثورب. توقَّف وتحدث مع أخي، وأخبره كم أنَّ الأمرَ خطيرٌ.

- خطير؟ أوه، يا إلهي! وماذا في ذلك؟ كل ما سيحدث هو أنهما سينقلبان لو تعطَّلت، وهناك الكثير من الوحل، سيكون سقوطًا هيِّنًا. أوه، اللعنة! العربة آمنة بما فيه الكفاية، إذا كان المرء يعرف كيفية قيادتها. إنَّ عربة من ذلك النوع يمكنها أن تدوم في يد شخصٍ ماهرٍ لفترة أكثر من عشرين عامًا بعد تهالكها بدرجة كبيرة. فليباركَكِ الرب! يمكنني الرهان بخمسة جنيهات أنني أستطيع قيادتها إلى يورك والعودة بها ثانية من دون خسارة ولو مسمارٍ واحدٍ منها.

استمعتْ له كاثرين بدهشة، ولم تدرِ كيف توفِّق بين روايتين مختلفتين تمامًا عن نفس الشيء، إذ إنها لم تنشأ لتفهم طبيعة الثرثرة العقيمةَ، ولا لتعرف كم التأكيدات الفارغة والأكاذيب الوقحة التي يمكن أن يؤدي إليها الغرور الزائد. كان أفراد أسرتها أشخاصًا طبيعيين وعمليين، نادرًا ما يلجؤون للفكاهة من أي نوعٍ. كان والدها يقنع بالتورية في كلماته على أقصى حدٍّ، بينما والدتها تلجأ للأمثال. لذا لم يألفوا سردَ الأكاذيب للزيادة من أهميتهم، أو التأكيد على شيء ما في لحظة ليناقضوه في اللحظة التالية. فكرت كاثرين في الأمر لبعض الوقت بحيرة كبيرة، وأوشكت أكثر من مرة أن تطلب من السيد ثورب توضيحًا أكبر بشأن رأيه الحقيقي في الموضوع، إلَّا أنَّها منعت نفسها، لأنَّه بدا لها أنه لا يبرع في مثل ذلك النوع من التوضيحات، ولا في تفسير الأشياء التي جعلها تبدو غامضة من قبل، بالإضافة لذلك، فقد اعتبرت أنه لن يعرض شقيقته وصديقه بالفعل لخطر يمكنه بسهولة حمايتهما منه، واستنتجت في النهاية أنَّه من المؤكد يعرف أنَّ العربة آمنة تمامًا، لذا لم تزعج نفسها بعد ذلك. بدا أنه نسي تمامًا الأمر برمته، وكان كلُّ حواره التالي، أو بالأحرى حديثه، يبدأ وينتهي بنفسِه وباهتماماتِه هو. حكى لها عن الجياد التي اشتراها بسعرٍ بخسٍ، وباعها بمبالغَ باهظة، وعن مباريات السباق التي تنبَّأ فيها بالفائز على نحوٍ لا يشوبه الخطأ، وعن رحلات الصيد التي قتل فيها عددًا من الطيور تفوق جميع ما اصطاده رفاقه مجتمعين (على الرغم من أنه لم تسنح له الفرصة لتسديد ولو طلقة واحدة مباشرة). كما وصف لها مغامرات يوم رائع مع كلاب الصيد، حيث أسهم ببُعد نظره ومهارته في توجيه الكلاب في إصلاح بعض الأخطَاء التي وقع فيها بعض أكثر الصيادين خبرة، ووصف جرأته في ركوب الخيل، التي لم يسبق وأن عرضت حياته هو للخطر ولو للحظة، على الرغم من أن تلك الجرأة دومًا ما كانت تقود الآخرين إلى المصاعب، التي اختتم حديثه بهدوء قائلًا إنَّها أدَّت إلى كسر أعناق الكثيرين.

بقدر ما كانت كاثرين غير معتادة على الحكم على الأمور بنفسِها، وعلى الرغم من عدم وجود مفاهيم ثابتة لديها عمَّا يجب أن يكون الرجال عليه، إلَّا أنَّها لم تستطع منعَ نفسها كلية من الشك في كونه صادقًا تمامًا، بينما هي تتحمَّل تدفق غروره اللا متناهي. كانت جسورة في حدسِها ذاك، لكونه شقيق إيزابيلا، ولأن جيمز أكد لها أنَّ سلوكياته ستشفع له لدى جميع بنات جنسها. لكن بالرغم من ذلك، فإن ضجرها الشديد من صحبته، الذي تسلَّل إليها من قبل أن يكملا ساعة في نزهتهما، والذي استمرَّ في التزايد من دون توقف حتى عادا إلى شارع بولتيني مرة أخرى، دعاها بدرجة ما لمقاومة تلك السلطة العليا، وللشك في قدرته على تسلية الجميع.

عند وصولهم إلى باب السيد ألين، عجزت إيزابيلا عن التعبير عن دهشتها، عندما اكتشفت أنّ الوقتَ بات متأخرًا بحيث لا يسمح لهم بالدخول إلى المنزل مع صديقتها.

- تخطَّت الساعة الثالثة!

كان ذلك شيئًا يصعب تصوره، ولا يُصدَّق، ومستحيلًا! لم تصدق ساعتها، ولا ساعة شقيقها، ولا ساعة الخادم. لم تصدق أي تأكيدات مبنية على العقل أو الواقع، حتى أخرج مورلاند ساعته وأكد لها الأمر. لو استمر تشككها في الأمر للحظة واحدة أخرى، لكان ذلك أمرًا يصعب تصوره، ولا يُصدق، ومستحيلًا بالقدر نفسه. لم يسعها سوى أن تبدي احتجاجها، مرارًا وتكرارًا، قائلة إنه لم يسبق وأن مرَّت ساعتان ونصف بمثل هذه السرعة من قبل، وطلبت من كاثرين تأكيد ذلك. لم يكن بوسع كاثرين الكذب ولو إرضاءً لصديقتها، لكن تلك الأخيرة لم تضطر إلى الشعور بالبؤس بسبب اعتراض صديقتها؛ إذ إنها لم تنتظر منها جوابًا. استحوذت عليها مشاعرها تمامًا، وازداد بؤسها حدة عندما وجدت نفسها مضطرة أن تعود إلى المنزل مباشرة. بدا أنَّ دهرًا بأكمله قد انقضى منذ أن سنحت لها الفرصة لتبادل محادثة قصيرة مع عزيزتها كاثرين. وعلى الرغم من أنها كانت لديها الآلاف من الأشياء التي ترغب في إخبارها بها، إلا أنه بدا أنهما لن تجتمعا معًا مرة أخرى أبدًا. لذا ابتسمت ابتسامة بائسة رائعة، وبعينٍ ضاحكة مترعة باليأس، ودَّعت صديقتَها ومضتْ في طريقها.

وجدت كاثرين السيدة ألين قد عادت للتوِّ من كل مشاغل الصباح البسيطة، واستقبلتها على الفور قائلة:

- حسنًا يا عزيزتي، ها أنتِ ذا.

وهي حقيقة لم تكن لدى كاثرين الرغبة ولا القوة لجدالها.

واصلت السيدة ألين قائلة:

- أتمنى أن تكوني استمتعتِ بالنزهة.

- أجل يا سيدتي، أشكركِ. لم يكن من الممكن أن نحظى بيومٍ أجمل.

- هكذا قالت السيدة ثورب. لقد سرتْ أيما سرور لذهابكم جميعًا.

- هل رأيتِ السيدة ثورب إذن؟

- نعم، لقد ذهبتُ إلى قاعة المضخات ما إن رحلتِ، وقابلتها هناك، وتبادلنا الحديث مطولًا. تقول إنه لم يكن هناك أي لحم عجل في السوق صباح اليوم، وإنه شحيحٌ للغاية.

- هل رأيتِ أي شخص آخر من معارفنا؟

- أجل، لقد اتفقنا على الذهاب إلى مبنى الهلال، وهناك قابلنا السيدة هيوز، والسيد والآنسة تيلني يسيران برفقتها.

- أحقًّا فعلتم؟ وهل تبادلوا الحديثَ معكم؟

- أجل، تمشينا معًا بجوار الهلال لنصف ساعة. إنهم يبدون في منتهى اللطف. كانت الآنسة تيلني ترتدي ثوبًا جميلًا للغاية من القماش القطني المرقط، وأتخيل مما أراه أنها دومًا ما ترتدي ملابس بالغة الأناقة. حدثتني السيدة هيوز كثيرًا عن الأسرة.

- وماذا أخبرتكِ عنهم؟

- أوه! الكثيرَ حقًّا. بالكاد تحدثتْ عن أي شيء آخر.

- هل أخبرتكِ من أي منطقة من جلوسترشير أتوْا؟

- أجل، لقد فعلتْ، لكن لا يمكنني التذكُّر الآن. لكنَّهم أناسٌ طيبون جدًّا، وأثرياء للغاية. كان اسم السيدة تيلني قبل الزواج هو الآنسة دراموند، وكانت هي والسيدة هيوز زميلتين في المدرسة. كانت الآنسة دراموند صاحبة ثروة كبيرة للغاية، وعند زواجها منحها والدها عشرين ألف جنيه، بالإضافة إلى خمسمائة لشراء ملابس الزفاف. شاهدتْ السيدة هيوز كل الملابس بعد وصولها من المتجر.

- وهل السيد والسيدة تيلني موجودان في باث؟

- أجل، أتخيَّل ذلك، وإن كنتُ غير متأكدة. مع ذلك عند التفكير في الأمر، يهيَّأ إليَّ أنَّ كليهما قد ماتا، أو على الأقل الأم. نعم، أنا على ثقة بأنَّ السيدة تيلني ماتت، لأنَّ السيدة هيوز أخبرتني أنَّ هناك طقمًا جميلًا من اللؤلؤ منحه السيد دراموند لابنته في يوم زفافها، وأنَّه بحوزة الآنسة تيلني الآن، حيث تركته لها أمها عند وفاتها.

- وهل السيد تيلني، شريكي، هو الابن الوحيد؟

- لا يمكنني الوثوق تمامًا من هذا الأمر يا عزيزتي. أظنُّ أنَّه كذلك. لكن مع ذلك، تقول السيدة هيوز أنَّه شابٌّ رائعٌ للغاية، ومن المرجح أن يبلي بلاءً حسنًا.

لم تستفسر كاثرين عن المزيد، إذ سمعت ما يكفي لتشعر أنَّ السيدة ألين ليس لديها أيُّ معلوماتٍ حقيقية لتقدمها، وأنها تعاني سوء الحظ على نحوٍ خاصٍّ لكونها فاتها مثل هذا اللقاء مع كل من الشقيق والشقيقة. لو كان بوسعها توقُّع مثل ذلك الأمر، لما نجح أي شيء في إقناعها بالذهاب مع الآخرين. بطبيعة الحال، لم يسعها سوى أن تندب سوءَ حظِّها، والتفكير فيما فاتها، حتى اتضح لها أنَّ النزهة لم تكن ممتعة بأي حالٍ من الأحوال، وأنَّ جون ثورب نفسه مزعجٌ للغاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 10 -

اجتمع آل ألين، وآل ثورب، وآل مورلاند جميعًا في المسرح مساءً، وبينما جلست كاثرين وإيزابيلا معًا، سنحت الفرصة لتلك الأخيرة للحديث حول بعض من آلاف الأشياء التي كانت ترغب في الكلام عنها، خلال تلك الفترة الزمنية اللا متناهية التي فرَّقت بينهما. قالت عندما ولجت كاثرين المقصورة لتجلس بجانبها:

- أوه، يا إلهي! عزيزتي كاثرين، هل سأحظى برفقتكِ أخيرًا؟

واصلت قائلة للسيد مورلاند، الجالس على الجانب الآخر منها:

- والآن يا سيد مورلاند، لن أتحدث إليكَ بكلمة واحدة لبقية الأمسية، لذا أطالبكَ بألَّا تتوقع ذلك. يا عزيزتي كاثرين، كيف كانت أحوالكِ طوال هذه الفترة الطويلة الماضية؟ لكن لا حاجة بي لسؤالكِ، إذ إنكِ تبدين رائعة. لقد صففتِ شعركِ حقًّا بطريقة أجمل من أي وقتٍ مضى. أيتها العابثة، أتريدين جذب انتباه الجميع؟ أؤكد لكِ أنَّ أخي مغرمٌ بكِ بالفعل بدرجة كبيرة. أمَّا بالنسبة إلى السيد تيلني -لكنَّ ذلك شيءٌ مفروغٌ منه- لا يمكن لتواضعكِ حتى أن يجعلكِ تتشككي الآن في تعلُّقه، إذ إن عودته إلى باث توضِّح كلَّ شيء. أوه! سأتخلَّى عن أي شيء كي تسنح لي الفرصة لرؤيته! لقد نفد صبري بالفعل. تقول أمي إنَّه ألطف شاب في العالم. لقد التقتْ به صباح اليوم، كما تعرفين. عليكِ أن تقدميه إليَّ. هل هو موجودٌ بالمسرح الآن؟ فلتنظري حولكِ، بحق السماء! أؤكد لكِ، لا يمكنني الارتياح حتى أراه!

أجابتها كاثرين:

- لا، إنَّه ليس هنا. لا يمكنني رؤيته في أي مكانٍ.

- أوه، هذا أمرٌ مروعٌ! ألن أتعرَّف عليه أبدًا؟ ما رأيكِ بثوبي؟ أعتقد أنه لا يبدو سيئًا. إنَّ الأكمام بأكملِها من تصميمي أنا. أتعلمين، أنا أشعر بالضجر من باث بدرجة مفرطة. اتفقتُ في الرأي أنا وشقيقكِ صباح اليوم أنَّ الوجود هنا لبضعة أسابيع أمرٌ حسن للغاية، لكن على الرغم من ذلك، فإننا لن نرغب في العيش هنا ولو مقابل ملايين. سرعان ما اكتشفنا أن أذواقنا متشابهة فيما يتعلَّق بتفضيل الريف على أي مكانٍ آخر. حقًّا، كانت آراؤنا متطابقة تمامًا بصورة مضحكة! لم نختلف ولو في نقطة واحدة. لم أكن لأرغب في وجودكِ ولو مقابل كنوز العالم بأكمله، إذ إنكِ ماكرة للغاية، وأنا متأكدة أنكِ ستعلِّقين على الأمر بتعليقٍ ساخرٍ أو بآخر.

- لا، بالقطع لم أكن لأفعل.

- أوه، بالتأكيد كنتِ ستفعلين. أنا أعرفكِ أفضل مما تعرفين نفسكِ. كنتِ ستخبريننا أننا نبدو كأنَّنا وُلِدنا من أجل بعضنا، أو هُراء ما من ذلك النوع، مما كان سيزعجني أبعد من أي تصور، وكانت وجنتاي ستتضرجان بالحمرة مثل ورودكِ. لم أكن لأرغب في وجودكِ ولو مقابل أي شيء في العالم.

- إنكِ تظلمينني حقًا. لم أكن لأبدي مثل تلك الملحوظة غير اللائقة بأي حالٍ من الأحوال. وإلى جانب ذلك، فأنا على ثقة بأنها لم تكن لتطرأ على ذهني أبدًا.

ابتسمت إيزابيلا بتشككٍ، وأمضت بقية الأمسية وهي تتبادل الحديث مع جيمز.

صباح اليوم التالي، ظلَّت كاثرين عازمة لأقصى درجة على الالتقاء بالآنسة تيلني مرة أخرى، وانتابها القلق بعض الشيء لخشيتها من وقوع ما يمنعها من ذلك مرة أخرى، حتى حلّ الوقت المعتاد للذهاب إلى قاعة المضخات. لكن لم يحدث شيءٌ من ذلك القبيل. لم يظهر أي زوار لتعطيلهم، وانطلق ثلاثتهم في وقتٍ مناسبٍ إلى قاعة المضخات، حيث أخذت الأحداث والمحادثات العادية مجراها. بعد أن شرب السيد ألين كأسًا من المياه، انضمَّ إلى بعض الرجال لتبادل الحديث حول السياسة، ومقارنة ما قرؤوه في الصحف. تجوَّلت السيدتان معًا، وهما تتفحصان وجه كل وافدٍ جديدٍ، وكل قلنسوة جديدة في القاعة تقريبًا. ظهرت مجموعة إناث آل ثورب، وبرفقتهن جيمز مورلاند، وسط الحشد بعد أقل من ربع ساعة، وسرعان ما اتخذت كاثرين مكانها المعتاد بجانب صديقتها. احتفظ جيمز، الذي صار يرافقها باستمرارٍ الآن، بمكانٍ مماثلٍ، وساروا على ذلك النحو لفترة من الوقت بعد أن انفصلوا عن بقية المجموعة، حتى بدأت كاثرين تشكّ في مدى سعادتها في ذلك الموقف الذي حصرها تمامًا بين صديقتها وشقيقها، ولم تنل فيه سوى أقل القليل من انتباه أي منهما. كانا منشغليْن على الدوام في نقاشٍ عاطفي ما، أو جدالٍ حيوي، لكنَّهما تبادلا الرأي بأصواتٍ هامسة، وصاحبت حيويتهما الكثير من الضحكات، لدرجة أنه على الرغم من أنَّ كليهما كان يطلب دعم كاثرين لهما برأيها بشكلٍ متكررٍ، فلم تستطع إبداء أي رأي، بسبب عدم سماعها لأي كلمة من الموضوع. مع ذلك، فقد تمكَّنت في نهاية المطاف من الابتعاد عن صديقتها، بعد أن أعلنت ضرورة الذهاب للتحدُّث إلى الآنسة تيلني، التي لمحتها بسعادة بالغة وهي تلج القاعة بصحبة السيدة هيوز، فانضمَّت إليهما على الفور، عازمة على التعارُف بدرجة كان من الصعب أن تواتيها الشجاعة الكافية من أجلها من قبل، لولا أن دفعها إلى ذلك خيبة أملها في اليوم السابق. قابلتها الآنسة تيلني بالكثير من الكياسة، وردَّت تحيتها بالقدر نفسه من اللطف، واستمرَّا في تبادل الحديث طوال بقاء المجموعتين في القاعة. وعلى الرغم من أنهما لم تتبادلا على الأرجح أي ملاحظة ولا تعبير لم يُذكر آلاف المرات من قبل تحت ذلك السقف في كل موسم في باث، فإن ميزة حديثهما من دون تصنُّع وبصراحة ومن دون أي زهوٍ، قد تمثل شيئًا غير معتادٍ.

قرب نهاية حديثهما، قالت كاثرين بتعجُّبٍ ساذجٍ:

- ما أمهر شقيقكِ في الرقص!

مما أثار دهشة رفيقتها وأبهجها في ذات الوقت.

أجابت بابتسامة:

- هنري! أجل، إنَّه بارعٌ للغاية في الرقص.

- لا بُدَّ وأنه استعجب للغاية عندما سمعني أقول إنني مرتبطة بشريكٍ للرقص تلك الأمسية الماضية، في حين أنه شاهدني جالسة، لكنني كنتُ مرتبطة بالفعل برفقة السيد ثورب طوال اليوم.

لم يسع الآنسة تيلني سوى الانحناء لها على سبيل الرد.

أضافت كاثرين قائلة بعد لحظة من الصمت:

- لا يمكنكِ تخيُّل مدى دهشتي عندما رأيته مرة ثانية. كنتُ على ثقة بأنَّه رحل تمامًا.

- عندما أسعد الحظ هنري بلقائكِ من قبل، مكث في باث لمدة يومين فحسب. كان قد أتى فقط ليؤجِّر سكنًا لنا.

- لم يخطر ذلك على بالي قطٌّ. وبالطبع، عندما لم أرَه في أي مكانٍ ظننتُ أنه لا بُدَّ وأن يكون قد رحل. ألم تكن تلك الشابة التي رقص معها يوم الاثنين تُدعى الآنسة سميث؟

- بلى، إنَّها إحدى معارف السيدة هيوز.

- أظنُّ أنَّها كانت سعيدة للغاية لأنها قامت للرقص. أتعتقدين أنها جميلة؟

- ليس بدرجة كبيرة.

- إنه لا يأتي لقاعة المضخات أبدًا، على ما أظن؟

- نعم، إنَّه يأتي أحيانًا. لكنَّه ذهب لركوب الخيل مع أبي صباح اليوم.

حينها انضمَّت لهما السيدة هيوز، وسألت الآنسة تيلني ما إذا كانت مستعدة للانصراف. قالت كاثرين:

- آمل أن أسعد برؤيتكِ مرة أخرى قريبًا. هل ستكونين موجودة في الحفل الراقص غدًا؟

- ربما نكون... أجل، أعتقد أننا سنكون هناك بالتأكيد.

- يسعدني ذلك، حيث سنكون جميعًا موجودين هناك.

تمَّ ردُّ التحية حسب الأصول، وافترقا وقد ألمَّت الآنسة تيلني من جانبها ببعض المعلومات عن مشاعر صديقتها الجديدة، ومن دون أدنى فكرة من جانب كاثرين عن كونها قد أوضحت مشاعرها تلك.

عادت إلى المنزل تغمرها السعادة. كانت كلُّ آمالها قد تحققت ذلك الصباح، وصار مساء اليوم التالي موضع ترقب، والمستقبل يبدو واعدًا. أصبح جلُّ ما يشغلها هو أي ثوبٍ وغطاء للرأس عليها ارتداؤهما لتلك المناسبة. لم يكن هناك مبررٌ لانشغالها ذاك، إذ إنَّ التميُّز في اللباس دومًا ما يكون ضربًا بالغ الضحالة من ضروب التميُّز، وغالبًا ما تؤدي المبالغة في الملبس لانتفاء الأناقة من الأساس. كانت كاثرين تدرك كلَّ ذلك جيدًا، إذ إن عمة والدها قرأت لها محاضرة حول ذلك الموضوع خلال عيد الميلاد الماضي، ومع ذلك فقد بقيت مستيقظة لمدة عشر دقائق ليلة الأربعاء وهي تفاضل ما بين ثوبها القطني المرقط والآخر المطرز، ولم يمنعها سوى ضيق الوقت من شراء ثوبٍ جديدٍ لتلك الأمسية. كان ذلك سيمثِّل سوء تقديرٍ بالغًا، وإن كان شائعًا، لم يكن ليستطيع تحذيرها منه سوى شخصٍ من الجنس الآخر، لا من بنات جنسها، أي شقيق، وليست عمة، لأنَّ الرجلَ وحده هو الذي يدرك عدم اهتمام الرجال بالملابس الجديدة. ستصاب الكثير من السيدات بالحرج، لو أدركن ضآلة اكتراث الرجال بما هو ثمينٌ أو جديدٌ في ملبسهن، وقلة اهتمامهم بملمس النسيج القطني، وأنه

لا يعنيهم في شيء القماش المرقط ولا المنقوش بالزهور، ولا الخشن أو الرقيق. تتأنق المرأة لشعورها الشخصي بالرضا فحسب. لن يُعجَب بها أيُّ رجلٍ بدرجة أشد بسبب ذلك، ولن تميل إليها امرأة أخرى بقدرٍ أكبر بسبب ذلك، فالنظافة والأناقة تكفيان ذلك الأول، كما أنَّ الملابس القديمة بعض الشيء أو التي لا تواكب أحدث صيحة ستكون محببة أكثر لتلك الأخيرة. لكن لم تزعج أيٌّ من هذه الأفكار الجليلة هدوء كاثرين.

ولِجت القاعة مساء الخميس بمشاعر تختلف تمامًا عن تلك التي انتابتها هناك يوم الاثنين الماضي. كانت مبتهجة ساعتها بارتباطِها بثورب كشريكٍ للرقص، بينما باتت الآن حريصة بالأساس على الاختفاء عن ناظره، لئلَّا يطلب منها الرقصَ مرة أخرى. فعلى الرغم من أنَّها لم تكن لتجرؤ على تخيُّل أنَّ السيد تيلني قد يطلب منها الرقصَ لمرةٍ ثالثة، إلَّا أنَّ جميع أمنياتها وآمالها وخططها لم تكن تتمحور حول شيءٍ بخلاف ذلك. قد تشعر كلُّ امرأة شابة بالتعاطف مع بطلتي في هذه اللحظة الحرجة، إذ إنَّ كلَّ امرأة شابة قد اختبرت في وقتٍ أو آخر مثل تلك الانفعالات. لقد سبق وأن تعرضن جميعًا، أو على الأقل اعتقدن أنهن تعرضن، للملاحقة من قبل شخص يرغبن في تجنبه، كما أنهن جميعًا حرصن على الفوز باهتمام شخصٍ يرغبن في إرضائه. بمجرد انضمام آل ثورب إليهم، بدأت معاناة كاثرين؛ تململت كلما اقترب منها جون ثورب، وأخفت نفسَها قدر الإمكان عن مجال رؤيته، وتظاهرت بعدم سماعه كلما تحدث إليها. انتهت الرقصات الجماعية التي تجمع بين أربعة أزواجٍ من الراقصين، وبدأ الرقص الريفي، ومع ذلك لم تلمح أحدًا من آل تيلني. همست إيزابيلا قائلة:

- لا تقلقي يا عزيزتي كاثرين، لكنني سوف أرقص مع شقيقكِ مرة أخرى بالفعل. أعرف أنَّ ذلك أمرٌ صادمٌ للغاية، وأقول له إن عليه الشعورَ بالخجل من نفسه، لكن يجب عليكِ أنت وجون مساعدتنا لحفظ ماء الوجه. فلتسرعي يا عزيزتي وتأتي للانضمام إلينا. لقد خرج جون للتوِّ، لكنَّه لن يلبث أن يعودَ بعد لحظات.

لم يكن لدى كاثرين الوقت ولا الرغبة في الإجابة. سار الآخرون مبتعدين، وكان جون ثورب لا يزال على مرمى البصر، واعتبرت نفسها ضائعة لا محالة. ومع ذلك، حتى لا تظهر كأنها تتوقعه أو تراقبه، فقد أبقت عينيها مثبتتين بإصرارٍ على مروحتها. وما إن فكرت في إدانة نفسها لحماقتها في كونها توقعت لقاء آل تيلني في وقتٍ مناسبٍ وسط كل هذا الحشد، حتى وجدت السيد تيلني نفسه يخاطبها فجأة ويطلب منها الرقص. يمكن بسهولة تخيُّل التماع عينيها وسرعتها في التحرُّك لتلبية طلبه، ورفرفة قلبها بسعادة وهي تذهب برفقته للانضمام لمجموعة الراقصين. أفلتت من جون ثورب، ونجحت في ذلك بالكاد على حدِّ ظنِّها، وطلب منها السيد تيلني الرقصَ على الفور ما إن انضم إليها، كما لو أنَّه سعى إليها عامدًا! لم يبدُ لها أنَّ الحياة يمكنها منح أي سعادة أكبر من ذلك.

لكن ما أن استقرَّا بهدوءٍ في مكانٍ وسط ساحة الرقص، حتى لفت انتباهها جون ثورب الواقف خلفها. قال:

- مرحبًا، يا آنسة مورلاند! ما معنى هذا؟ لقد ظننتُ أننا سوف نرقص معًا، أنا وأنتِ.

- أتساءل ما الذي دعاكَ لأن تعتقد هذا، إذ إنكَ لم تطلب مني ذلك على الإطلاق.

- هذه مزحة جيدة، بحق السماء! لقد طلبتَ منكِ ذلك بمجرد دخولي القاعة، وكنتَ على وشك أن أطلب منكِ مرة أخرى، لكن عندما استدرتُ، اختفيتِ أنتِ! هذه خدعة دنيئة لعينة! لقد جئتُ بهدف الرقص معكِ فحسب، وأعتقد بشدة أنكِ ارتبطتِ بالرقص معي منذ يوم الاثنين. أجل، أتذكر أنني سألتكِ بينما كنتِ في الردهة بانتظار عباءتكِ. وها أنا أخبرتُ كل معارفي أنني سوف أراقص أجمل فتاة في كل القاعة، وسوف يسخرون مني بشدة عندما يشاهدونكِ تقومين للرقص مع شخصٍ آخر.

- أوه، لا، لن يظنُّوا أبدًا أنَّ مثل ذلك الوصف ينطبق عليَّ أنا.

- بحق السماء، لو لم يفعلوا فسوف أطردهم خارج القاعة لكونهم حمقى. من هذا الرجل الذي بصحبتكِ؟

أشبعت كاثرين فضولَه. كرَّر قائلًا:

- تيلني. هممم، لا أعرفه. يبدو رجلًا رشيقًا وأنيقًا. هل يريد حصانًا؟ يوجد لديَّ صديقٌ، سام فليتشر، لديه حصانٌ للبيع مناسبٌ لأي شخصٍ. إنَّه حصانٌ رائعٌ للغاية لجرِّ عربة، وثمنه أربعون جنيهًا فقط. كثيرًا ما فكرت في شرائه بنفسي، حيث إن أحد مبادئي هو شراء الحصان الجيد دومًا عند العثور عليه، لكنَّه لن يناسب حاجتي، إذ إنه لا يصلح للصيد. أنا على استعدادٍ لدفع أي مبلغٍ مقابل حصان صيد جيدٍ بالفعل. لديَّ ثلاثة الآن، وهم أفضل ثلاثة جياد ركبها أحدٌ على الإطلاق. لن أقبل ولو ثمانمائة جنيهًا حتى ثمنًا لهم. أنتوي أنا وفليتشر تأجيرَ منزلٍ في ليسترشير لموسم الصيد القادم، إذ إن السكنى في نزل أمرٌ لعينٌ وغير مريحٍ للغاية.

كانت تلك هي الجملة الأخيرة التي تمكَّن من إضجار كاثرين بها، إذ إنه ابتعد ساعتها بسبب قوة اندفاع صفٍّ طويلٍ من السيدات اللواتي مررن هناك. اقترب رفيقُها حينها قائلًا:

- كان ذلك الرجل سيخرجني عن حدود صبري، لو بقي برفقتكِ لنصف دقيقة أكثر. لم يكن لديه أيُّ حقٍّ في الاستيلاء على انتباه شريكتي. لقد أبرمنا اتفاقًا متبادلًا بالتعامُل بلطفٍ طيلة الأمسية، وكل لطفنا هذا من حقٍّ بعضنا لبعضٍ فقط، لتلك الفترة من الوقت. لا يمكن لشخصٍ أن يحوز اهتمامَ أحدنا من دون الإضرار بحقوق الآخر. فأنا أعتبر الرقص الريفي كرمزٍ لعلاقة الزواج. إنَّ الإخلاص والرضا هما الركنان الأساسيان لكليهما. ولا شأن لأولئك الرجال ممن اختاروا بأنفسهم عدم المشاركة في الرقص أو عدم الزواج، بشريكاتٍ أو زوجات من يجاورونهم من باقي الرجال.

- لكنَّهما شيئان مختلفان تمامًا!

- وأنتِ تعتقدين أنه لا يمكن عقد مقارنة بينهما.

- بالتأكيد لا. لا يمكن للمتزوجين الافتراق أبدًا، بل عليهما إقامة سكن مشترك معًا. أما شركاء الرقص، فيقفون بعضهم قبالة بعض في قاعة طويلة لنصف ساعة فحسب.

- إذا كان هذا هو تعريفكِ للرقص والزواج، فلو نظرنا إليهما في ذلك الضوء، لن يكون التشابه بينهما لافتًا بالقطع. لكن أعتقد أنني أستطيع تصويرهما على النحو التالي: عليكِ الاعتراف أنه في كلتا الحالتين، يتمتع الرجل بمزية الاختيار، وللمرأة الحق في الرفض فحسب. وأنه في كلتا الحالتين، هناك

اتفاقَ بين الرجل والمرأة، يُعقد لصالحهما، وأنه بمجرد إبرام ذلك الاتفاق، فإنهما ينتميان حصريًّا بعضهما لبعض، حتى لحظة انتهاء الاتفاق. ومن واجب كل منهما أن يسعى لعدم منح الآخر سببًا يدعوه لتمني لو أنه وضع نفسه في موضع آخر، كما أنه من مصلحتهما منع أنفسهما من الشرود بخيالهما للتفكير في مزايا من يجاورونهما، أو تخيل أنهما سيكونان أفضل حالًا مع أي شخصٍ آخر. هل تقرين بكلِّ ذلك؟

- نعم، بالتأكيد، يبدو كلُّ ذلك جيدًا للغاية كما وصفته أنتَ، لكن مع ذلك فإن الأمرين مختلفان تمامًا. لا يمكنني النظر إليهما بنفس المنظور، ولا التفكير في أنَّ نفسَ الواجبات تنطبق على كليهما.

- من ناحية، هناك فارقٌ بالقطع. في الزواج، يُفترض بالرجل أن يعول المرأة، وعلى المرأة أن تجعل المنزل مقبولًا للرجل. عليه هو توفير المؤونة، وعليها هي الابتسام. لكن في الرقص، تتبدَّل أدوارهما تمامًا. يُتوقع منه هو اللطف والامتثال، بينما توفر هي المروحة والماء المعطر باللافندر. كان ذلك على ما أعتقد هو الاختلاف في الواجبات الذي جعلكِ تظنين أنه لا يمكن المقارنة بينهما.

- لا، في الواقع لم أفكر في ذلك على الإطلاق.

- إذن، فأنا في حيرة من أمري. ومع ذلك، عليَّ إبداء ملاحظة. إنَّ هذه النزعة من جانبكِ تدعو لإثارة القلق. إذ إنكِ لا تقرِّين بأي تشابه في الواجبات على الإطلاق، فهل لي أن أستنتج من ذلك أنَّ مفاهيمكِ عن آداب الرقص ليست بالصرامة التي يتمنَّاها شريككِ؟ أليس هناك ما يدعوني للقلق من أنه إذا عاد ذلك الرجل الذي تبادل الحديث معكِ، أو لو أن أي رجل آخر تبادل الحديث معكِ، فلن يكون هناك ما يمنعكِ من تبادل الحديث معه طالما شئتِ ذلك؟

- السيد ثورب صديقٌ مقربٌ للغاية من شقيقي، لذا إذا حادثني، فمن الواجب عليَّ أن أجيبه مرة أخرى. لكن لا يوجد بالكاد ثلاثة رجالٍ سواه أعرفهم في القاعة.

- وهل هذا هو ضماني الوحيد؟ يا للأسف، واحسرتاه!

- لا، أنا متأكدة أنَّه لا يمكنكَ الحصول على ضمانٍ أفضل من ذلك. حيث إنه لا يمكنني تبادُل الحديث مع شخصٍ آخر، طالما كنتُ لا أعرف أحدًا. وإلى جانب ذلك، فأنا لا أرغب في الحديث مع أحدٍ.

- ها أنتِ قد منحتني ضمانًا يستحق أن يحوزه المرء، وسأمضي قدمًا بشجاعة. هل تجدين باث مقبولة بنفس القدر مثلما كان الأمر عندما تشرفتُ بسؤالكِ السؤال ذاته من قبل؟

- أجل، إلى حدٍّ كبيرٍ. بل بدرجة أكبر في الواقع.

- بدرجة أكبر! فلتلزمي الحرص، وإلا سوف تنسين أنَّ عليكِ الشعورَ بالضجر منها في الوقت المناسب. يجب أن تشعري بالملل بعد نهاية ستة أسابيع.

- لا أظن أنني سأشعر بالملل، ولو بقيت هنا لستة أشهر.

- مقارنة بلندن، فإنه لا يوجد في باث سوى القليل من التنوع. هذا هو ما يكتشفه الجميع في كلِّ عام. «أقرُّ بأنَّ باث لطيفة بما فيه الكفاية لستة أسابيع، لكن لو طال الوقت عن ذلك، فهي أكثر مكانٍ إثارةً

للملل في العالم». سيخبركِ بذلك أشخاصٌ من جميع الأوصاف، ممن يأتون بانتظام هنا كل شتاء، ويمدون فترة إقامتهم من ستة أسابيع إلى عشرة أو اثني عشر أسبوعًا، ثم يرحلون أخَيرًا لأنه لم يعد بوسعهم تحمُّل تكاليف الإقامة لفترة أطول من ذلك.

- حسنًا، على الأشخاص الآخرين الحكم على الأمر بأنفسهم، وربما لا يكنُّ أولئك الذين يذهبون إلى لندن الكثيرَ من التقدير لباث. لكن بالنسبة إليَّ، وأنا أعيش في قرية صغيرة منعزلة في الريف، فلا يمكن أن أجد رتابة هنا أكثر مما أجد في بيتي، إذ إنه توجد هنا وسائل تسلية متنوعة، وعديد من الأشياء التي يمكن مشاهدتها والقيام بها طوال اليوم، والتي لا أدري عنها شيئًا هناك.

- أنتِ لا تحبين الريف.

- أجل، أحبه. لطالما عشتُ هناك، ولطالما كنتُ في غاية السعادة. لكن هناك بالقطع رتابة أكثر في حياة الريف عنها في الحياة في باث. فكل يوم في الريف يشبه الآخر تمامًا.

- لكنكِ تمضين وقتكِ على نحو عقلاني بدرجة أكبر كثيرًا في الريف.

- هل أفعل حقًّا؟

- ألا تفعلين؟

- لا أظن أن هناك فارقًا كبيرًا.

- أنتِ هنا تسعين خلف التسلية فحسب طوال اليوم.

- كما أفعل ذلك في المنزل أيضًا، إلَّا أنَّني لا أجدُ الكثيرَ من التسلية هناك. فأنا أذهب للتمشية هنا، كما أذهب هناك أيضًا، لكنني أرى هنا مجموعة متنوعة من الأشخاص في كل شارعٍ، بينما لا أستطيع هناك سوى الذهاب لزيارة السيدة ألين.

وجد السيد تيلني الأمر مسليًا للغاية. كرر قائلًا:

- تذهبين لزيارة السيدة ألين فحسب! يا لها من صورة للفقر الفكري! ومع ذلك، عندما تعودين للسقوط في تلك الهاوية مرة أخرى، سيكون لديكِ المزيدُ مما يمكنكِ الحديث عنه. سيصير بوسعكِ الحديث عن باث، وكل ما فعلتِه هنا.

- أوه، أجل! لن أفتقر مرة أخرى أبدًا لموضوع للحديث مع السيدة ألين، أو مع أي شخصٍ آخر. أعتقد حقًّا أنني سوف أستمرُّ في الحديث عن باث عند عودتي إلى المنزل مرة أخرى، فأنا مولعة بها للغاية. لو استطعتُ أن أحظى بوجود أبي وأمي وبقيتهم هنا، أعتقد أنني سأكون سعيدة لأقصى حدٍّ! إنَّ حضورَ جيمز، أخي الأكبر، أمرٌ مبهجٌ للغاية، خاصة أنه اتضح أنَّ الأسرة التي صرنا على علاقة حميمة معها هم أصدقاء مقربون له بالفعل. أوه! من يمكنه الشعور بالملل من باث أبدًا!

- ليس أولئك الذين يأتون إليها بمشاعر متجددة من كل نوعٍ، مثلما فعلتِ أنتِ. لكنَّ الآباء والأمهات، والأشقاء والأصدقاء الحميمين ما هم إلا شيءٌ طواه الماضي بالنسبة إلى معظم من يأتون إلى باث،

كما انقضى بالنسبة إليهم عهد الاستمتاع البريء بالحفلات الراقصة والمسرحيات ومشاهد الحياة اليومية.

انتهت محادثتهما حينها، إذ صارت متطلبات الرقصة أكثر إلحاحًا من أن تسمح لهما بتوزيع انتباههما.

بعد فترة وجيزة من تحرُّكهما ليصلا إلى نهاية صف الراقصين، لاحظت كاثرين أنَّ هناك رجلًا واقفًا بين الحضور، خلف شريكها مباشرة، يراقبها بانتباهٍ. كان رجلًا بالغ الوسامة، ذا مظهرٍ مهيبٍ، وقد انقضت زهرة شبابه، إلا أنَّه لم يفقد حيويته. ما لبثت أن شاهدته يبادل السيد تيلني حديثًا هامسًا على نحوٍ يوحي أنهما يعرفان بعضهما، بينما نظره لا يزال موجَّهًا نحوها. ارتبكت من انتباهِه لها، وتضرَّج وجهُها حمرة، خشية أن يكون هناك شيءٌ خاطئٌ في مظهرها قد أثار انتباهه، فأدارت رأسَها.

لكن بينما هي تفعل ذلك، تراجع الرجل إلى الوراء، واقترب شريكها قائلًا:

- أرى أنَّكِ خمنتِ السؤال الذي طُرِح عليَّ للتوِّ. ذلك الرجل يعرف اسمكِ، ومن حقكِ أنتِ معرفة اسمه. إنه الجنرال تيلني، والدي.

كان جواب كاثرين الوحيد هو أن قالت «أوه!»، لكن كلمة «أوه» تلك عبَّرت عن كلِّ ما تحتاج إليه: الانتباه إلى كلامه، والاعتماد التام على صدقه. تتبعت عيناها الجنرال الآن باهتمامٍ حقيقي وإعجابٍ شديدٍ بينما هو يتحرك وسط الحشد، وكان تعليقها السري هو: «كم تتمتع هذه الأسرة بالوسامة!».

تدفَّقت بداخلها السعادة من نبعٍ جديدٍ، عندما تبادلت الحديث مع الآنسة تيلني قبل انقضاء الأمسية. لم يسبق لها وأن تنزَّهت في الريف منذ وصولها إلى باث، وقد تحدَّثت الآنسة تيلني، التي كانت كل المناطق المعتاد زيارتها مألوفة بالنسبة إليها، عن تلك المناطق على نحوٍ أثار حماس كاثرين لرؤيتها هي الأخرى. وعندما عبَّرت كاثرين صراحة عن قلقِها من ألَّا تعثر على شخصٍ بوسعه أن يرافقها، اقترح كلٌّ من الشقيق وشقيقته أن تنضمَّ إليهما للتنزه صباح أحد الأيام. صاحت قائلة:

- سأحب ذلك أكثر من أي شيء في العالم. دعونا لا نؤجل الأمر، فلنذهب غدًا.

اتفقوا على ذلك من دون ترددٍ، لكنَّ الآنسة تيلني اشترطت فقط ألا يكون الجو ممطرًا، وكانت كاثرين على ثقة بأن ذلك لن يحدث. كانا سيمران عليها في شارع بولتيني في الساعة الثانية عشرة. كانت جملتها الأخيرة لوداع صديقتها الجديدة هي: «تذكري، في الثانية عشرة». أمَّا بالنسبة إلى صديقتها الأقدم، إيزابيلا، التي استمتعت بإخلاصها وقربها طوال أسبوعين، فلم ترَها بالكاد طوال الأمسية. ومع ذلك، على الرغم من أنها أرادت إطلاعها على سعادتها، إلا أنها استجابت بسعادة لرغبة السيد ألين، الذي اصطحبهم للعودة إلى المنزل مبكرًا، وكانت روحها ترقص طربًا بداخلها، كما رقصت هي في مقعدها طوال طريق العودة إلى المنزل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 11 -

جاء صباح اليوم التالي غائمًا للغاية، إذ لم تبذل الشمس سوى القليل من الجهد للظهور. توقَّعت كاثرين من ذلك أن تسير الأمور على النحو الذي تتمناه، حيث خمَّنت أنَّ صباح يوم مشرق في مثل ذلك الوقت المبكر من العام سيتحوَّل ليصير ممطرًا على الأرجح، لكن صباحًا غائمًا كان ينبِّئ بتحسُّن مع تقدُّم النهار. توجَّهت للسيد ألين لتأكيد آمالها، لكنه رفض التأكيد بصورة قاطعة ما إذا كانت الشمس سوف تشرق، لأنه لم يكن بحوزته جهازه الخاص بقياس الضغط الجوي. توجَّهت بعدها للسيدة ألين، التي كان رأيُها أكثر إيجابية. لم يساورها أي شك في أنَّ اليوم سيكون صحوًا للغاية، لو أنَّ السحب انقشعت فحسب وأشرقت الشمس.

مع ذلك، ففي قرابة الساعة الحادية عشرة، لفت انتباه كاثرين بضع قطراتٍ صغيرة من المطر على النوافذ، فقالت بنبرة يأسٍ:

- أوه! يا إلهي، أعتقد أنَّ الجو سيكون ممطرًا.

قالت السيدة ألين:

- لقد توقعتُ ذلك.

تنهدت كاثرين قائلة:

- لن أتمكَّن من الذهاب للتنزُّه اليوم. لكن ربما لا يسفر الأمر عن شيء، أو قد يتوقف المطر عن الهطول قبل الثانية عشرة.

- ربما، لكن الطرقات ستكون موحلة للغاية ساعتها يا عزيزتي.

- أوه! لن يهم ذلك. أنا لا أهتم بالوحل أبدًا.

أجابت صديقتها بهدوءٍ شديدٍ:

- لا، أعلم أنكِ لا تكترثين بالوحل على الإطلاق.

قالت كاثرين بعد فترة قصيرة من الصمت، بينما هي واقفة تراقب من النافذة:

- إنه يهطل بغزارة أكثر وأكثر!

- هذا صحيحٌ بالفعل. إذا استمرَّ المطر في الهطول ستصير الشوارع غارقة بالمياه.

- لقد ارتفعت أربع مظلات بالفعل. لكم أكره منظر المظلات!

- من المزعج حملها. أفضِّل كثيرًا الجلوس في أي وقتٍ يهطل فيه المطر.

- كان يبدو صباحًا جميلًا! انتابتني قناعة شديدة أنه سيكون يومًا جافًّا!

- كان أي شخص سيعتقد ذلك بالفعل. سيكون هناك عددٌ قليل للغاية من الأشخاص في قاعة المضخات إذا استمرت الأمطار طوال الصباح. أتمنى أن يرتدي السيد ألين معطفه الطويل عندما يذهب، لكنني أعتقد أنه لن يفعل، فهو يفضِّل القيامَ بأي شيء آخر سوى الخروج بمعطفٍ طويلٍ. أتعجَّب من كونه لا يفضله، إذ لا بُدَّ وأنه مريحٌ للغاية.

استمرَّ هطول المطر سريعًا، وإن لم يكن غزيرًا. ظلَّت كاثرين تتوجَّه نحو الساعة كل خمس دقائق، متوعدة في كل مرة تعود إليها فيها أنه إذا ما استمر المطر في الهطول لخمس دقائق أخرى، فسوف تتخلَّى عن الأمر بوصفه ميؤوسًا منه. دقَّت الساعة الثانية عشرة، والمطر لا يزال مستمرًّا.

- لن تتمكني من الذهاب، يا عزيزتي.

- لم يملأني اليأس تمامًا بعد. لن أفقد الأمل حتى الثانية عشرة والربع. هذا هو الوقت الملائم تمامًا من النهار كي يصفو الجو، وأعتقد بالفعل أنه يبدو أصفى بعض الشيء. ها هي الثانية عشرة والثلث، والآن سأتخلَّى عن الأمل كلية. أوه، لو كنَّا نتمتع هنا بطقسٍ مثل ذلك الذي يتمتعون به في رواية أودولفو، أو على الأقل مثل توسكاني وجنوب فرنسا! تلك الليلة التي مات فيها المسكين سان أوبير! يا له من جوٍّ جميلٍ!

في الثانية عشرة والنصف، عندما انتهى اهتمام كاثرين القلِق بالطقس، وبعد أن لم يعُد بوسعها أن تأمل شيئًا من اعتداله، بدأت السماء تصفو. فاجأها بريق أشعة الشمس، وعندما تلفتت وجدت السحب تنقشع، فعادت إلى النافذة على الفور، لتتابع وتشجع ذلك المشهد المبهج. بعد عشر دقائق أخرى، صار من المؤكد أن ظهيرة ذلك اليوم سوف تكون مشرقة، وتأكد رأي السيدة ألين، التي قالت إنها اعتقدت منذ البداية أن الجو سيصفو. لكن كان السؤال لا يزال قائمًا بخصوص ما إذا كان على كاثرين توقُّع قدوم أصدقائها، وما إذا كانت الأمطار أقل من أن تمنع الآنسة تيلني من الخروج.

كانت الطرقات موحلة بدرجة لم تستطع معها السيدة ألين مرافقة زوجها إلى قاعة المضخات، لذا ذهب هو بمفردِه. ما إن شاهدته كاثرين وهو يصل لنهاية الطريق، حتى جذب انتباهها اقتراب العربتين المفتوحتين أنفسهما وبهما الأشخاص الثلاث أنفسهم الذين فاجؤوها كثيرًا منذ عدة أيام مضت.

- ها هي إيزابيلا، وشقيقي، والسيد ثورب! ربما أتوا لاصطحابي، لكنني لن أذهب. بل لا يمكنني الذهاب بالفعل، حيث إنكِ تعلمين أن الآنسة تيلني ربما تأتي رغم كل شيء.

وافقتها السيدة ألين على ذلك. ما لبث جون ثورب أن انضمَّ إليهما، وكان صوته قد سبقه في الانضمام إليهما، حيث صاح مناديًا وهو يصعد الدرج، طالبًا من الآنسة مورلاند أن تسرع. قال وهو يفتح الباب:

- أسرعي! أسرعي! ارتدي قبعتكِ في الحال، ليس لدينا وقتٌ لنضيعه. سوف نذهب إلى بريستول. كيف حالكِ يا سيدة ألين؟

- إلى بريستول؟ أليست تلك مسافة بعيدة للغاية؟ لكن مع ذلك، لا يمكنني مرافقتكم اليوم، لأنني مرتبطة، وأتوقَّع وصول بعض الأصدقاء في أي لحظة.

بالطبع، هوَّن بشدة من أمر حديثها ذاك كأنه سببٌ لا يُعتد به على الإطلاق، وطلب التأييد من السيدة ألين، عندما دخل الآخران ليقدِّما له العون.

- يا عزيزتي كاثرين، أليس هذا أمرًا رائعًا؟ سنتمتع بنزهة مبهجة. عليكِ أن تشكرينا أنا وأخاكِ للتفكير في هذه الخطة. لقد طرأت على ذهننا وقت الإفطار، في نفس اللحظة على ما أعتقد. وكنَّا سننطلق منذ ساعتين لولا هذه الأمطار الكريهة. لكن هذا لا يهم، فالليلة مقمرة، وسيكون كلُّ شيء رائعًا. أوه! كم تغمرني السعادة للتفكير في الهواء الريفي والهدوء! ذلك أفضل كثيرًا من الذهاب لقاعة الحفلات الجنوبية. سنتوجه مباشرة إلى كليفتون، ونتناول الغداء هناك. وما إن ينتهي الغداء، وإذا سمح الوقت بذلك، سنذهب إلى كينجزويستون.

قال مورلاند:

- أشك أننا سنتمكن من القيام بكل ذلك.

صاح ثورب قائلًا:

- يا لكَ من كئيبٍ! بل سنتمكَّن من القيام بأكثر من عشرة أضعاف ذلك! كينجزويستون! أجل، وقلعة بليز أيضًا، وأي شيء آخر نسمع عنه. لكن ها هي شقيقتك تقول إنها لن تذهب.

صاحت كاثرين:

- قلعة بليز! ماذا يكون ذلك؟

- أروع مكان في إنجلترا، ويستحق أن يقطع المرء من أجله خمسين ميلًا في أي وقتٍ لرؤيته.

- هل هي قلعة حقًّا؟ قلعة قديمة؟

- أقدم قلعة في المملكة.

- لكن هل تشبه تلك التي يقرأ عنها المرء في الكتب؟

- بالضبط. تشبهها تمامًا.

- لكن حقًّا، هل هناك أبراج وسراديب طويلة؟

- بالعشرات.

- أتمنى رؤيتها إذن، لكنني لا أستطيع. لا يمكنني الذهاب.

- لا يمكنكِ الذهاب! يا عزيزتي، ما الذي تعنينه؟

خفضت نظرها للأسفل بينما هي تتحدث، وهي تخشى ابتسامة إيزابيلا، وقالت:

- لا يمكنني الذهاب، لأنني أتوقع حضور الآنسة تيلني وشقيقها لاصطحابي للتنزه في الريف. لقد وعدا بالمجيء في الساعة الثانية عشرة، إلَّا أنَّ الأمطار هطلت. لكن بما أن الجو بات صافيًا الآن، فأعتقد أنهما سيصلان قريبًا.

صاح ثورب:

- لا، لن يحضرا حقًّا. إذ إنني شاهدتهما عندما انعطفنا إلى شارع برود. ألا يقود عربة مفتوحة ذات أربع عجلات، يجرها خيولٌ كستنائية لامعة؟

- لا أعرف حقًّا.

- أجل، أنا متأكد من ذلك، لقد رأيته. أنتِ تتحدثين عن الرجل الذي رقصتِ معه الليلة الماضية، أليس كذلك؟

- بلى.

- حسنًا، لقد رأيته في تلك اللحظة وهو ينعطف في شارع لانسداون، وبرفقته فتاة أنيقة المظهر.

- أحقًّا فعلت؟

- أقسم بحياتي. لقد تعرفت عليه على الفور. وبدا أنَّ لديه خيولًا جميلة أيضًا.

- هذا غريبٌ للغاية! لكن أعتقدُ أنَّهما ظنَّا أنَّ الطرق ستكون موحلة بدرجة أكبر من أن تسمح بالمشي.

- وهما محقَّان في ذلك، فلم يسبق وأن رأيتُ كلَّ هذا القدر من الوحل في حياتي من قبل. المشي! لن تستطيعي المشي أكثر مما تستطيعين الطيران! لم تمتلئ الطرقات بكلِّ هذا القدر من الأوحال طوال الشتاء. عمقها يصل حتى الكاحل في كل مكانٍ.

أيدته إيزابيلا قائلة:

- يا عزيزتي كاثرين، ليست لديكِ أي فكرة عن غزارة الأوحال. عليكِ الذهاب. لا يمكنكِ رفض الذهاب الآن.

- أود رؤية القلعة، لكن هل يمكننا التجول في جميع أرجائها؟ هل يمكننا صعود كل درجٍ، ودخول كل جناحٍ؟

- أجل، أجل. كل ركنٍ وزاوية.

- لكن، ماذا لو أنهما غابا لساعة فحسب حتى تجف الطرقات، ثم حضرا بعد فترة من الوقت؟

- فلتهدئي بالًا، إذ إنه لا يوجد احتمالٌ لحدوث ذلك. لقد سمعتُ تيلني ينادي لرجلٍ يمرُّ على ظهر حصان، قائلًا له إنهما سيذهبان حتى صخور ويك.

- سأفعل إذن. هل أذهب، يا سيدة ألين؟

- كما يحلو لكِ، يا عزيزتي.

تصايح الجميع قائلين:

- عليكِ إقناعها بالذهاب، يا سيدة ألين.

لم تتغافل السيدة ألين عن طلبهم هذا، وقالت:

- حسنًا يا عزيزتي، أعتقد أنَّ عليكِ الذهاب.

فانطلقوا خلال دقيقتين.

كانت مشاعر كاثرين مضطربة للغاية وهي تركب العربة، ممزَّقة بين الندم لضياع متعة كبيرة، والأمل في متعة أخرى قريبًا، تكاد تضاهيها في القدر رغم اختلاف طبيعتها تمامًا. لم تعتقد أنَّ آل تيلني تصرفا معها بشكلٍ لائقٍ، بالتخلي عن ارتباطهم بهذه السهولة من دون إرسال أي رسالة اعتذار إليها. تأخَّر الوقت ساعة فحسب عن الموعد المتفق عليه لبداية نزهتهم، وعلى الرغم مما سمعته عن التراكم الهائل للأوحال خلال تلك الساعة، إلَّا أنَّها لم يسعها سوى الاعتقاد من خلال ما شاهدته بنفسها أنهم كانوا سيتمكنون من الذهاب من دون كثيرٍ من الإزعاج. كان شعورها باستهانتهما بها مؤلمًا للغاية. ومن جانبٍ آخر، فإنَّ متعة استكشاف صرحٍ مثل ذلك المذكور في أودولفو، كما صوَّر لها خيالها قلعة بليز، مثَّلت نقطة إيجابية توازن تلك الأخرى، بدرجة قد تواسيها عن أي شيء آخر تقريبًا.

مرَّا سريعًا بشارع بولتيني، وعبر لورابليس، من دون تبادل الكثير من الكلمات. تحدَّث ثورب إلى حصانه، بينما انشغلت هي في التفكير على نحوٍ متبادل في الوعود التي أُخلفت، والقناطر المحطمة، والعربات المفتوحة ذات الأربع عجلات، وعمليات الشنق الزائفة، وآل تيلني، والأبواب السرية. (10) لكنها استفاقت من الاستغراق في أفكارها عند دخولهما لشارع أرجايل، عندما حادثها رفيقها قائلًا:

- من تلك الفتاة التي تأملتكِ بشدة عند مرورها؟

- من؟ أين؟

- على الرصيف جهة اليمين. لا بُدَّ وأنها صارت بعيدة عن الأنظار الآن.

نظرت كاثرين إلى الوراء، ورأت الآنسة تيلني مستندة على ذراع شقيقها، وهي تسير ببطءٍ عبر الطريق. شاهدتهما وهما يبادلانها النظر. صاحت بنفاد صبرٍ قائلة:

- توقَّف، توقَّف يا سيد ثورب. إنها الآنسة تيلني. إنها هي بالفعل. كيف أمكنك إخباري بأنهما رحلا؟ توقف، توقف، سأترجَّل في الحال وأذهب إليهما.

لكن ما جدوى حديثها ذاك؟ فقد ضرب ثورب حصانه بالسوط فحسب ليحثَّه على السير بسرعة أكبر، وما لبث آل تيلني أن توقَّفا عن النظر نحوها، وغابا عن البصر بعد لحظة خلف منعطفٍ في لورابليس. وبعد لحظة أخرى، انتقلت هي نفسها سريعًا إلى السوق. ومع ذلك، ظلَّت طوال شارع آخر تترجَّاه أن يتوقف.

- أرجوكَ، أرجوكَ توقَّف، يا سيد ثورب. لا يمكنني الاستمرار. لن أواصل الطريق. عليَّ العودة إلى الآنسة تيلني.

لكن السيد ثورب ضحك فحسب، وفرقع سوطَه مستحثًّا حصانه، وأصدر بعض الأصوات الغريبة، وواصل الطريق. أحسَّت كاثرين بالغضب والضيق، وحيث إنها لم تكن لديها القدرة على الفرار، فقد

اضطرَّت إلى التخلي عن مطلبِها ذاك والاستسلام. ومع ذلك، فلم يسلم ثورب من لومِها.

- كيف يمكنكَ خداعي على هذا النحو، يا سيد ثورب؟ كيف أمكنكَ القول إنكِ رأيتهما يقطعان طريق لانسداون بالعربةِ؟ لم أكن أود حدوث هذا على الإطلاق. لا شكَّ في أنَّهما يعتقدان أنَّ الأمرَ بالغ الغرابة، وأنني فظَّة للغاية! وأن أمر بجوارهما، فوق ذلك، من دون النطق ولو بكلمة! أنت لا تدرك مدى انزعاجي. لن أجد أي متعة في كليفتون، ولا في أي شيء آخر. أفضِّل ألف مرة أن أترجَّل الآن وأسير عائدة إليهما. كيف أمكنكَ القول إنكَ شاهدتهما في عربة مفتوحة ذات أربع عجلات؟

دافع ثورب عن نفسه بشدة، قائلًا إنه لم يسبق وأن رأى في حياته من قبل رجلين أكثر شبهًا بعضهما ببعض، ولم يكد يتخلى عن إصراره بأنه كان تيلني نفسه.

حتى بعد الانتهاء من هذا الموضوع، لم يكن من المرجح أن تكون نزهتهما ممتعة. لم تعُد كاثرين حريصة على الكياسة، كما كانت في نزهتهما السابقة. استمعت له على مضضٍ، وأجابت بردودٍ مقتضبة. ظلَّت قلعة بليز عزاءها الوحيد، وبقيت تتطلَّع إلى ذلك بتشوقٍ بين حينٍ وآخر. على الرغم من ذلك، كانت على استعداد للتخلي عن كل المتعة التي يمكنها نيلها بين جدران القلعة، بدلًا من خيبة الأمل لحرمانها من النزهة الموعودة، وخاصة بدلًا من أن يظن بها آل تيلني السوء: متعة السير داخل جناحٍ ممتدٍّ من الغرف ذات الأسقف المرتفعة، معروض بها بقايا أثاثٍ رائع، على الرغم من كونها مهجورة منذ سنواتٍ عديدة، ومتعة التوقُّف خلال سيرهم عبر أقبية طويلة متعرجة، أمام بابٍ منخفض الارتفاع تسدُّه القضبان، أو حتى انطفاء مصباحهم الوحيد بفعل هبوب ريح مفاجئة، مخلفًا إياهم في ظلامٍ دامسٍ. في تلك الأثناء، مضيا قدمًا في طريقهما من دون أي حادث، وصارا على مرمى البصر من بلدة كينشام، عندما استوقف مورلاند صديقَه بصيحة، إذ كان خلفهما، فتوقَّف ذلك الأخير لاستجلاء الأمر. اقترب الآخران بما يكفي لتبادل الحديث، وقال مورلاند:

- من الأفضل أن نعود، يا ثورب. لقد فات أوان الذهاب اليوم، وشقيقتك تؤيدني في الرأي أيضًا؛ لقد مرَّت ساعة بالضبط منذ غادرنا شارع بولتيني، وهي مسافة تزيد قليلًا عن سبعة أميال، وأعتقد أنه تبقَّى أمامنا ما لا يقل عن ثمانية أميالٍ؛ لن ينجح الأمر أبدًا. لقد خرجنا في وقتٍ متأخرٍ للغاية. من الأفضل كثيرًا التأجيل حتى يوم آخر، والعودة الآن.

أجابه ثورب بغضبٍ:

- الأمر سيان بالنسبة إليَّ.

ثم أدار حصانه على الفور، وعادوا في طريقهم إلى باث.

قال بعد ذلك بفترة قصيرة:

- لو لم يكن شقيقكِ يقود مثل ذلك الحصان اللعين، لكنَّا أبلينا بلاءً حسنًا. كان بوسع حصاني الإسراع إلى كليفتون في غضون ساعة، لو تُرك له العنان. وكدتُ أنا أكسر ذراعي محاولًا كبح جماحه ليساير خطوة ذلك الحصان اللعين المُنهك. إنَّ مورلاند أحمق لكونه لا يمتلك حصانًا وعربة خاصة به.

قالت كاثرين بحرارة:

- لا، إنّه ليس كذلك. فأنا واثقة من أنّه لا يستطيع تحمُّل تكاليف الأمر.

- ولمَ لا يستطيع تحمل تكاليف ذلك؟

- لأنَّه ليس لديه ما يكفي من المال.

- ومن المسؤول عن ذلك الخطأ؟

- لا أحد، على حد علمي.

بعدها تفوَّه ثورب بشيءٍ ما، بتلك الطريقة الصاخبة غير المترابطة التي كثيرًا ما كان يلجأ إليها، وقال شيئًا ما عن أنَّ البخلَ أمرٌ لعينٌ، وإذا لم يكن بوسع الأشخاص المثقلين بالمال تحمُّل تكلفة الأشياء، فلم يكن يعرف من بوسعه ذلك إذن. ولم تحاول كاثرين حتى أن تفهم ما يقوله. عندما خاب أملُها فيما كان من المفترض أن يشكِّل عزاءها بعد خيبة أملها الأولى، صارت أقلَّ استعدادًا للتصرُّف بلطفٍ، أو لمحاولة النظر لرفيقِها بوصفه شخصًا لطيفًا. وعادا إلى شارع بولتيني من دون أن تتفوه ولو بعشرين كلمة.

عند دخولها إلى المنزل، أخبرها الخادم أنَّ رجلًا وامرأة قد حضرا للسؤال عنها بعد رحيلِها بدقائق، وأنَّه عندما أخبرهما بخروجها برفقة السيد ثورب، سألت السيدة ما إذا كانت كاثرين قد تركت أي رسالة لها. وعندما أجابها بالنفي، بحثت السيدة عن بطاقة، لكنها قالت إنه ليست لديها واحدة بحوزتها، ثم رحلت. صعدت كاثرين الدرج ببطءٍ، وهي منشغلة بالتفكير في تلك الأنباء التي تدمي القلب. التقاها السيد ألين عند قمة الدرج، وعند سماع سبب عودتهم السريعة قال:

- أنا سعيدٌ لأنَّ أخاكِ تمتَّع بذلك القدر من حسن التقدير، وسعيدٌ لعودتكِ. كانت خطة غريبة جامحة.

قضى الجميع الأمسية معًا لدى آل ثورب. كانت كاثرين منزعجة، وروحها المعنوية متدنية. لكن إيزابيلا بدت كأنَّها تجد قدرًا من المتعة في مشاركة مورلاند لعب الورق، يضاهي بدرجة كبيرة متعة الهدوء والهواء الريفي في نزل في كليفتون. كما عبَّرت أيضًا، أكثر من مرة، عن سعادتها لعدم تواجدها في قاعة الحفلات الجنوبية.

- كم أشفق على أولئك المساكين ممن سيذهبون هناك! وكم أنا سعيدة لأنني لستُ بينهم! أتساءل ما إذا كان الحفل الراقص سيكون مزدحمًا أم لا. لم يبدؤوا الرقصَ بعد. لن أذهب ولو مقابل كنوز العالم بأكملِه. إن لمن دواعي السرور، أن يقضي المرء أمسية مع نفسِه، بين حينٍ وآخر. أعتقد أنه لن يكون حفلًا راقصًا جيدًا. أعلم أن آل ميتشيل لن يكونوا هناك. وأنا بالتأكيد أشفق على كل الحضور. لكنني أظن، يا سيد مورلاند، أنكَ تتوق للذهاب، أليس كذلك؟ أنا متأكدة أنكَ تريد ذلك. حسنًا، أرجو ألا تسمح لأي شخص هنا بتقييد حريتك. يمكنني القول بأننا سنكون على ما يرام من دونكَ. لكنكم يا معشر الرجال تضفون على أنفسكم أهمية فائقة.

كادت كاثرين تتهم إيزابيلا بالافتقار لرقة الشعور حيالها وحيال أحزانها، إذ بدا أنَّ الأمر شغل أقل القليل من تفكيرها، وكان ما قدمته لها من العزاء قاصرًا للغاية.

همست إيزابيلا قائلة:

- لا تحزني على هذا النحو، يا عزيزتي. ستحطمين قلبي. كان الأمر صادمًا بشدة، بكل تأكيدٍ. لكن اللوم بالكامل يقع على آل تيلني. لِمَ لم يتحروا الدقة في المواعيد بدرجة أكبر؟ كانت الطرقات موحلة حقًّا، لكن ما أهمية ذلك؟ أنا متأكدة أننا لم نكن لنمانع، أنا وجون. أنا لا أمانع أي شيء، عندما يتعلَّق الأمر بصديقٍ. هذه هي طبيعتي، وجون مثلي تمامًا. إنَّه حساسٌ للغاية على نحوٍ مدهشٍ. يا إلهي! يا لها من مجموعة أوراق لعب رائعة، تلك التي بحوزتكِ! الملك، يا إلهي! لم أكن أكثر سعادة من قبل في حياتي! أفضلُ أن تحوزيها أنتِ أكثر خمسين مرة مما أتمنى حيازتها أنا.

والآن، يمكنني صرف بطلتي للتوجُّه إلى فراش الأرق، الذي هو نصيب البطلة الحقة، إلى وسادة تناثرت عليها الأشواك وبللتها الدموع. وقد تعدُّ نفسها محظوظة، إذا استطاعت نيل ليلة واحدة من الراحة خلال الأشهر الثلاثة المقبلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 12 -

قالت كاثرين في صباح اليوم التالي:

- يا سيدة ألين، هل هناك أي ضررٍ في زيارتي للآنسة تيلني اليوم؟ لن أرتاح حتى أوضح كلَّ شيء.

- فلتذهبي يا عزيزتي، لكن ارتدي ثوبًا أبيض اللون. دومًا ما ترتدي الآنسة تيلني اللون الأبيض.

امتثلت لها كاثرين بسعادة، وبعد الاستعداد على نحوٍ لائقٍ، صارت متشوقة أكثر من أي وقتٍ مضى للذهاب إلى قاعة المضخات، حتى تتأكد من عنوان سكن الجنرال تيلني. فعلى الرغم من اعتقادها أنهم في شارع ميلسوم، إلا أنها لم تكن متأكدة من المنزل، وقد زادت السيدة ألين تشكُّكها في الأمر بفعل ترددها. توجَّهت إلى شارع ميلسوم، وبعد التأكد من رقم المنزل، أسرعت بخطى متحمسة ودقات قلبها متسارعة، للقيام بالزيارة وتوضيح موقفها، حتى تحظى بالصفح. عبرت ساحة الكنيسة بخطى حذرة، وأشاحت بعينيها بعزم، كي لا تضطر إلى رؤية عزيزتها إيزابيلا وأسرتها، إذ كان لديها من الأسباب ما يدفعها للاعتقاد ٍبوجودهم في متجرٍ مجاورٍ. وصلت إلى المنزل من دون أي عائقٍ، ونظرت إلى الرقم ثم طرقت الباب، وسألت عنٍ الآنسة تيلني. كان الخادم يعتقد أن الآنسة تيلني في المنزل، إلَّا أنَّه لم يكن متأكدًا من ذلك. سأل ما إذا كانت ترغب في الإبلاغ باسمِها، فمنحته بطاقتها. عاد الخادم بعد بضع دقائق، وبنظرة لم تؤكد كلماته تمامًا، قال إنه أخطأ، حيث إن الآنسة تيلني خرجت. تخضَّب وجه كاثرين بالحمرة بفعل الحرج، وغادرت المنزل. كادت تقتنع أن الآنسة تيلني موجودة في المنزل، ورفضت استقبالَها لشعورِها البالغ بالإهانة. وبينما هي تسير عائدة عبر الطريق، لم تستطع منع نفسها من الإلقاء بنظرة نحو نوافذ غرفة الاستقبال، وهي تتوقع رؤيتها هناك، لكن لم يظهر أحدٌ في النافذة. إلَّا أنَّها نظرت للخلف مرة أخرى عند وصولها لنهاية الطريق، فرأت الآنسة تيلني نفسها، ليس عند النافذة، بل وهي تخرج من الباب. تبعها رجلٌ خمَّنت كاثرين أنه والدها، وانعطفا باتجاه بناية إدجار. مضتْ كاثرين في طريقِها، يغمرها شعورٌ فائقٌ بالإهانة. كادت تشعر بالغضب لمثل ذلك التصرف الفظ، لكنها كبحت إحساسها بالحنق، بعد أن تذكرت جهلها. إذ لم تكن تعلم كيف تُصنف جريمة مثل تلك التي اقترفتها هي، في أعراف الأوساط الاجتماعية الراقية، وإلى أي مدى يمكن عدم التسامح معها من دون تجاوز حدود اللياقة، ولا تعرف لأي درجة تستحق أن تُعامَل بفظاظة بسبب تصرفها ذاك.

أحسَّت بالاكتئاب والإهانة، لدرجة أنَّها فكرت في عدم الذهاب برفقة الآخرين إلى المسرح في ذلك المساء، لكن لا بُدَّ من الاعتراف بأن أفكارها تلك لم تدم طويلًا، إذ سرعان ما تذكرت أنها أولًا، ليس لديها أي عذرٍ للبقاء في المنزل، وثانيًا، أنها كانت ترغب بشدة في مشاهدة تلك المسرحية. وهكذا توجَّهوا جميعًا إلى المسرح. لم يظهر أيٌّ من آل تيلني لإثارة ضيقها أو سعادتها. كانت تخشى أنَّ الولع بالمسرح لم يكن من بين المزايا العديدة لتلك الأسرة. لكن ربما كان ذلك بسبب اعتيادهم العروض الأرقى على مسارح لندن، التي كانت تعلم بناء على خبرة إيزابيلا، أنها تجعل كلَّ ما سواها يبدو مروعًا للغاية. لكن لم تُخِب توقعاتها هي بالشعور بالمتعة، حيث خفَّفت الكوميديا من همومِها، لدرجة أنَّه لم يكن من الممكن لأي شخصٍ يراقبها خلال الفصول الأربعة الأولى توقُّع أنَّها تعاني من أي

إحساسٍ بالبؤس. ومع ذلك، عند بداية الفصل الخامس، عاد إليها القلق والضيق عندما رأت فجأة السيد هنري تيلني ووالده ينضمَّان إلى مجموعة من الناس في المقصورة المقابلة. لم يعد بوسع المسرح أن يثير في نفسها السعادة الحقيقية، ولم يعد يحوز انتباهها الكامل. بين كل نظرة وأخرى في المتوسط، كانت توجِّه بصرَها نحو المقصورة المقابلة، وطوال مشهدين كاملين، راقبت هنري تيلني على هذا النحو من دون النجاح في لفت انتباهه ولو مرة واحدة. لم يعد من الممكن اتهامه بعدم الاهتمام بالمسرح؛ لم يبعد نظره عن خشبة المسرح على الإطلاق طوال مدة المشهدين. إلَّا أنَّه التفتَ نحوها في النهاية، وانحنى. لكن يا لها من انحناءة! لم تصاحبها ابتسامة، ولم يطل الاهتمام بها، إذ سرعان ما عادت عيناه لاتجاههما السابق. أحسَّت كاثرين بالبؤس بلا هوادة، حتى كادت تهرع للمقصورة التي يجلس بها، وتجبره على سماع توضيحها. تملَّكتها مشاعر طبيعية، أكثر منها بطولية، فبدلًا من اعتبار كرامتها تعرَّضت للإهانة بسبب هذه الإدانة القاطعة، وبدلًا من العزم بكبرياءٍ وسذاجة على إظهار الاستياء حيال ذلك الذي ساورته الشكوك تجاهها، وأن تترك له عناءَ البحث عن تفسير، وألَّا توضِّح له شيئًا مما مضى سوى بتفادي نظراته أو بمغازلة شخص آخر، فقد أخذت على عاتقها تحمل كل الخزي الناتج عن إساءة السلوك، أو على الأقل إظهار تحمُّله، وحرصت على الحصول على فرصة فحسب لتفسير السبب وراء ذلك السلوك.

انتهت المسرحية، وأُنزل الستار، ولم يعُد بوسعها رؤية هنري تيلني في المكان الذي كان جالسًا فيه من قبل، لكن والده بقي مكانه. لذا كان من المحتمل أنَّه قادمٌ في طريقه الآن إلى مقصورتهم. كانت محقة، حيث ظهر في غضون بضع دقائق، وشقَّ طريقَه بين الصفوف التي أخذ يخفُّ ازدحامُها تدريجيًّا ساعتها، وتحدث بأدبٍ وهدوءٍ مع السيدة ألين وصديقتها. إلا أنَّ تلك الأخيرة لم تُجبه بهدوءٍ مماثلٍ.

- أوه! يا سيد تيلني، لقد كنتُ أرغب بشدة في الحديث إليكَ، لتقديم اعتذاري. لا بُدَّ وأنَّكَ ظننتني بالغة الفظاظة، لكن في الواقع فلم يكن ذلك خطئي، أليس كذلك يا سيدة ألين؟ ألم يخبراني أن السيد تيلني وشقيقته خرجا معًا في عربة مفتوحة لها أربع عجلات؟ وما الذي كان بوسعي فعله؟ لكنني كنتُ أفضِّل ألفَ مرة أن أكون بصحبتكما، أليس كذلك يا سيدة ألين؟

كان الرد الوحيد من السيدة ألين هو:

- يا عزيزتي، إنَّك تفسدين ثوبي.

ومع ذلك، فلم يتعرض تأكيدها المنفرد هذا للتجاهل، بل جلب لوجهه ابتسامة ودية وطبيعية بدرجة أكبر، وأجاب بنبرة تبقَّى بها القليل فحسب من التحفُّظ المصطنع. قال:

- لقد شعرنا بالامتنان لكِ، على أي حال، لأنكِ تمنيتِ لنا نزهة ممتعة بعد مروركِ بنا في شارع أرجيل. كان لطفًا بالغًا منكِ أن تتعمَّدي الالتفات نحونا.

- لكنني في الواقع لم أتمنَّ لكما نزهة ممتعة، ولم أفكر في ذلك على الإطلاق. بل توسَّلتُ بحرارة للسيد ثورب كي يتوقف، وناديته مطالبة بذلك ما أن رأيتكما. يا سيدة ألين، ألم... أوه! أنتِ لم تكوني

موجودة هناك، لكنني حقًا فعلت. ولو كان السيد ثورب قد توقف فحسب، لكنت قفزت خارجة وركضت خلفكما.

هل يوجد أي شخص في العالم يدعى هنري، يمكنه ألا يتأثر بمثل ذلك الإعلان؟ لم يكن هنري تيلني، على الأقل، كذلك. بابتسامة أكثر عذوبة، قال كل ما يحتاج إلى قوله بخصوص ندم شقيقته وأسفها وثقتها في حسن نوايا كاثرين.

صاحت كاثرين قائلة:

- أوه! لا تقل إن الآنسة تيلني لم تشعر بالغضب. لأنني أعلم أنها كذلك بالفعل، إذ رفضت استقبالي صباح اليوم عند ذهابي لزيارتها. وقد رأيتها خارجة من المنزل بعد رحيلي مباشرة. لقد تأذيتُ، لكنني لم أشعر بالإهانة. ربما لم يبلغك أنني كنتُ هناك.

- لم أكن موجودًا ساعتها، لكنني سمعتُ بالأمر من إليانور، وهي ترغب في رؤيتكِ منذ ذلك الحين لتوضح لكِ السبب وراء تلك الفظاظة. لكن ربما بوسعي أنا توضيح الأمر. لم يزد الأمر عن كون والدي... كانا قد استعدَّا للخروج للتوِّ، وحيث إنه كان في عجلة من أمره، ولم يرغب في تأجيل الأمر، فقد طلب إنكار وجودها. أؤكد لكِ، هذا هو كل ما في الموضوع. لقد أحسَّتْ بانزعاجٍ شديدٍ، وأرادت الاعتذار لكِ بأسرع ما يمكن.

هدأ بال كاثرين كثيرًا لهذه المعلومات، ومع ذلك تبقَّى لديها بعضُ القلق، نبع منه سؤالها التالي الذي كان بريئًا في حد ذاته، على الرغم من أنه أحزن الرجل إلى حدٍّ ما.

- لكن يا سيد تيلني، لِمَ بدوت أنت أقلَّ كرمًا من شقيقتكَ؟ إذا كانت هي واثقة لهذا الحدِّ من حسن نواياي، وافترضتْ أنَّ الأمر برمته مجرد خطأ فحسب، فلمَ شعرتَ أنتَ بالاستياء بسهولة على هذا النحو؟

- أنا! أشعر بالاستياء!

- لا، أنا متأكدة من مظهركَ أنكَ كنتَ غاضبًا عندما أتيتَ لهذه المقصورة.

- أنا غاضبٌ! لا يمكن أن يكون لي الحق في ذلك.

- حسنًا، لم يكن أي شخص يرى وجهكَ ليعتقد أنه لا حق لديك في ذلك.

أجابها بأن طلب منها الإفساح له، ثم جلس لتبادل الحديث حول المسرحية.

بقي برفقتهما لبعض الوقت، وكان لطيفًا بدرجة أحسَّت معها كاثرين بالرضا حتى رحل. لكن قبل أن يفترقا، اتفقا على القيامِ بالنزهة المتوقعة في أقرب فرصة ممكنة. وبغض النظر عن تعاستِها لرحيله عن المقصورة، فقد خلَّفها وهي تشعر بصفة عامة كأنَّها واحدة من أسعد المخلوقات في العالم.

بينما هما يتبادلان الحديث، كانت قد لاحظت بشيءٍ من الدهشة أنَّ جون ثورب، الذي لم يكن يبقى في نفس المكان في المسرح لمدة تزيد عن عشر دقائق، كان منخرطًا في الحديث مع الجنرال تيلني. وأحسَّت بما هو أكثر من المفاجأة، عندما ساورها الشعور بكونها محور انتباهما وحديثهما. ما الذي

يمكن أن يكون لديهما ليقولانه عنها؟ خشيت أن يكون الجنرال تيلني غير راضٍ عن مظهرِها، واعتقدتْ أنه عبَّر عن ذلك ضمنيًّا من خلال منع ابنته من استقبالها، بدلًا من تأجيل نزهته لبضع دقائق.

سألت رفيقَها بقلقٍ وهي تشير له نحوهما:

- كيف تسنى للسيد ثورب معرفة والدكَ؟

لم يكن يعلم شيئًا عن الأمر، إلَّا أنَّ والده، مثله مثل أي رجلٍ عسكري، كانت له دائرة واسعة جدًّا من المعارف.

بنهاية فقرة الترفيه في تلك الأمسية، أتى ثورب ليعاونهما على الخروج. كانت كاثرين هي الهدف المباشر لكياسته، وبينما هم في الردهة بانتظار محفة، منعها من التفوُّه بالسؤال الذي كاد ينتقل من أعماق قلبها لطرف لسانها، بأن سألها بطريقة توحي بالأهمية، ما إذا كانت شاهدته وهو يتبادل الحديث مع الجنرال تيلني.

- أقسم بحياتي إنه عجوزٌ رائعٌ! فهو يتمتع بالقوة والنشاط، ويبدو شابًّا مثل ابنه. أكنُّ له الكثيرَ من الاحترام. أؤكد لكِ أنه من أنبل وألطف الرجال على الإطلاق.

- لكن كيف تعرَّفتَ عليه؟

- تعرَّفتُ عليه! لا يوجد سوى القليل من الناس الذين لا أعرفهم في لندن. لقد التقيته كثيرًا في مقهى بيدفورد بلندن، وتعرَّفت على ملامحه اليوم ما إن دخل غرفة لعب البلياردو. إنه واحدٌ من أفضل اللاعبين. وبعد فترة من الوقت، لعبنا مباراة معًا، على الرغم من أنني كدتُ أخشاه في بادئ الأمر. كانت احتمالات الفوز ضدي بنسبة خمسة إلى أربعة. ولو لم أقم بضربةٍ قد تكون واحدة من أنظف الضربات التي جرت في هذا العالم على الإطلاق... لقد أصبتُ كرته بكلِّ دقة. لا أستطيع الشرح لكِ من دون طاولة، إلَّا أنني هزمته. إنَّه رجلٌ رائعٌ للغاية، وثريٌّ كاليهود. أتمنى تناول الغداء معه. يسعني القول بأنه يقيم مآدب رائعة. لكن ما الذي تظنين أننا كنَّا نتبادل الحديث عنه؟ أنتِ. أجل، أقسم بالسماء! يعتقد الجنرال أنكِ أجمل فتاة في باث.

- أوه! هُراء! كيف تستطيع قول ذلك؟

- وما الذي تعتقدين أنني قلته؟

خفض صوته وواصل قائلًا:

- أحسنتَ، يا جنرال. أنا أوافقكَ الرأي تمامًا.

لم تسعد كاثرين بإعجابه كما سعدت بإعجاب الجنرال تيلني، ولم تأسف عندما ناداها السيد ألين للرحيل. مع ذلك، رافقها ثورب حتى استقلَّت محفتها، مواصلًا إطراءه الرقيق ذاك، على الرغم من أنها رجته أن يكف عن ذلك.

ابتهجت بشدة لأنّ الجنرال تيلني أبدى الإعجاب بها، عوضًا عن أن يكرهها. وفكرت بسعادة أنه لم يعُد عليها الخوف من لقاء أي فردٍ من أفراد الأسرة. حققت لها تلك الأمسية أكثر مما كان متوقعًا بكثيرٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 13 -

ها هي أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت قد مرَّت أمام القارئ، وفُصلت على حدة أحداث كل يوم، وآماله ومخاوفه، وأحزانه ومتعه، ولم يبقَ الآن سوى وصف آلام يوم الأحد، ونهاية الأسبوع. كانت خطة الذهاب إلى كليفتون قد تأجَّلت، ولم تُلغَ تمامًا. وفي مساء هذا اليوم عند بناية الهلال، أثير الموضوع مرة ثانية. في نقاشٍ خاص بين إيزابيلا وجيمز، كانت تلك الأولى تتوق بشدة للذهاب، وذلك الأخير لا يقل عنها تشوقاً لإسعادها، فاتفقا أنه في حال ما إذا كان الجو صحوًا، فسوف يذهبوا للتنزُّه صباح اليوم التالي. كان عليهم الانطلاق في وقتٍ مبكرٍ للغاية، كي يتمكَّنوا من العودة إلى المنزل في وقتٍ مناسبٍ.

هكذا تم الاتفاق على الأمر والحصول على تأييد ثورب، ولم يتبقَ سوى إخبار كاثرين فحسب. كانت قد تركتهم لبضع دقائق لتبادل الحديث مع الآنسة تيلني، وفي خلال ذلك الفاصل، اكتملت الخطة. بمجرد عودتها مرة أخرى، طلبوا موافقتها. لكن بدلًا من الموافقة المرحة التي توقعتها إيزابيلا، بدت الجدية على كاثرين التي اعتذرت بأنها لن تستطيع الذهاب، حيث إن ذلك الارتباط الذي كان من المفترض أن يمنعها من الانضمام إليهم في المحاولة السابقة سيجعل مرافقتها لهم الآن مستحيلة. كانت قد اتفقت مع الآنسة تيلني في تلك اللحظة على الذهاب لتمشيتهما الموعودة في الغد، وقد تحدَّد الموعد تمامًا، ولن تتراجع عنه بأي حالٍ من الأحوال. لكن كلا آل ثورب صاحا بحماسٍ على الفور، وطالباها بالتراجع عن الأمر. يجب أن يذهبوا إلى كليفتون غدًا، ولن يذهبوا من دونها. لن يهم لو أجَّلت مجرد تمشية فحسب ليومٍ آخر، ورفضا سماع اعتذارها. أحسَّت كاثرين بالضيق، إلا أنها لم تخضع لهما.

- لا تحثيني يا إيزابيلا، لقد اتفقتُ مع الآنسة تيلني، ولا يمكنني الذهاب.

لم يجدِ ذلك شيئًا. هاجمتها نفس الحجج مرة أخرى، عليها الذهاب، ويجب أن تذهب، ولن يقبلا منها الرفض.

- سيكون من السهل للغاية إخبار الآنسة تيلني أنَّ أحدَهم ذكَّركِ للتوِّ بارتباطٍ محدد مسبقًا، وما عليكِ سوى أن تترجي منها تأجيل التمشية حتى يوم الثلاثاء.

- لا، لن يكون ذلك سهلًا، ولا أستطيع أن أفعل هذا. فلا يوجد هناك أي ارتباطٍ مسبق.

لكن إيزابيلا ازدادت إلحاحًا أكثر وأكثر، وحادثتها بألطف الأساليب، ونادتها بأحب أسماء التدليل. كانت على ثقة من أنَّ عزيزتها الحلوة كاثرين لن ترفض بالفعل مثل هذا المطلب البسيط من صديقة تحبها بشدة. كانت تعرف أنَّ كاثرين الحبيبة لها قلبٌ رقيقٌ للغاية، وطباعها لطيفة جدًّا، بحيث يسهل على أولئك الذين تحبهم إقناعها. لكن كل ذلك كان من دون جدوى، إذ شعرت كاثرين بأنها على حقٍّ. وعلى الرغم من ألمها من كل ذلك التوسُّل الرقيق والإطراء، فلم يكن بوسعها السماح لهذا بالتأثير عليها. حينها، جرَّبت إيزابيلا أسلوبًا آخر. عاتبتها لأنها تكنُّ للآنسة تيلني مشاعر أكثر، على الرغم

من معرفتها لها لفترة قصيرة فحسب، أكثر مما تكنّه لأقرب وأقدم أصدقائها، وأنها باختصارٍ صارت تتصف بالبرود واللا مبالاة حيال إيزابيلا نفسها.

- لا يسعني إلَّا أن أشعر بالغيرة يا كاثرين، عندما أجد نفسي عرضة للاستخفاف من أجل الغرباء، أنا التي أحبكِ بدرجة مفرطة! ما إن أحب شخصًا ما، حتى لا يمكن أن يغير أي شيء من مشاعري تلك. لكنني أعتقد أنَّ مشاعري أقوى من أي شخصٍ آخر، وأنا على ثقة بأنها أقوى من أن تسمح لي بأن أنعم بالسلام. أعترف أنَّ رؤية غرباء يحلُّون محلَّ صداقتي لديكِ يسبِّب لي ألمًا فائقًا. يبدو أنَّ آل تيلني أولئك يبتلعون كل ما سواهم.

اعتقدتْ كاثرين أن توبيخها هذا غريبٌ وقاسٍ بنفس القدر. هل كان على صديقتها كشف مشاعرها أمام الجميع على هذا النحو؟ بدت لها إيزابيلا غير كريمة وأنانية، ولا تهتم بأي شيء سوى متعتها الخاصة. مرَّت هذه الأفكار المؤلمة بذهنِها، رغم أنها لم تقل شيئًا. في تلك الأثناء، رفعت إيزابيلا منديلها لعينيها. أحسَّ مورلاند بالبؤس لمرآها هكذا، فلم يسعه سوى أن يقول:

- لا، يا كاثرين. أعتقد أنه لا يمكنكِ الرفض أكثر من ذلك بعد الآن. التضحية المطلوبة منكِ ليست كبيرة للغاية، لإرضاء صديقة كهذه. سأعتقد أنَّك قاسية جدًّا إذا كنتِ لا تزالين مصممة على الرفض.

كانت هذه المرة الأولى التي يقف فيها شقيقها ضدها علانية، وكانت حريصة على تجنُّب استيائه، لذا اقترحت حلًّا وسطًا. لو أنهم قاموا فقط بتأجيل خطتهم ليوم الثلاثاء، وهو ما يمكنهم فعله بسهولة، لأنَّ الأمر يعتمد عليهم هم فحسب، فسوف يمكنها حينها مرافقتهم، وسيرضي الجميع. لكن الجواب الفوري كان «لا، لا، لا! هذا غير ممكن على الإطلاق». فلم يكن ثورب واثقًا ما إذا كان سيذهب إلى لندن أم لا يوم الثلاثاء. أبدت كاثرين أسفها، لكن لم يكن بوسعها القيام بما هو أكثر من ذلك. تلا ذلك فترة قصيرة من الصمت، كسرته إيزابيلا التي قالت بنبرة استياءٍ وبرودٍ:

- حسنًا إذن، هذه هي نهاية الأمر. إذا لم تذهب كاثرين، فلن أستطيع أنا أيضًا الذهاب. لا يمكنني أن أكون المرأة الوحيدة. لا يمكنني بأي حالٍ من الأحوال القيام بشيء غير لائقٍ لهذا الحدِّ.

قال جيمز:

- كاثرين، يجب عليكِ الذهاب.

- لكن لمَ لا يمكن أن يصطحب السيد ثورب إحدى شقيقتيه الأخريين؟ أعتقد أنَّ أيًّا منهما سيسعدها الذهاب.

صاح ثورب قائلًا:

- أشكركِ، لكنني لم آتِ إلى باث كي أتنزَّه برفقة شقيقاتي وأبدو كالأحمق. لا، إذا لم تذهبي، فعليَّ اللعنة إن ذهبتُ أنا. أنا لن أذهب إلا لمرافقتكِ أنتِ للتنزه وحسب.

- هذه مجاملة لا تسرني.

لكن ثورب لم يسمع كلماتها تلك، إذ إنه استدار مبتعدًا فجأة.

واصل الثلاثة الآخرون السير معًا، على نحوٍ غير مريحٍ إطلاقًا لكاثرين المسكينة. استمروا أحيانًا من دون النطق بكلمة، وفي أحيانٍ أخرى تعرَّضت للهجوم مرة ثانية بالتوسلات واللوم. كانت ذراعها لا تزال معقودة بذراع إيزابيلا، على الرغم من الحرب الدائرة بين قلبيهما. كانت كاثرين ترق في لحظة، وتنزعج في لحظة أخرى، لكنها بقيت ثابتة على الدوام.

قال جيمز:

- لم أعتقد أنكِ ستكونين عنيدة لهذه الدرجة، يا كاثرين. لم تكوني صعبة الإقناع لهذا الحد من قبل. كنتِ فيما مضى الأرق والألطف طباعًا بين كل شقيقاتي.

أجابته بحرارة شديدة:

- آمل ألا أكون أقل من ذلك الآن. لكنني حقًّا لا أستطيع الذهاب. إذا كنتُ مخطئة، فأنا أفعل ما أظنه الصواب.

قالت إيزابيلا بصوتٍ منخفضٍ:

- أعتقد أنه لا يوجد صراعٌ كبيرٌ.

فاض قلب كاثرين بالمشاعر، فسحبت ذراعها بعيدًا، ولم تعترض إيزابيلا. هكذا انقضت عشر دقائق طويلة، حتى انضمَّ إليهم ثورب مرة أخرى. عاد وعلى ملامحه تعبير أكثر سعادة، وقال:

- حسنًا، لقد حسمتُ الأمر الآن، ويمكننا جميعًا الذهاب غدًا بضمائر مستريحة؛ لقد ذهبتُ للآنسة تيلني واعتذرتُ لها نيابة عنكِ.

صاحت كاثرين:

- أنتَ لم تفعل!

- أقسم بحياتي إنني فعلت. لقد تركتها للتوِّ. قلت لها إنكِ أرسلتِني لإخبارها أنكِ تذكرتِ للتوِّ ارتباطكِ المسبق معنا بالذهاب إلى كليفتون غدًا، ولا يمكنكِ الاستمتاع بالتمشية بصحبتها حتى يوم الثلاثاء. قالت إنَّ هذا ملائمٌ جدًّا، وإن الثلاثاء مناسبٌ لها بنفس الدرجة. ها هي نهاية جميع متاعبنا إذن. كانت فكرة جيدة من جانبي، أليس كذلك؟

ارتسمتْ على ملامح إيزابيلا الابتسامات والسعادة مرة أخرى، وبدا جيمز مسرورًا هو الآخر.

- يا لها من فكرة رائعة حقًّا! والآن، يا عزيزتي كاثرين، انتهتْ كلُّ متاعبنا، لقد تخلصتِ من الورطة على نحو مشرف، وسنستمتع بنزهة رائعة.

قالت كاثرين:

- هذا لا يصلح. لا يمكنني الخضوع لهذا. يجب أن أسرع على الفور إلى الآنسة تيلني وأضع الأمور في نصابها.

لكن إيزابيلا أمسكت بإحدى يديها، بينما أمسك ثورب بالأخرى، وتدفقت الاحتجاجات من الثلاثة. حتى جيمز بدا غاضبًا للغاية. بعد أن تمَّت تسوية كل شيء، وقالت الآنسة تيلني نفسها إن يوم الثلاثاء أيضًا مناسبٌ لها، كان من السخيف تمامًا والغريب للغاية إبداء أي اعتراض آخر.

- لا أكترثُ لذلك. لم يكن للسيد ثورب أي حق في اختراع أي رسالة من هذا القبيل. لو كنتُ أعتقد أنه من الصواب تأجيل الأمر، لكان بوسعي الحديث مع الآنسة تيلني بنفسي، لقد تمَّ الأمر بطريقة أكثر فظاظة فحسب. وكيف لي أن أعرف أن السيد ثورب قد... ربما يكون مخطئًا مرة ثانية. لقد قادني لاقتراف فعلٍ فظٍّ بخطئه يوم الجمعة. دعني أذهب، يا سيد ثورب. إيزابيلا، لا تمسكي بي.

أخبرها ثورب أنه سيكون من العبث ملاحقة آل تيلني، حيث إنهم كانوا ينعطفون عند شارع بروك عندما لحق بهم، ولا بُدَّ وأنهم وصلوا للمنزل الآن.

قالت كاثرين:

- سألحق بهم إذن. سألحق بهم أينما كانوا. لا جدوى من الحديث. إذا لم أدع أحدًا يقنعني بفعل ما رأيته خطأً، فلن أسمح بخداعي للقيام بذلك أبدًا.

وبهذه الكلمات، أفلتت منهم وأسرعت مبتعدة. كان ثورب سيندفع خلفها، إلَّا أنَّ مورلاند منعه.

- دعها تذهب. اتركها تذهب إذا كانت تريد ذلك.

- إنها عنيدة مثل...

لم يكمل ثورب التشبيه، لأنه لم يكن لائقًا.

سارت كاثرين بضيقٍ شديدٍ، بأكبر سرعة سمحت لها بها الحشود. كانت تخشى أن يطاردها أحدهم، ومع ذلك عزمت على المواصلة. بينما هي تسير في طريقها، انشغلت بالتفكير فيما حدث. كان من المؤلم بالنسبة إليها أن تخيب آمالهم وتثير غضبهم، ولا سيما غضب شقيقها، إلَّا أنها لم تندم لمقاومتها لهم. بعيدًا عن ميولها هي، فإن فشلها للمرة الثانية في الحفاظ على موعدها مع الآنسة تيلني، وتراجعها عن وعد قطعته طواعية منذ خمس دقائق فحسب، بناء على ادعاء كاذب أيضًا، لا بُدَّ أن يكون خطأً. لم تصمد في مواجهتهم على أساس المبادئ الأنانية فحسب، ولم تهتم برضاها الشخصي فقط، إذ كان من الممكن أن تحقق ذلك بدرجة ما عن طريق الرحلة نفسها ومن خلال مشاهدة قلعة بليز. لا، بل اهتمت بما هي مدينة به للآخرين، وبرأيهم في شخصيتها. ومع ذلك، فإن قناعتها بأنها على حقٍّ لم تكفِ كي تستعيد رباطة جأشها، فلن تشعر بالارتياح حتى تتحدث إلى الآنسة تيلني. أسرعت الخطى عندما ابتعدت عن بناية الهلال، وكادت تركض المسافة الباقية حتى وصلت أول شارع ميلسوم.

كانت حركتها سريعة للغاية، لدرجة أنه على الرغم من أن آل تيلني سبقوها في البداية، إلا أنهم كانوا يدخلون سكنهم للتوِّ عندما صارت على مرمى البصر منهم. كان الخادم لا يزال واقفًا عند الباب المفتوح، فلم تبدِ شيئًا من اللياقة، سوى أن قالت إنها يجب أن تحادث الآنسة تيلني في الحال، وتجاوزته مسرعة وصعدت الدرج. بعد ذلك، فتحت الباب الأول الذي قابلها، الذي تصادف أن كان

هو الباب الصحيح، فوجدت نفسها على الفور في غرفة الاستقبال مع الجنرال تيلني وابنه وابنته. شرعت تقدم تفسيرها على الفور، الذي كان قاصرًا بسبب ضيق مشاعرها وضيق تنفسها.

- لقد جئتُ في عجلة من أمري. كان الأمر برمته خطأ. لم أعد قطُّ بالذهاب، أخبرتهم منذ البداية أنني لا أستطيع الذهاب، أفلتُّ منهم وأتيتُ مسرعة لأوضح الأمر. لم أكترث بما قد تظنونه بشأني، حيث لم أنتظر الخادم.

مع ذلك، على الرغم من أن خطابها هذا لم يوضح الأمر تمامًا، إلا أنه لم يعد لغزًا. وجدت كاثرين أن جون ثورب وصَّل الرسالة بالفعل، ولم تجد الآنسة تيلني حرجًا في الاعتراف بأنها اندهشت للغاية من ذلك، ومع أن كاثرين خاطبت كليهما بالقدر نفسه بصورة غريزية دفاعًا عن نفسها، فلم يكن لديها وسيلة لاكتشاف ما إذا كان شقيقها قد فاقها في شعوره بالضيق. لكن أيًّا ما كان الشعور السائد قبل وصولها، فإن تصريحاتها المتلهفة جعلت كل نظرة وكل جملة ودودة على الفور بالقدر الذي تمنته.

هكذا تمَّت تسوية الأمر بنجاح، وقدَّمتها الآنسة تيلني إلى والدها، الذي استقبلها بكياسة واهتمام بالغ، مما ذكَّرها بما سبق وأن قالَه ثورب، وجعلها تفكر بسرور أنه يمكن الاعتماد عليه أحيانًا. بالَغ الجنرال في إظهار لطفه بدرجة كبيرة، حتى إنه لم يدرك سرعتها في الدخول إلى المنزل، فغضب للغاية من الخادم الذي دفعها إهماله لأن تفتح لنفسها باب الغرفة.

- ما الذي قصده ويليام بفعله هذا؟

وأراد التحقيق في الأمر. ولو لم تؤكد كاثرين بحرارة على براءته، بدا من المحتمل أن ويليام كان سيفقد حظوته لدى سيده إلى الأبد، إن لم يفقد عمله، بسبب تسرعها.

بعد جلوسها معهم لربع ساعة، نهضت لتستأذن في الانصراف. حينها فاجأها الجنرال تيلني بأن سألها ما إذا كانت تقبل بمنح ابنته شرف تناول الغداء معها وقضاء باقي اليوم بصحبتها. انضمَّت له الآنسة تيلني في طلبه، وأبدت كاثرين امتنانها البالغ، لكن الأمر لم يكن بيدها، إذ إن السيد والسيدة ألين يتوقعان عودتها في أي لحظة. أعلن الجنرال أنه لا يستطيع قول المزيد، إذ لا يمكن أن تحلَّ رغبته محل رغبة السيد والسيدة ألين، لكنه كان متأكدًا أنهما لن يرفضا زيارتها لصديقتها في يوم آخر، عند إعطاء إشعارٍ مسبقٍ قبلها بفترة كافية. «أوه، لا». كانت كاثرين على ثقة بأنهما لن يكون لَديهما أدنى اعتراض، وستكون هي في غاية السعادة لحضورها. رافقها الجنرال بنفسِه حتى باب الشارع، وجاملها بكلِّ تهذيبٍ بينما هما يهبطان الدرج، مبديًا الإعجاب برشاقة خطوتها التي تتماشى تمامًا مع روح أسلوبها في الرقص. وعندما افترقا، انحنى لها بواحدة من أكثر الانحناءات رشاقة التي سبق وأن رأتها على الإطلاق.

امتلأت كاثرين سعادة بكل ما حدث، ومضت مبتهجة في طريقها إلى شارع بولتيني، وهي تسير، كما فكرت، برشاقة، على الرغم من أن الأمر لم يطرأ على ذهنها من قبل. وصلت إلى المنزل من دون أن تلتقي ثانية بالجماعة التي تشعر بالغضب حيالها، والآن بعد أن انتصرت وحققت غرضها، وباتت آمنة في سيرها، بدأت (مع انحسار معنوياتها المرتفعة) تشك فيما إذا كانت محقة تمامًا. كان تقديم التضحيات نبيلًا على الدوام، ولو كانت رضخت لتوسلاتهم، لتجنبت التفكير المؤلم في صديقتها

الغاضبة وشقيقها المستاء، ودمار مخططاتهما للسعادة، ربما بسببها. كي تَهدئ بالها، وتتأكد من سلوكها من خلال رأي شخصٍ محايدٍ، انتهزت الفرصة لتذكر أمام السيد ألين خطة شقيقها وآل ثورب لليوم التالي، والتي لم يتم الاستقرار عليها. أجاب السيد ألين على الفور:

- حسنًا، وهل تفكرين في الذهاب أنتِ الأخرى؟

- لا. كنت قد اتفقت للتوِّ على الذهاب للتمشية برفقة الآنسة تيلني، قبل أن يخبروني بالأمر. لذا فأنت تدري أنني لا يمكنني الذهاب معهم، أليس كذلك؟

- لا، بالقطع لا. يسعدني أنكِ لم تفكري في ذلك؛ هذه المخططات غير مناسبة على الإطلاق، الشباب والشابات يتنزهون معًا في الريف في عرباتٍ مفتوحة! من الممكن القيام بذلك بين حين وآخر، أما الذهاب إلى النزل والأماكن العامة معًا، فإن ذلك لا يليق! وأتعجب أن السيدة ثورب تسمح بذلك. أنا سعيدٌ لأنكِ لم تفكري في الذهاب، كما أنني متأكدٌ أنَّ السيدة مورلاند لن يسعدها ذهابكِ. ألا تتفقين معي في التفكير، يا سيدة ألين؟ ألا تعتقدين أن مثل هذا النوع من الخطط مرفوضٌ؟

- بلى، إلى حدٍّ كبيرٍ في الواقع؛ إنَّ العربات المفتوحة بشعة للغاية؛ لا يدوم الثوب نظيفًا بها لمدة خمس دقائق، تلطخك الأوحال عند ركوبك وترجلك منها، ويتطاير شعرك وقبعتك في جميع الاتجاهات مع الريح. أنا نفسي أكره العربات المفتوحة.

- أعرف أنكِ تفعلين، لكن ليس هذا هو السؤال. ألا تعتقدين أنَّ الأمر يبدو غريبًا، عندما تخرج الشابات للتنزُّه فيها برفقة شباب لا تربطهم بهم حتى صلة القرابة؟

- بلى، يا عزيزي. يبدو الأمر في غاية الغرابة بالفعل. لا أطيق رؤية ذلك.

صاحت كاثرين قائلة:

- يا سيدتي العزيزة، لمَ إذن لم تخبريني بذلك من قبل؟ أنا واثقة من أنني لو كنت أعرف أنَّه أمرٌ غير لائقٍ لما ذهبتُ مع السيد ثورب على الإطلاق. لكنني لطالما تمنيتُ أن تخبريني لو كنتِ تعتقدين أنني أقوم بشيء ينافي الصواب.

- وسوف أفعل حقًّا، يا عزيزتي، يمكنكِ الاعتماد عليَّ في ذلك. فكما أخبرتُ السيدة مورلاند عند وداعنا، سأبذل دومًا قصارى جهدي من أجلكِ. لكن لا يجب على المرء التدقيق بدرجة تفوق الحد. فالشباب سيتصرفون كالشباب، مثلما تقول والدتكِ العزيزة نفسها. أنتِ تعلمين أنني أردتُ منكِ ألا تشتري ذلك النسيج القطني المنقوش بالزهور عند بداية وصولنا هنا، لكنكِ كنتِ ترغبين في ذلك. لا يحب الشباب أن يُحبطوا على الدوام.

- لكن هذا كان أمرًا ذا أهمية حقيقية، ولا أعتقد أنكِ كنتِ ستواجهين صعوبة في إقناعي.

قال السيد ألين:

- لم يحدث أي ضرر حتى الآن. وأنا أنصحكِ فحسب، يا عزيزتي، ألا تخرجي مع السيد ثورب بعد الآن.

أضافت زوجته قائلة:

- هذا هو ما كنت سأقوله بالضبط.

أحسَّت كاثرين بالارتياح من أجل نفسها، لكنها شعرت بالقلق حيال إيزابيلا. وبعد لحظة من التفكير، سألت السيد ألين ما إذا كان من اللائق واللطيف أن تكتب رسالة للآنسة ثورب، توضِّح لها فيها عدم لياقة ذلك الأمر الذي لا بُدَّ وأن تكون غافلة عنه، مثلما كانت هي. إذ فكرت في أنه من المحتمل أن تذهب إيزابيلا إلى كليفتون في اليوم التالي، على الرغم مما حدث. لكن السيد ألين أثناها عن فعل أي شيء من هذا القبيل.

- من الأفضل أن تدعيها وشأنها، يا عزيزتي. إنها كبيرة بما يكفي لتدرك ما تفعله، وإن لم تكن كذلك، فلديها والدتها لتسدي لها النصح. لا شكَّ في أنَّ السيدة ثورب متساهلة بدرجة زائدة عن الحد، لكن من الأفضل ألا تتدخلي. لقد اختارت هي وشقيقكِ الذهاب، ولن تنالي أنتِ سوى الاستياء.

استسلمت كاثرين لرأيه، وعلى الرغم من شعورها بالأسف عند تفكيرها في أن إيزابيلا تقترف خطأ، إلا أنها أحسَّت بالارتياح البالغ لاستحسان السيد ألين سلوكها هي، وسعدت حقًّا لأن نصيحته حمتها من خطر الوقوع في مثل ذلك الخطأ هي الأخرى. باتت نجاتها من الانضمام إلى الجماعة المتوجهة إلى كليفتون نجاة حقيقية بالفعل، إذ ما الذي كان آل تيلني سيظنونه بها، لو كانت قد نكثت بوعدها لهم، كي تقترف شيئًا يمثل خطأ في حدِّ ذاته؟ ولو كانت قد خرقت إحدى قواعد اللياقة، لتتمكن من اختراق قاعدة أخرى فحسب؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 14 -

كان الجو صحوًا صباح اليوم التالي، وكادت كاثرين تتوقع هجومًا آخر من المجموعة. لم يساورها القلق حال حدوث ذلك، في وجود السيد ألين ليؤيدها، إلَّا أنَّها كانت تفضل عدم خوض جدال سيكون الانتصار فيه مؤلمًا. لذا سعدت بشدة عندما لم ترَهم أو تسمع منهم شيئًا. جاء آل تيلني لاصطحابها في الوقت المحدد، ولم تظهر أي مصاعب جديدة، أو ذكرياتٌ مفاجئة، ولا أي استدعاء غير متوقع أو تدخلات وقحة تربك خططهم. نجحت بطلتي على نحوٍ غير طبيعي في تحقيق خطتها، على الرغم من أنها كانت برفقة البطل نفسه. قرروا السير حول جرف بيتشين، ذلك التل الشامخ الذي تجعله خضرته الرائعة والأيكة المعلقة على حافته يبدو أخاذًا من كل مكانٍ مفتوحٍ في باث تقريبًا.

قالت كاثرين بينما هم يسيرون بحذاء ضفة النهر:

- لا أنظر نحوه أبدًا، من دون التفكير في جنوب فرنسا.

قال هنري، متفاجئًا بعض الشيء:

- هل سافرتِ للخارج إذن؟

- أوه، لا! بل أعني ما قرأتُ عنه فحسب. دومًا ما يذكرني بتلك البلدة التي سافرتْ عبرها إميلي ووالدها في «أسرار أودولفو». لكنك لا تقرأ الروايات أبدًا، على ما أعتقد؟

- لمَ لا؟

- لأنها ليست ذكية بما يكفي بالنسبة إليك؛ إنَّ الرجال يقرؤون نوعية أفضل من الكتب.

- لا بُدَّ وأن يكون الشخص الذي لا يستمتع برواية جيدة، سواء كان رجلًا أم امرأة، غبيًّا بشكلٍ لا يُطاق. لقد قرأتُ جميعَ أعمال السيدة رادكليف، واستمتعتُ للغاية بمعظمها. ما إن بدأتُ قراءة «أسرار أودولفو»، حتى لم أستطع أن أضعها جانبًا. أذكر أنني أنهيتها في يومين، وكان شعري يقف منتصبًا طوال ذلك الوقت.

أضافت الآنسة تيلني قائلة:

- أجل، وأذكرُ أنكَ تعهدتَ بقراءتها لي بصوتٍ مرتفع، وعندما اُستدعيت لخمس دقائق فحسب كي أجيب رسالة، بدلًا من انتظاري، أخذتَ أنتَ الكتاب للتمشية في الممر المؤدي إلى الكوخ، واضطررتُ أنا إلى انتظاركَ حتى انتهيت منه.

- أشكركِ، يا إليانور. يا لها من شهادة مشرفة. ها أنتِ ترين، يا آنسة مورلاند، أنكِ ظلمتني بشكوككِ. كنتُ متحمسًا لمواصلة القراءة، ورفضتُ انتظار شقيقتي لمدة خمس دقائق فحسب، ونكثتُ بوعدي الذي قطعته، بالقراءة لها بصوتٍ مرتفع، وأبقيتها في حالة من الترقُّب عند الجزء الأكثر تشويقًا، وهربتُ بالكتاب، الذي عليكِ أن تدركي أنَّه كان ملكًا لها، ولها وحدها على وجه الخصوص. أشعر بالفخر عند التفكير في هذا، وأعتقد أن ذلك لا بُدَّ وأن يعطيكِ فكرة طيبة عني.

- أنا سعيدة جدًّا بالفعل لسماع ذلك. والآن لن أخجل أبدًا بعد ذلك لأنني أحب رواية أودولفو، لكنني كنت حقًّا أعتقد أنَّ الشباب يزدرون الروايات بدرجة مدهشة.

- هذا مدهشٌ بالفعل. قد يكون الأمر مثيرًا للدهشة لو كانوا يفعلون ذلك، فهم يقرؤون عددًا منها يضاهي ما تقرؤه النساء تقريبًا. أنا نفسي قرأتُ المئات والمئات منها. لا تتخيلي أن بوسعكِ مجاراتي في معرفة كل ما يتعلَّق ببطلات الروايات. إذا دخلنا في التفاصيل، وانخرطنا في التساؤلات التي لا تنتهي من نوعية «هل قرأت هذا؟»، و«هل قرأت ذاك؟»، فسرعان ما سأخلفكِ ورائي بعيدًا مثل... ماذا الذي عليَّ قوله؟ أريد تشبيهًا ملائمًا، بعيدًا مثلما خلفتْ صديقتكِ إميلي نفسها فالانكور المسكين عندما ذهبتْ إلى إيطاليا بصحبة عمتها ([11]). ضعي في اعتباركِ عددَ السنوات التي سبقتكِ بها. لقد بدأتُ دراستي في أوكسفورد، بينما كنتِ أنتِ لا تزالين فتاة صغيرة طيبة تتعلمين التطريز في المنزل!

- لم أكن طيبة للغاية، على ما أخشى. لكن ألا تعتقد حقًّا أن أودولفو هو ألطف كتابٍ في العالم؟

- الألطف... أفترض أنكِ بذلك تقصدين الأجمل. يتوقف ذلك على تجليد الكتاب.

قالت الآنسة تيلني:

- هنري، أنت وقحٌ للغاية. يا آنسة مورلاند، إنه يعاملكِ تمامًا كما يعامل شقيقته. فهو دومًا ما يتصيَّد لي الأخطاء، بسبب بعض الأخطاء اللغوية، وها هو الآن يمارس الشيء ذاته معكِ. إنَّ كلمة «ألطف»، كما استخدمتِها، لا تناسبه، ومن الأفضل أن تغيري استخدامكِ للكلمة بأسرع وقتٍ ممكنٍ، وإلا سيزعجنا بجونسون وبلير لما تبقَّى من الطريق. ([12])

صاحت كاثرين قائلة:

- أنا واثقة أنني لم أتعمَّد التفوُّه بأي خطأ. لكنَّه كتابٌ لطيفٌ، فما الذي يمنعني من أن أطلق عليه ذلك؟

قال هنري:

- هذا صحيحٌ جدًّا. وهذا يومٌ لطيفٌ للغاية، ونحن نستمتع بنزهة لطيفة للغاية، وأنتما الاثنتان شابتان لطيفتان للغاية. أوه، إنها حقًّا كلمة لطيفة للغاية! فهي مناسبة لكل شيء. في الأصل كانت تستخدم للتعبير عن النظام واللياقة والدقة، أو عمَّا هو مصقول. كان الناس يتَّسمون باللطف في ملبسهم ومشاعرهم وخياراتهم. لكن صار كلُّ ثناءٍ الآن على أي موضوع يتألَّف من تلك الكلمة الوحيدة.

صاحت شقيقته قائلة:

بينما في الواقع، يجب أن تُطلق عليك أنتَ فقط، من دون قصد أي ثناء على الإطلاق. فأنتَ الذي تتصف بالنظام والدقة، أكثر مما تتصف بالحكمة. تعالي، يا آنسة مورلاند. دعينا نتركه يتأمَّل أخطاءنا في حق أقصى درجات اللباقة في الأساليب اللغوية، بينما نمتدح نحن أودولفو بأي مصطلحاتٍ نفضِّلها. إنه عملٌ مثيرٌ للاهتمام للغاية. هل أنتِ مولعة بذلك النوع من الكتب؟

- في الحقيقة، فأنا لا أحب أي نوعٍ غيرها بدرجة كبيرة.

- حقًا!

- أعني أنني أستطيع قراءة الشعر والمسرحيات، وأشياء من هذا القبيل، ولا أكره أدب الرحلات. أما التاريخ، التاريخ الحقيقي الرصين، فلا يمكنني الاهتمام به. هل يمكنكِ أنتِ ذلك؟

- أجل، أنا مغرمة بالتاريخ.

- أتمنى لو كنتُ كذلك أنا الأخرى. أقرأ القليل منه كأنَّه فرضٌ من الفروض، لكنه لا يخبرني بأي شيء لا يزعجني أو يضجرني: خلافات الباباوات والملوك، مع الحروب والأوبئة في كل صفحة، والرجال جميعهم عديمو الفائدة، بينما بالكاد توجد أي امرأة على الإطلاق، إنَّه مملٌّ للغاية. ومع ذلك، كثيرًا ما أفكر أنه من الغريب كونه مملًّا لهذه الدرجة، حيث إنه لا بُدَّ وأن يكون قدرٌ كبيرٌ منه ملفَّقًا. تلك الأحاديث الموضوعة على ألسنة الأبطال، وأفكارهم وخططهم، لا بُدَّ وأن القدر الأكبر منها مجرد تأليفٍ، والتأليف هو ما يمتعني في الكتب الأخرى.

قالت الآنسة تيلني:

- أنتِ تعتقدين أن المؤرخين غير موفقين فيما يظهرونه من خيال. فهم يلجؤون لاستخدام الخيال من دون أن ينجحوا في إثارة الاهتمام. أنا أحب التاريخ، وعلى استعداد لأن أقنع بقبول الملفَّق منه مع ما هو حقيقي. فيما يتعلق بالحقائق الأساسية، فلديهم مصادر معلومات في كتب التاريخ والسجلات السابقة، التي يمكن الاعتماد عليها، على حد ظني، مثل أي شيء آخر لا يحدث فعليًّا تحت أنظار المرء. أما بالنسبة إلى تلك الإضافات المنمقة البسيطة التي ذكرتِها أنتِ، فهي مجرد تنميقٍ لغوي، وأنا أحبها بوصفها كذلك. إذا كُتب خطاب بشكلٍ جيد، فأنا أقرؤه باستمتاعٍ، أيًّا كان من ألقاه، وفي الغالب تزداد متعتي كثيرًا إذا كان كاتبه هو السيد هيوم أو السيد روبرتسون ([13])، أكثر من متعتي لو كانت هي الكلمات الفعلية لكاركتاكوس، أو أجريكولا، أو ألفريد العظيم.

- أنتِ مغرمة بالتاريخ! وكذلك السيد ألين، وأبي. كما أنَّ لديَّ شقيقين لا يكرهانه. هناك عديدٌ من الأمثلة في دائرة أصدقائي الصغيرة. إنَّ ذلك أمرٌ مدهشٌ! بهذا المعدل، لن أشفق على كُتَّاب التاريخ بعد الآن. طالما أن الناس يحبون قراءة كتبهم، فكل شيء على ما يرام. لكن أن يتجشَّم أحدهم عناء ملء مجلدات ضخمة، كنت أعتقد أنه لا يوجد أبدًا من يرغب في قراءتها طواعية، وأن يعمل من أجل تعذيب الصبية والفتيات الصغار فحسب، لطالما ظننت ذلك قَدَرًا شاقًّا يصعب تحمله. وعلى الرغم من علمي أن كل هذا صحيحٌ وضروري، لكنني لطالما تعجبتُ من شجاعة الشخص الذي بوسعه الجلوس ليفعل ذلك عن عمد.

قال هنري:

- من الواجب تعذيب الصبية والفتيات الصغار، وهو ما لا يمكن أن ينكره أي شخص مطلع على الطبيعة البشرية في دولة متحضرة. لكن بالنيابة عن مؤرخينا المبجلين، عليَّ القول إنهم قد يشعرون بالإهانة البالغة، لافتراض أنهم ليست لديهم أي أهداف أسمى من ذلك. فهم مؤهلون تمامًا من خلال منهجهم وأسلوبهم لتعذيب القراء الأكثر تقدمًا في النضج العقلي وفي العمر. استخدمتُ «يعذب» بدلًا

من «يعلم»، كما لاحظتَ من أسلوبكِ أنتِ في اختيار الكلمات، باعتبار أنه صار من المقبول أن يعدَّهما المرء مترادفين.

- أنتَ تعتقد أنني حمقاء، لأنني أسمي التعليم تعذيبًا، لكن لو كنتَ قد اعتدت مثلي أنا سماع الأطفال الصغار المساكين وهم يتعلمون الأحرف الأبجدية أولًا، ويتعلمون بعدها هجاء الكلمات، ولو كنتَ قد شاهدتَ على الإطلاق مدى الغباء الذي يمكنهم أن يكونوا عليه معًا طيلة صباح يوم كاملٍ، ومدى إرهاق والدتي المسكينة في النهاية، كما اعتدتُ أنا رؤية ذلك في كل يوم تقريبًا من حياتي في المنزل، لاعترفتَ بأنه من الممكن في بعض الأحيان استخدام كلمتي «التعذيب» و«التعليم» بوصفهما مترادفتين.

- هذا محتملٌ إلى حدٍّ بعيدٍ. لكنَّ المؤرخين غير مسؤولين عن صعوبة تعلُّم القراءة. وحتى أنتِ نفسكِ، رغم ما يبدو من أنكِ لا تميلين بدرجة كبيرة إلى الدراسة الشاقة المكثفة، ربما تعترفين بأنَّ الأمرَ يستحق أن يتحمَّل المرء العذاب لعامين أو ثلاثة من حياته، كي يتمكَّن من القراءة ما بقي له من العمر. ضعي في اعتباركِ أنه لو لم يتم تدريس القراءة، فإن كلَّ ما كتبته السيدة رادكليف سيكون قد كُتب عبثًا، أو ربما لم تكن لتُقدم على الكتابة على الإطلاق.

وافقته كاثرين في الرأي، وبعد مديح حارٍّ منها لمميزات تلك السيدة، أُغلق الموضوع. سرعان ما انخرط آل تيلني في نقاشٍ آخر لم يكن لديها ما تضيفه بشأنه. كانا يتأمَّلان الريف بأعين شخصين اعتادا الرسم، واتفقا على إمكانية تصويره في رسوم بكل حماسة من يتمتَّعون بذوقٍ حقيقي. هنا أحسَّت كاثرين أنها ضائعة تمامًا؛ فلم تكن تعرف شيئاً عن الرسم، ولا عن الذوق، واستمعت إليهما بانتباهٍ لم يفدها كثيرًا، إذ إنهما تحدثا بعباراتٍ لم تنقل لها بالكاد أي أفكار. ومع ذلك، فإنَّ القدر الضئيل الذي فهمته بدا كأنَّه يتعارض مع الأفكار القليلة للغاية التي كانت تعتنقها حول ذلك الموضوع من قبل. بدا كأنَّه لم يعد من الممكن رسم منظرٍ طبيعي جيدٍ من أعلى قمة تلٍّ، وأن السماء الزرقاء الصافية لم تعد دليلًا على أنَّ اليوم جميلٌ. أحسَّت بالخجل الشديد من جهلها. كان ذلك الخجل في غير محله، فحين يرغب الناس في إقامة علاقات مع الآخرين، عليهم الظهور دومًا بمظهر الجهل. فأن تأتي للعلاقة بعقلٍ مستنيرٍ يعني أنكَ تأتي عاجزًا عن إرضاء غرور الآخرين، وهو الأمر الذي يرغب الشخص العاقل في تجنُّبه دومًا. وإذا كان لدى المرأة، على وجه الخصوص، سوء الحظ في معرفة أي شيء، فعليها إخفاء ذلك بقدر استطاعتها.

وقد شرحتْ كاتبة زميلة ذات قلم جليلٍ بالفعل، مزايا تمتُّع الفتاة الجميلة بالحماقة الطبيعية. وإنصافًا للرجال، سأضيف لمعالجتها للموضوع، لأقول إنَّه على الرغم من أنَّ الحماقة في الإناث تُعد إضافة كبيرة لسحرهن الشخصي لدى النسبة الأكبر من جنس الرجال، فإن هناك نسبة منهم ممن يتمتعون بالعقل والاستنارة إلى حدٍّ بعيدٍ، بحيث لا تكون أقصى رغباتهم في المرأة هي أن تتصف بالجهل فحسب. لكن كاثرين لم تكن تعرف تلك المزايا التي تتمتع بها، ولم تكن تعلم أنَّ الفتاة الجميلة التي لها قلبٌ حنون وعقلٌ شديد الجهل لا يمكنها الفشل في اجتذاب شاب ذكي، ما لم تكن الظروف تعاندها بشكلٍ خاصٍّ. في هذا الوضع الحالي، اعترفت بنقص معرفتها، وندبت حظَّها في ذلك. أعلنت أنها على استعدادٍ لدفع أي ثمن كي تستطيع الرسم، فتلى ذلك على الفور محاضرة عن التصوير، وكانت تعليماته في غاية الوضوح، حتى إنها سرعان ما أخذت تميز الجمال في كل ما حظي بإعجابه، وبدت

شديدة الاهتمام إلى أن بات مقتنعًا تمامًا بأنها تتمتع بقدرٍ كبيرٍ من الذوق الطبيعي. تحدث عن مقدمة الصورة، والمسافات، والعناصر الجانبية في المنظر، والمنظور، والضوء والظلال. وكانت كاثرين تلميذة طموحة للغاية، لدرجة أنهم ما إن وصلوا لقمة جرف بيتشين، حتى أعلنت أن مدينة باث بأكملها لا تستحق أن تشكِّل جزءًا من المنظر الطبيعي. شعر هنري بالسرور من التقدُّم الذي أحرزته، وخشي من إنهاكها بقدرٍ زائدٍ من المعلومات دفعة واحدة، فترك الموضوع يسقط من حديثهما. من خلال الانتقال اليسير من الحديث عن شظية صخرية وقطعة خشب البلوط الذاوية التي وضعها بالقرب من قمتها، إلى الحديث عن أشجار البلوط بصفة عامة وعن الغابات، وتسييج الغابات، والأراضي البور، والأراضي المملوكة للتاج الملكي، والحكومة، سرعان ما وجد نفسه قد وصل للحديث عن السياسة، ومن السياسة، كان الوصول للصمت خطوة يسيرة. قطعت كاثرين الصمتَ العام الذي تلى خطابه القصير عن حال الأمة، حيث قالت بنبرة مهيبة:

- لقد سمعتُ أنَّ شيئًا صادمًا للغاية سوف يقع في لندن قريبًا.

كان الحديث موجهًا بالأساس للآنسة تيلني، التي فوجئت وأجابت على عجلٍ قائلة:

- حقًّا؟ وما طبيعة هذا الأمر؟

- هذا هو ما لا أعلمه، كما لا أعلم من المسؤول عنه. كل ما سمعته فحسب هو أنه سيكون شيئًا أكثر فظاعة من أي شيء آخر شاهدناه حتى الآن.

- يا إلهي! أين سمعتِ مثل هذا الشيء؟

- بلغ الأمر إحدى الصديقات من خلال رسالة وصلت من لندن أمس. سيكون مروعًا على نحوٍ غير طبيعي. أتوقع حدوث جرائم قتل، وكل شيء من ذلك القبيل.

- إنكِ تتحدثين برباطة جأش مدهشة! لكن أتمنى أن يكون ما وصل صديقتكِ من أخبار مبالغًا فيه. وإذا كانت هذه المخططات معروفة مسبقًا، فلا شكَّ في أن الحكومة سوف تتخذ الإجراءات اللازمة لمنعها من الدخول في حيز التنفيذ.

قال هنري، محاولًا منع نفسه من الابتسام:

- إن الحكومة ليست لديها الرغبة ولا الجرأة على التدخل في مثل تلك الأمور. لا بُدَّ من وقوع جرائم قتل، ولا تكترث الحكومة بعددها.

حدقت به الشابَّتان. ضحك وأضاف قائلًا:

- هيا، هل أجعل بعضكما يفهمان بعضًا، أم أترككما تحاولان تخمين التفسير بقدر استطاعتكما؟ لا، بل سأكون كريمًا. سأثبت أنني رجلٌ نبيلٌ، لا بكرم روحي فحسب، بل بصفاء ذهني أيضًا. لا أتحلَّى بالصبر مع أولئك من بني جنسي الذين يزدرون النزول بأنفسهم إلى مستوى فهمكن في بعض الأحيان. ربما لا تكون القدرات الذهنية للنساء سليمة ولا حادة، ولا قوية أو ثاقبة. ربما تعوزهن قوة الملاحظة، والتمييز، والحكم على الأمور، والحماسة، والعبقرية والذكاء...

- آنسة مورلاند، لا تعيري انتباهًا لما يقوله، لكن فلتتكرمي بتوضيح الأمر لي فيما يتعلق بأعمال الشغب المروعة هذه.

- شغب! أي شغب؟

- يا عزيزتي إليانور، إنَّ هذا الشغب في داخل عقلكِ فحسب. إنَّ الارتباك الكائن هناك فاضحٌ للغاية. لم تتحدث الآنسة مورلاند عما هو أكثر رعبًا من رواية جديدة، سوف تصدر قريبًا، في ثلاثة مجلدات من القطع الصغير، بكلِّ مجلدٍ منها مائتان وست وسبعون صفحة، وتزين واجهة الجزء الأول صورة شاهدي قبر ومصباح. هل فهمتِ؟ أما أنتِ يا آنسة مورلاند، فقد أساءت شقيقتي الحمقاء فهم كل تعبيراتكِ الواضحة للغاية. لقد تحدثتِ عن أهوال متوقعة في لندن، وبدلًا من أن تتصور على الفور، مثلما سيفعل أي مخلوق عقلاني، أنَّ مثل هذه الكلمات لا يمكن أن تكون متعلقة بشيء سوى مكتبة عامة، فقد صورت لنفسها على الفور حشدًا من ثلاثة آلاف رجلٍ، يتجمعون في حقول سانت جورج، وأن يتعرض البنك للهجوم، ويتعرض برج لندن للتهديد، وأن تتدفق شوارع لندن بالدماء، حتى تُستدعى الفرقة الثانية عشرة من سلاح الفرسان (أمل الأمة) من نورثامبتون لقمع المتمردين. وفي لحظة الهجوم على رأس فرقته، سيتعرض الكابتن الشجاع فريدريك تيلني للإصابة بحجرٍ من نافذة علوية، وهو ما يسقطه عن ظهر جواده. فلتغفري لها حماقتها. لقد زادت مخاوفها كشقيقة من ضعفها كامرأة، لكنها لا تتصف بالحماقة بشكلٍ عامٍّ، بأي حالٍ من الأحوال.

بدت أمارات الجدية على كاثرين. قالت الآنسة تيلني:

- والآن يا هنري، بعد أن جعلت بعضنا يفهم بعضًا، فيمكنكَ أيضًا أن تجعل الآنسة مولاند تفهمكَ أنتَ. ما لم تتعمَّد جعلها تظن أنكَ وقحٌ مع شقيقتكَ بدرجة لا تُطاق، وأنكَ بالغ القسوة في آرائكَ حيال النساء بصفة عامة. فالآنسة مورلاند لا تألف أساليبك الغريبة هذه.

- سيسعدني للغاية أن أجعلها تألفها على نحوٍ أفضل.

- لا شكَّ في ذلك، لكن هذا لا يفسر الأمر في الوقت الحالي.

- ما الذي عليَّ أن أفعله؟

- أنتَ تعرف ما يجب عليكَ فعله. فلتبرئ شخصيتك أمامها بوضوحٍ. أخبرها أنكَ تقدِّر عقلية المرأة بشدة.

- يا آنسة مورلاند، أنا أقدِّر بشدة عقلية جميع نساء العالم، خاصة أولئك منهن، أيًّا كُنَّ، اللاتي يتصادف أن أكون بصحبتهن.

- هذا ليس كافيًا. يجب أن تكون جادًّا بدرجة أكبر.

- آنسة مورلاند، لا يمكن أن يوجد من يقدر عقلية المرأة أكثر مني. في رأيي، حبتهم الطبيعة بالكثير جدًّا، لدرجة أنهن لا يضطررن أبدًا إلى استخدام أكثر من النصف فحسب.

- لن نحظى منه بجدية أكثر من ذلك الآن، يا آنسة مورلاند، فهو ليس في حالة مزاجية رصينة. لكن أؤكد لكِ أنه يجب أن يكون المرء قد أساء فهمه تمامًا، إذا بدا له أنه يقول أي شيء ظالم ضد أي امرأة على الإطلاق، أو أي شيء قاسٍ بخصوصي.

لم يكن من الصعب بالنسبة إلى كاثرين تصديق أنَّ هنري تيلني لا يمكنه أن يكون مخطئًا على الإطلاق. قد يكون أسلوبه مفاجئًا في بعض الأحيان، لكن لا بُدَّ وأن تكون نواياه دومًا صائبة، حتى إنها كانت على استعدادٍ للإعجاب بما لا تفهمه منه أيضًا، كما فعلت بالفعل. كانت النزهة بأكملها ممتعة، وعلى الرغم من أنها انتهت سريعًا، إلا أن نهايتها أيضًا كانت ممتعة. صاحبها أصدقاؤها عندما دخلت المنزل، وقبل أن يفترقوا، وجهَّت الآنسة تيلني حديثها إلى السيدة ألين بقدر ما كان موجَّهًا إلى كاثرين أيضًا، مخاطبة إياهما بأقصى قدرٍ من الاحترام، وطلبت شرف صحبتِها على العشاء بعد غدٍ. لم تكن هناك أي صعوبة في الأمر من جانب السيدة ألين، وكانت الصعوبة الوحيدة من جانب كاثرين هي محاولتها إخفاء سعادتها الزائدة عن الحد.

انقضى النهار على نحوٍ ساحرٍ للغاية، حتى أنساها أمر أصدقائها ومشاعرها الطبيعية، فلم تمر بذهنها أي أفكارٍ حول إيزابيلا أو جيمز خلال النزهة. عقب انصرف آل تيلني، عاودت الانشغال بمشاعر الصداقة تلك مرة أخرى، لكن انشغالها ذاك دام لبعض الوقت من دون الوصول لأي نتيجة، إذ لم يكن لدى السيدة ألين أي أخبار لتبلغها بها قد تساعد على التخفيف من قلقِها، ولم يبلغها شيء عن أيٍّ منهم. لكن في نهاية الصباح، احتاجت كاثرين إلى ياردة من شريطٍ لا يمكنها الاستغناء عنه، ويتوجَّب عليها شراؤه في الحال. فخرجت إلى البلدة، وفي شارع بوند، لحقت بثاني آنسات آل ثورب بينما هي تتلكأ في طريقها إلى بناية إدجار، بين اثنتين من ألطف الفتيات في العالم، كانتا صديقتيها المقربتين طوال ذلك الصباح. سرعان ما علمت منها أنَّ الرحلة إلى كليفتون قد تمَّت بالفعل. قالت الآنسة آن:

- لقد انطلقوا في الساعة الثامنة صباح اليوم، وأنا بالقطع لا أحسدهم على رحلتهم تلك. أعتقد أنني أنا وأنتِ أحسنَّا التصرف بأن بقينا بعيدًا عن هذا المأزق. لا بُدَّ وأنه أكثر شيء إثارة للملل في العالم، فلا يوجد مخلوقٌ في كليفتون في مثل هذا الوقت من العام. ذهبت بيل مع شقيقكِ، بينما اصطحب جون ماريا.

عبَّرت كاثرين عن السعادة التي استشعرتها حقًّا عند سماعها هذا الجزء من ترتيباتهم.

أجابتها الأخرى:

- أوه، أجل! لقد ذهبت ماريا. كانت متحمسة جدًّا للذهاب. ظنَّت أنَّه سيكون أمرًا رائعًا للغاية. لا يسعني القول بأنني أقدِّر ذوقها. ومن جانبي أنا، كنت عازمة منذ البداية على عدم الذهاب، مهما ضغطوا عليَّ.

تشككت كاثرين في ذلك بعض الشيء، ولم تستطع سوى أن تجيبها قائلة:

- أتمنى لو كنتِ قد ذهبتِ أنتِ أيضًا. إنَّه لأمر مؤسف أنكم لم تستطيعوا الذهاب جميعًا.

- أشكركِ، لكنني لا أكترث بالأمر. في الواقع، لم أكن لأذهب بأي حالٍ من الأحوال. كنت أقول ذلك لإميلي وصوفيا عندما لحقتِ أنتِ بنا.

كانت كاثرين لا تزال غير مقتنعة، لكنّها سعدت لأنّ آن تتمتع بصحبة إميلي وصوفيا كي يوفرا لها العزاء. ودَّعتها من دون كثيرٍ من القلق، وعادت إلى المنزل وهي سعيدة أنَّ الرحلة لم تُلغَ لرفضها الانضمام إليها، وتمنَّت بحرارةٍ أن تكون ممتعة للغاية حتى لا يبقى جيمز أو إيزابيلا مستاءيْن من رفضها الانضمام إليهم بعد ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في وقتٍ مبكرٍ من صباح اليوم التالي، وصلت رسالة من إيزابيلا، تنطق في كل سطرٍ من سطورها بالسلام والحنان، وترجو حضور صديقتها على الفور لأمرٍ بالغِ الأهمية، فأسرعت كاثرين إلى بناية إدجار وهي في حالة من الحبور، يغمرها الفضول. كانت الآنستان ثورب الأصغر سنًّا بمفردهما في غرفة الاستقبال، وعندما خرجت آن لتنادي شقيقتها، انتهزت كاثرين الفرصة لسؤال الأخرى عن بعض تفاصيل رحلتهم بالأمس. لم تشتهِ ماريا متعة أكبر من الحديث عن الأمر، وعلمت كاثرين على الفور أنها في المجمل كانت أروع خطة في العالم على الإطلاق، ولا يمكن لأحدٍ تخيُّل كم كانت ساحرة، وكانت ممتعة أكثر مما بوسع أي شخصٍ أن يتصور. كانت هذه هي المعلومات التي حصلت عليها خلال خمس دقائق الأولى. أما الدقائق الخمس التالية لها، فقد كشفت عن التفاصيل التالية: توجَّهوا مباشرة إلى فندق يورك، وتناولوا بعض الحساء، وطلبوا غداءً مبكرًا، ثم ساروا حتى قاعة مضخات المياه وتذوقوا الماء، وأنفقوا بضعة شلنات لشراء بعض الحقائب الصغيرة والمعادن المتبلورة، ثم ذهبوا لتناول المثلجات عند أحد صانعي الحلوى، وأسرعوا عائدين إلى الفندق حيث التهموا غداءهم على عجلٍ كي يتجنَّبوا العودة في الظلام، ثم استمتعوا برحلة العودة، إلَّا أنَّ القمر لم يكن ساطعًا، وأمطر الجو بعض الشيء، كما أن حصان السيد مورلاند كان منهكًا للغاية، لدرجة أنه بالكاد تمكَّن من السير.

استمعت لها كاثرين بارتياحٍ شديدٍ. بدا أنَّهم لم يفكروا في قلعة بليز على الإطلاق، أما بالنسبة إلى كل الباقي، لم يكن هناك ما يستحقُّ الندم ولو للحظة. اختتمت ماريا أخبارها بسيلٍ رقيقٍ من الشفقة على شقيقتها آن، التي صوَّرتها بوصفها غاضبة بدرجة لا تُطاق، نتيجة استبعادها من الرحلة.

- أنا على ثقة بأنها لن تسامحني أبدًا. لكنكِ تعرفين، ما الذي كان بوسعي أن أفعله؟ أرادني جون أن أذهب، حيث أقسم إنه لن يصطحبها، لأنَّ كاحليها غليظان للغاية. أعتقد أنها لن تكون في حالة مزاجية جيدة طوال ما تبقى من الشهر. لكنني مصممة على ألا أنزعج، إذ إن الأشياء التافهة لا تثير غضبي.

عندئذٍ دخلت إيزابيلا الغرفة بخطى متحمسة، وعلى وجهها نظرة سعادة تشي بالأهمية، حازت كلَّ انتباه صديقتها. أمرت ماريا بالخروج من دون لياقة، وعانقت إيزابيلا كاثرين، وبدأت الحديث قائلة:

- أجل يا عزيزتي كاثرين، الأمر كذلك بالفعل. لم تخدعكِ حدة ملاحظتكِ. أوه، يا لعينيكِ الثاقبة تلك! إنها ترى كل شيء!

لم تجبها كاثرين سوى بنظرة متعجبة تشي بالجهل.

واصلت تلك الأخرى قائلة:

- لا يا أحلى وأحب صديقة، تمالكي نفسكِ. فأنا مضطربة لأقصى حدٍّ، كما ترين. دعينا نجلس في راحة ونتحدث. حسنًا، لقد خمنتِ الأمر إذن في اللحظة التي تلقيتِ فيها رسالتي؟ أيتها الماكرة! أوه، يا عزيزتي كاثرين، أنت وحدكِ من تعرفين خبايا قلبي، وبوسعكِ تقدير مدى سعادتي الحالية. إنَّ شقيقكِ

هو ألطف الرجال، وأتمنى لو كنت أكثر جدارة به وحسب. لكن ما الذي سيقوله والدكِ ووالدتكِ الرائعان؟ أوه، يا إلهي! يصيبني الاضطراب البالغ عندما أفكر فيهما!

بدأت كاثرين تفهم الموضوع، واندفعت في ذهنها فجأة فكرة عن حقيقة الأمر، فتخضَّب وجهُها بالحمرة لهذه المشاعر الوليدة، وصاحت قائلة:

- يا إلهي! يا عزيزتي إيزابيلا، ما الذي تعنينه؟ هل يمكن... هل يمكن أن تكوني حقًّا واقعة في حب جيمز؟

لكنها سرعان ما علمت أن تخمينها الجريء هذا لم يكن سوى نصف الحقيقة، حيث إن تلك المحبة المشوبة بالقلق، التي اتُهمت بمراقبتها باستمرارٍ في كل نظرة ولفتة من إيزابيلا، قد تلقَّت اعترافًا مبهجًا بحبٍّ مماثلٍ خلال رحلة الأمس. كان كلٌّ من قلبها وآمالها مرتبطين بجيمز. لم يسبق لكاثرين أن سمعت من قبل شيئًا مثيرًا للاهتمام بهذا القدر، ومليئًا بالدهشة والبهجة. شقيقها وصديقتها مخطوبان! كانت هذه الظروف جديدة بالنسبة إليها، وبدت أهميتها تفوق الوصف. فكرت في الموضوع بوصفه واحدًا من تلك الأحداث العظيمة التي يصعب تكرارها في مسار الحياة العادية. لم تستطِع التعبير عن مدى قوة مشاعرها، ومع ذلك، فقد أحسَّت صديقتها بالسعادة من طبيعة مشاعرها تلك. كان أول ما انطلق به لساناهما هو سعادة كل منهما لحصولها على شقيقة كهذه، وتعانقت الشابتان الجميلتان وامتزجت بينهما دموع الفرح.

مع ذلك، بقدر ما كانت كاثرين مبتهجة من أعماق القلب للارتباط المحتمل بين الأسرتين، فلا بُدَّ من الاعتراف بأنَّ إيزابيلا فاقتها بكثيرٍ في حماسها الرقيق.

- ستكونين عزيزة عليَّ بدرجة كبيرة يا كاثرين، أكثر من آن أو ماريا. أشعر أنني سأكون أكثر ارتباطًا بآل مورلاند الأعزاء، عن ارتباطي بأسرتي.

كانت هذه درجة من الصداقة تفوق قدرة كاثرين.

واصلت إيزابيلا قائلة:

- أنتِ تشبهين شقيقكِ العزيز للغاية، لدرجة أنني أحببتكِ منذ اللحظة الأولى التي شاهدتكِ فيها. لكن هذا هو الحال معي على الدوام، فاللحظة الأولى هي التي تحسم كلَّ شيء. في اليوم الأول الذي أتى فيه مورلاند لزيارتنا خلال عيد الميلاد الماضي، وفي اللحظة الأولى التي شاهدته فيها، ضاع مني قلبي من دون رجعة. أذكر أنني كنت أرتدي ثوبي الأصفر، وشعري مرفوعٌ للأعلى في جدائل، وعندما ولجتُ غرفة الاستقبال وقدَّمه لي جون، ظننتُ أنني لم يسبق وأن رأيتُ أحدًا بهذه الوسامة من قبل.

هنا اعترفت كاثرين سرًّا بقوة الحب، فعلى الرغم من كونِها تحب شقيقها بشدة، ومعجبة بجميع صفاته، إلا أنها لم يسبق لها وأن عدَّته وسيمًا طوال حياتها من قبل.

- أذكر أيضًا أنَّ الآنسة أندروز تناولتْ معنا الشاي ذلك المساء، وكانت ترتدي ثوبها الحريري الأحمر الداكن، وكانت تبدو رائعة، لدرجة أنني ظننتُ أنَّه لا بُدَّ وأن يقع شقيقكِ في حبها. لم يغمض

لي جفنٌ طوال الليل بسبب انشغالي بالتفكير في ذلك. أوه، يا كاثرين! كم من ليالٍ عديدة جفاني فيها النوم بسبب شقيقكِ! لا أتمنَّى لكِ أن تعاني نصفَ ما عانيته أنا! أدرك أنني صرتُ ناحلة بدرجة بائسة، لكنني لن أزعجكِ بوصف تفاصيل ما يقلقني، فقد رأيتِ منه ما فيه الكفاية. أشعر أنني فضحتُ أمري، إذ لم ألتزم الحذر في الحديث، وعبرت عن تحيزي للكنيسة! ([14]) لكنني كنت دومًا على ثقة بأنَّ سري سيكون في مأمنٍ معكِ.

شعرت كاثرين أنه لم يكن من الممكن وجود ما هو أكثر أمانًا، لكنها خجلت من جهلها ذاك الذي لم تتوقعه إيزابيلا، فلم تجرؤ على جدالها في هذه النقطة، ولا على نفي كونها تتمتع ببصيرة ثاقبة وتمتلئ بمشاعر التعاطف كما اختارت إيزابيلا أن تراها. علمت أنَّ شقيقها يستعد كي يتوجَّه بأقصى سرعة إلى فولرتون، للإعلان عن موقفه وطلب الموافقة، وكان ذلك مصدر اضطرابٍ حقيقي لإيزابيلا. حاولت كاثرين إقناعها، كما كانت هي نفسها مقتنعة، أنَّ والدها ووالدتها لن يعارضا أبدًا رغبة ابنهما. قالت:

- من المستحيل أن يوجد والدان ألطف وأكثر رغبة في سعادة أولادهما. لا شكَّ لديَّ في موافقتهما على الفور.

أجابتها إيزابيلا:

- قال مورلاند الشيء نفسه تمامًا. مع هذا، فلا أجرؤ على توقُّع ذلك، ستكون دوطتي ضئيلة للغاية، ولا يمكنهما أبدًا الموافقة على ذلك. شقيقكِ، الذي بوسعه الزواج من أي واحدة!

هنا أدركت كاثرين مرة أخرى قوة الحب.

- في الواقع يا إيزابيلا، أنت متواضعة للغاية. لا يمكن أن يكون فارق الثروة شأنًا ذا أهمية.

- أوه! يا عزيزتي كاثرين، أنا أعلم أنه لا أهمية له في قلبكِ الذي يتصف بالكرم، لكن لا يجب علينا أن نتوقع مثل هذه اللا مبالاة من كثيرٍ من الناس. بالنسبة لي أنا، فأنا على ثقة بأنني أتمنى لو أن أوضاعنا انعكست فحسب. لو كان بحوزتي الملايين، وكنتُ سيدة العالم بأجمعه، لكان شقيقكِ هو خياري الوحيد.

هذه الأحاسيس الآسرة، التي تحبذها كلٌّ من العاطفة والخيال، دفعت كاثرين لأن تتذكر بسعادة جميع بطلات الروايات اللاتي تعرفهن، وظنَّت أنَّ صديقتها لم تبدُ أكثر جمالًا من قبل عنها وهي تنطق بهذه الفكرة النبيلة. كان قولها الذي ظلَّت تكرره هو:

- أنا متأكدة أنَّهما سيبديان الموافقة. وأنا على ثقة بأنهما سيسعدان بكِ.

قالت إيزابيلا:

- من جانبي أنا، فإن أمنياتي متواضعة للغاية، حتى إنَّ أقل دخل في الوجود سيكون كافيًا بالنسبة إليَّ. عندما يتعلَّق الناس حقًّا بعضهم ببعضٍ يصير الفقر نفسه ثروة. أنا أكره الفخامة، ولن أقبل بالاستقرار في لندن ولو مقابل الكون بأسره. سيكون كوخٌ في إحدى القرى النائية شيئًا رائعًا. هناك بعض المنازل الريفية الصغيرة الساحرة حول ريتشموند.

صاحت كاثرين قائلة:

- ريتشموند! يجب عليكم الاستقرار بالقرب من فولرتون. يجب أن تكونوا بالقرب منَّا.

- أنا متأكدة أنني سأشعر بالبؤس لو لم نفعل. إذا استطعنا أن نكون بالقرب منكم فحسب، سأكون راضية. لكن هذا الكلام مضيعة للوقت! لن أسمح لنفسي بالتفكير في مثل تلك الأشياء، حتى نحصل على جواب والدكِ. يقول مورلاند إنه لو أرسل الرد إلى سالزبوري الليلة، فقد يصلنا بحلول الغد. الغد؟ أعرف أنني لن أمتلك الشجاعة على الإطلاق لفتح الرسالة. أعرف أن ذلك سيقتلني.

استغرقت إيزابيلا في الخيال بعد إبداء قناعتها تلك، وعندما تحدثت ثانية، كان ذلك كي تقرِّر شكلَ ثوب زفافها.

أنهى حديثهما العاشق الشاب القلِق نفسه، الذي أتى ليهمس بوداعه متنهدًا، قبل أن ينطلق إلى ويلتشير. أرادت كاثرين تهنئته، لكنها لم تعرف ما تقوله، وتكشفت بلاغتها في عينيها فحسب، إذ التمعت فيهما كلُّ معاني الحديث ببلاغة فائقة، وتمكَّن جيمز من فهمها بسهولة. كان يتوق للوصول للمنزل لتحقيق كل آماله، فلم يطل وداعه كثيرًا. كان سيصير أقصر من ذلك حتى، لولا توسُّلات محبوبته المتكررة، راجية منه أن يسرع بالذهاب. استدعته من الباب مرتين، لحرصها على رحيله.

- حقًّا يا مورلاند، عليَّ أن أدفعك للذهاب. ضع في اعتباركَ طول المسافة التي عليكَ أن تقطعها. لا أستطيع تحمُّل رؤيتكَ وأنت تتلكأ هكذا. بحق السماء، لا تضيع المزيد من الوقت. هيا، فلتذهب، انطلق، أنا مصممة على ذلك.

لم تفترق الصديقتان لباقي اليوم، وقد اتَّحد قلباهما أكثر من أي وقتٍ مضى من قبل. مرَّت الساعات وهما منهمكتان في مخططات السعادة الأخوية. كانت السيدة ثورب وابنها على دراية بكلِّ شيء، وبدا أنهما لا ينقصهما سوى الحصول على موافقة السيد مورلاند، حتى يعتبرا خطوبة إيزابيلا أسعد حدثٍ يمكن وقوعه لأسرتهم. سُمِح لهما بالانضمام إلى الحديث وإسداء نصائحهما، وإضافة حصتهما من النظرات الغامضة ذات المغزى، لزيادة نسبة الفضول لدى الشقيقتين الأصغر سنًّا اللتين لم يكونا على دراية بالأمر. بالنسبة إلى مشاعر كاثرين البريئة، بدا هذا النوع الغريب من التحفُّظ غير لطيفٍ على الإطلاق، لكنهم لم ينجحوا في الحفاظ على تلك السرية بدرجة تامة. ولم تكن كاثرين لتمتنع عن الإشارة إلى قسوة ذلك السلوك، لولا فشلهم في الحفاظ بثباتٍ على سرية الموضوع. لكنَّ آن وماريا سرعان ما أراحا قلبها، بأن قالت كلٌّ منهما بدهاءٍ: «أنا على دراية بالأمر». وانقضت الأمسية في نوعٍ من حروب الدهاء، وعرض لبراعة الأسرة. من جهة، كان هناك لغز سر مصطنع، ومن جهة أخرى، اكتشاف غير معلن، وكلاهما على القدر نفسه من الفطنة.

انضمَّت كاثرين إلى صديقتها مرة أخرى في اليوم التالي، لتحاول دعم معنوياتها، ولتمضية الساعات الطويلة المملة قبل موعد تسليم الرسائل. كان ذلك ضروريًّا، لأنه مع اقتراب الوقت المتوقع، ازداد يأس إيزابيلا أكثر وأكثر، وقبل وصول الرسالة، كانت قد أوصلت نفسها لحالة من الكرب الحقيقي. لكن عند وصول الرسالة بالفعل، لم يكن فيها ما يسبِّب الضيق. كانت هذه هي الأسطر الثلاثة الأولى من الرسالة: «لم أجد صعوبة في نيل موافقة والداي الكريمين، وتلقيتُ وعدًا بأنهما سيبذلان قصارى

جهدهما لتحقيق سعادتي»¸ وفي لحظة واحدة، تحوَّل كل شيء لبهجة وأمان. أشرقت ملامح إيزابيلا على الفور، وزال عنها كلُّ همٍّ وقلقٍ. ارتفعت معنوياتها بدرجة فاقت الحدود، وادَّعت من دون ترددٍ أنها أسعد البشر.

عانقت السيدة ثورب ابنتها وقد ترقرقت عيناها بدموع الفرح، كما عانقت ابنها وزائرتها، وكان بوسعها أن تعانق نصف سكان باث بكلِّ سرورٍ. فاض قلبُها حنانًا، وسبقت كل كلمة من حديثها كلمة «العزيز جون»، و«العزيزة كاثرين». وكان من الواجب إشراك «العزيزة آن والعزيزة ماريا» في سعادتهم على الفور. ولم يكن نطق اسم إيزابيلا مشفوعًا بلقب العزيزة الذي تكرر قبله مرتين، أكثر مما تستحق تلك الابنة الحبيبة. كما لم يخفِ جون نفسه سعادته. لم يكتفِ بمدح السيد مورلاند بوصفه واحدًا من أفضل الرجال في العالم فحسب، بل أثنى عليه بعديدٍ من العبارات، وأقسم على ذلك.

كانت الرسالة، مصدر كل هذه البهجة، موجزة، ولا تحوي الكثيرَ سوى التأكيد على نجاحِه في مهمته. تم تأجيل التفاصيل، حتى يتمكَّن جيمز من كتابة رسالة أخرى. لكن كان بوسع إيزابيلا انتظار التفاصيل. اشتمل وعد السيد مورلاند على كل ما كانوا بحاجة إليه، إذ أقسم بشرفه على تسهيل كل الأمور. أما فيما يتعلق بمصدر دخلهما، سواء كان ذلك من خلال منحهما أرضًا أو سندات حكومية، فلم يكن ذلك أمرًا تكترث به روح إيزابيلا النزيهة. كانت تعرف ما يكفي لتشعر بالأمان، وأن الزواج سيتم على نحوٍ سريعٍ ومشرفٍ. انطلق خيالها سريعًا، سارحًا في سعادته المتوقعة. رأت نفسَها بعد بضعة أسابيع قليلة، وهي محطُّ أنظار وإعجاب كل المعارف الجدد في فولرتون، ومثار غيرة جميع الأصدقاء الأعزاء القدامى في بوتني، وتحت إمرتها عربة، وعلى بطاقتها اسمٌ جديدٌ، وعلى إصبعها مجموعة رائعة من الخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة.

عقب التأكد من فحوى الرسالة، استعدَّ جون ثورب للانطلاق، إذ كان قد انتظر وصول الرسالة قبل أن يبدأ رحلته إلى لندن. قال بعد أن وجد كاثرين وحدها في غرفة الاستقبال:

- حسنًا، يا آنسة مورلاند. لقد جئتُ لأودعكِ.

تمنَّت له كاثرين رحلة طيبة. توجَّه نحو النافذة من دون أن يبدو عليه أنه قد سمعها، وتململ وهو يدندن لحنًا، وبدا عليه الانشغال التام.

قالت كاثرين:

- ألن تتأخر في الوصول إلى ديفايزيز؟ ([15])

لم يحر جوابًا، لكن بعد دقيقة من الصمت، اندفع قائلًا:

- أقسم بحياتي إن خطة الزواج هذه رائعة للغاية! إنها فكرة بارعة من جانب مورلاند وبيل. ما رأيكِ فيها، يا آنسة مورلاند؟ أعتقدُ أنها ليست فكرة سيئة.

- أنا متأكدة أنها فكرة جيدة للغاية.

- حقًّا؟ هذه صراحة منكِ، بحق السماء! أنا سعيدٌ لأنكِ لا تعارضين الزواج، على أي حال. هل سبق وأن سمعتِ من قبل الأغنية القديمة القائلة «إن حضور زفاف، يجلب زفافًا آخر»؟ آمل أن تحضري

زفاف بيلا.

- أجل، لقد وعدتُ شقيقتكَ أن أكون برفقتها، إن أمكن ذلك.

التفَّ واصطنع ضحكة حمقاء، وقال:

- كما تعلمين إذن... أقول كما تعلمين إذن، ربما نختبر حقيقة هذه الأغنية القديمة نفسها.

- حقًّا؟ لكنني لا أغني أبدًا. حسنًا، أتمنى لك رحلة سعيدة. سأتناول الغداء مع الآنسة تيلني اليوم، وعليَّ العودة إلى المنزل الآن.

- لا، ليست هناك حاجة لهذه العجلة المقيتة. من يعلم متى سنتمكَّن من الاجتماع معًا مرة أخرى؟ ليس قبل عودتي ثانية، بعد نهاية أسبوعين. سيبدو لي ذلك وكأنهما أسبوعان طويلان لعينان للغاية.

ردَّت كاثرين، بعد أن وجدته ينتظر جوابًا منها، فقالت:

- إذن لِمَ تبقى بعيدًا كل هذا الوقت؟

- ذلك لطف منكِ. هذا ينم على لطفٍ وودٍّ بالغٍ. لن أنسى ذلك سريعًا. لكنكِ تتمتعين باللطف وما إلى ذلك، أكثر من أي شخص آخر، على حد اعتقادي. لطيفة بدرجة فائقة. وأنتِ لا تتمتعين باللطف فحسب، بل لديكِ الكثير والكثير جدًّا من كل شيء. كما أن لديكِ... أقسم بحياتي إنني لا أعرف أحدًا يشبهكِ على الإطلاق!

- أوه! يا إلهي، هناك الكثير من الأشخاص الذين يشبهونني على ما أعتقد، إلا أنهم أفضل كثيرًا. طاب صباحُكَ.

- لكن عليَّ القول يا آنسة مورلاند، إنني سأحضر لإلقاء التحية في فولرتون عمَّا قريب، إذا كان ذلك ملائمًا.

- أرجو أن تفعل. سيكون أبي وأمي في غاية السعادة لرؤيتكَ.

- كما آمل... آمل يا آنسة مورلاند ألا تستائي أنتِ لرؤيتي.

- أوه! يا إلهي، لا، على الإطلاق. هناك القليل جدًّا من الأشخاص الذين أستاء لرؤيتهم. دومًا ما تكون الصحبة مثارًا للبهجة.

- هذه هو رأيي تمامًا. فلتمنحيني صحبة صغيرة مبهجة فحسب. دعيني أحظى بصحبة من أحب من الناس، ودعيني فقط أكون أينما أحب، برفقة من أحب، وليذهب ما سوى ذلك إلى الجحيم. يسعدني أيما سعادة سماع الشيء ذاته منكِ. لكنَّ لدي اعتقادًا، يا آنسة مورلاند، أننا أنا وأنتِ نتفق في التفكير في معظم الأمور.

- ربما نكون كذلك، لكن لم يسبق لي وأن فكرت في الموضوع. وعليَّ الاعتراف بأنني لا أعرف ما هو رأيي الخاص فيما يتعلق بمعظم الأمور.

- ولا أنا، أقسم بذلك. ليس من أسلوبي إزعاج عقلي بما لا يعنيني. مفهومي عن الأشياء بسيط بما فيه الكفاية. أقول دعني فقط أحظى بالفتاة التي أحبها، مع بيتٍ مريحٍ يظلني، فما الذي يهمني سوى ذلك؟ ليست الثروة شيئًا ذا بالٍ. لديَّ دخلٌ خاصٌّ جيدٌ، ولو لم تكن هي تمتلك بنسًا واحدًا، سيكون ذلك أفضل كثيرًا.

- هذا صحيح جدًّا. أشاركَ التفكير في هذه النقطة. إذا كان أحد الطرفين يمتلك ثروة مناسبة، فلا حاجة لأن يمتلك الطرف الآخر شيئًا. لا يهم من منهما يمتلك الثروة، طالما كانت كافية. أكره فكرة حرص الأثرياء على الزواج ممن يدانيهم ثراء. كما أعتقد أن الزواج من أجل الثروة هو أسوأ شيء في الوجود. طاب يومكَ. سيسعدنا رؤيتكَ في فولرتون، متى كان ذلك مناسبًا.

بعدها مضت في طريقها. لم يكن بوسع كل اهتمامه ذاك إبقاؤها لفترة أطول. مع مثل هذه الأخبار التي عليها إبلاغها، ومثل هذه الزيارة التي يتعين عليها الاستعداد لها، لم يكن لديه ما يحثها على تأجيل الرحيل من أجله. رحلت مسرعة، وتركته يفكر بسعادة في حديثه معها وفي تشجيعها الصريح له.

جعلها الشعور بالإثارة الذي أحسَّت به في بادئ الأمر عندما علمت بخطبة شقيقها، تتوقع إحساس السيد والسيدة ألين بقدرٍ كبيرٍ من الإثارة أيضًا عند إبلاغهما بالأخبار الرائعة. كم كانت خيبة أملها كبيرة! هذا الموضوع المهم الذي مهَّدت هي له بالكثير من الكلمات، كان قد توقعه كلاهما منذ وصول شقيقها. اقتصر تعبيرهما عن مشاعرهما حيال الأمر على أمنياتهما للشابين بالسعادة، مع ملاحظة من جانب السيد ألين بخصوص جمال إيزابيلا، ومن جانب السيدة ألين بشأن كون إيزابيلا سعيدة الحظ للغاية. بدا الأمر لكاثرين كأنهما يفتقران للعاطفة على نحوٍ مثيرٍ للدهشة. ومع ذلك، فإن الكشف عن السر العظيم الخاص بذهاب جيمز إلى فولرتون في اليوم السابق، أثار بعض المشاعر لدى السيدة ألين. لم تستطع الاستماع لذلك بهدوءٍ تامٍّ، لكنها أعربت عن أسفها مرارًا وتكرارًا لأنه أخفى ذلك، وتمنت لو أنها كانت قد عرفت نواياه، كما تمنت لو كانت رأته قبل رحيله، إذ كانت حينها ستطلب منه بالتأكيد إبلاغ أطيب تحياتها لوالده ووالدته، وأطيب أمنياتها لآل سكينر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثاني

- 1 -

كانت توقعات كاثرين بالاستمتاع بزيارتها لشارع ميلسوم عالية جدًّا، لدرجة أنه لم يكن هناك مفرٌّ من خيبة الأمل. هكذا، وعلى الرغم من أن الجنرال تيلني استقبلها بتهذيبٍ شديدٍ، ورحَّبت بها ابنته بلطفٍ، وعلى الرغم من وجود هنري في المنزل، وعدم وجود أي أفراد آخرين، إلَّا أنَّها وجدت عند عودتها، ومن دون قضاء ساعات كثيرة لدراسة مشاعرها، أنها ذهبت لزيارتها تلك وهي تعد نفسها لسعادة لم تنل منها شيئًا. بدلًا من أن تجد نفسها تعرفت على الآنسة تيلني بصورة أفضل من خلال حديثهما ذلك اليوم، بدت كأنها ليست متقاربة معها بنفس القدر كما كانت في السابق. وبدلًا من أن ترى هنري تيلني في ضوء أفضل من السابق، في حفل عائلي هادئ، وجدته لم يسبق له وأن تحدث بمثل هذا القدر الضئيل قط، ولم يبدُ غير ودودٍ لهذا الحد من قبل. وعلى الرغم من كياسة والدهما الشديدة معها، وعلى الرغم من شكره ودعواته لها ومجاملاته، فقد كان الابتعاد عنه بمثابة الإنعتاق. حيَّرها التفكيرُ في كل ذلك. لا يمكن أن يكون ذلك بسبب الجنرال تيلني. لم يكن هناك أدنى شكٍّ في كونه رجلًا لطيفًا، ودودًا، وفاتنًا لغاية، إذ كان طويلًا ووسيمًا، إلى جانب كونه والد هنري. لا يمكن أن يكون هو المسؤول عن افتقار أبنائه للمرح، ولا عن افتقادها للمتعة بصحبته. كانت تأمل أن يكون ذلك الأمر الأول عارضًا، أما ذلك الأخير، فلم يسعها أن تعزوه سوى إلى حماقتها هي. عندما سمعت إيزابيلا تفاصيل الزيارة، قدمت تفسيرًا مختلفًا:

- كان كل ذلك بدافع من الكبرياء. الكبرياء، والفخر الذي لا يطاق، والغرور!

لطالما راودها الشك في أنَّ تلك الأسرة بالغة الكبر، وقد أكد لها ذلك الأمر شكوكَها. لم تسمع طوال حياتها من قبل عن سلوك يداني وقاحة الآنسة تيلني! لم تقم بواجباتها كمضيفة على نحوٍ يتسم بالتهذيب! وتصرفت مع ضيفتها بمثل هذه الغطرسة! وتحدثت معها بالكاد!

- لم يكن الأمر بهذا السوء، يا إيزابيلا. لم يكن هناك أي غطرسة، بل كانت مهذبة للغاية.

- أوه! لا تدافعي عنها! وشقيقها ذاك، الذي بدا متعلقًا بكِ! يا إلهي! حسنًا، من الصعب فهم طبيعة مشاعر بعض الناس. إذن فقد نظر لكِ بالكاد مرة واحدة طوال اليوم؟

- لم أقل ذلك. لكنه لم يبدُ في حالة مزاجية جيدة.

- يا لها من وضاعة! من بين كل الأشياء في العالم، فإن أكثر ما أكرهه هو التقلُّب. دعيني أتوسل إليكِ ألا تفكري فيه مرة ثانية أبدًا، يا عزيزتي كاثرين. فهو حقًّا لا يستحقكِ.

- لا يستحقني! لا أعتقد أنه يفكر بي على الإطلاق.

- هذا هو ما أقوله بالضبط. إنه لا يفكر بكِ على الإطلاق. يا له من متقلِّب! أوه! كم يختلف عن أخيكِ وأخي! أعتقد حقًّا أن جون لديه القلب الأكثر ثباتًا.

- لكن بالنسبة إلى الجنرال تيلني، أؤكدِ لكِ أنه سيكون من المستحيل لأي شخص أن يتصرف معي بقدرٍ أكبر من الكياسة والاهتمام. بدا أنَّ همَّه الوحيد هو الترفيه عني وإسعادي.

- أوه! لا أعرف عنه ما يسيء. لا أظن أنه يتصف بالكبر. أعتقد أنه سيدٌ نبيل للغاية. إنّ جون يقدِّره للغاية، وفي رأي جون...

- حسنًا، سأرى كيف سيتصرفون معي هذا المساء، حيث سنلتقي في قاعة الحفلات.

- وهل يتوجب عليَّ الذهاب؟

- ألا تنتوين ذلك؟ ظننتُ أنه تمت تسوية كل شيء.

- لا، لكن بما أنكِ مصممة، فلا يمكنني أن أرفض لكِ طلبًا. لكن لا تصري على أن أكون لطيفة للغاية، إذ إن قلبي، كما تعلمين، سيكون على بُعد أربعين ميلًا. أما بالنسبة إلى الرقص، فأرجو ألا تذكريه، فهذا غير وارد تمامًا. أعتقد أن تشارلز هودجز سيضجرني بشدة، لكنني سأقاطع حديثه. في الغالب سيخمن السبب، وهذا هو بالضبط ما أريد تجنبه، لذا سأصمم على أن يحتفظ بتخمينه لنفسه.

لم يؤثر رأي إيزابيلا في آل تيلني على صديقتها. كانت على ثقة بعدم وجود أي وقاحة في سلوك الأخ أو الأخت، ولم تصدق وجود أي كبرٍ في قلبيهما. وقد تأكد يقينها ذلك المساء: قابلها أحدهما بنفس اللطف، والآخر بنفس الاهتمام مثل السابق. بذلت الآنسة تيلني جهدًا كي تظل بجانبها، وطلب منها هنري الرقص.

بعد أن سمعت في اليوم السابق أنَّه من المتوقع في أي لحظة وصول شقيقهما الأكبر، الكابتن تيلني، لم تصبها الحيرة في تخمين اسم الشاب الوسيم البالغ الأناقة الذي لم يسبق لها وأن رأته من قبل، الذي بدا من الواضح أنه صار عضوًا في مجموعتهم الآن. تأمَّلته بإعجابٍ شديدٍ، وافترضت أنه من الممكن أن يعتبره البعض أكثر وسامة من أخيه، رغم أنه بدا في نظرها أكثر اختيالًا وملامحه أقل جاذبية. كان أدنى ذوقًا وسلوكًا من دون شكٍّ، إذ إنها لم تسمعه وهو يحتج على فكرة مشاركتهم في الرقص فحسب، بل إنه سخر علنًا من هنري لأنه ظنَّ ذلك ممكنًا. يمكننا الاستنتاج من هذا الحدث الأخير أنه أيًّا كان رأي بطلتنا بالكابتن تيلني، فلم يكن إعجابه هو بها من النوع الخطير الذي يمكن أن يتسبَّب في عداوة بين الشقيقين، أو في الإزعاج للسيدة. لا يمكن أن يكون هو المحرض الذي يدفع ثلاثة أشرار يرتدون معاطف الفرسان، ليجبروها على ركوب عربة صغيرة مغلقة يجرها أربعة خيول، تنطلق بسرعة لا تُصدق.

في هذه الأثناء، لم تنزعج كاثرين بالتفكير في نذيرٍ بالشر كهذا، ولا في أي شرٍ على الإطلاق، سوى صغر مجموعة الراقصين المصاحبة لهم. نعمت بالسعادة كالمعتاد بصحبة هنري تيلني، واستمعت لكلِّ ما قاله بعينين لامعتين، وكما وجدته لا يُقاوم، صارت كذلك هي الأخرى.

في نهاية الرقصة، أتى الكابتن تيلني نحوهما مرة أخرى، وسحب شقيقه جانبًا، مما أثار استياء كاثرين. ابتعدا معًا وهما يتهامسان، وعلى الرغم من أن حساسيتها الفائقة لم تنزعج على الفور، وتفترض أنه لا بُدَّ وأن يكون الكابتن تيلني قد سمع بعض الأحاديث الخبيثة عنها، فأسرع لإبلاغ شقيقه بها الآن، على أمل التفريق بينهما إلى الأبد، إلا أنها لم يكن بوسعها رؤية شريكها وهو يُسحَب بعيدًا عن أنظارها من دون الشعور بعدم الارتياح. طال قلقُها لمدة خمس دقائق، وبدأت تظن أنها طالت للغاية حتى بلغت ربع ساعة، عندما عاد كلاهما، واتضح الأمر عندما طلب هنري أن يعرف ما

إذا كانت تعتقد أن صديقتها، الآنسة ثورب، سيكون لديها أيُّ مانعٍ للرقص، حيث إنّ شقيقه سيسعد لو تمَّ تقديمه إليها. أجابت كاثرين على الفور من دون ترددٍ، أنها واثقة جدًّا من أنَّ الآنسة ثورب لا ترغب في الرقص على الإطلاق. وصل هذا الرد القاسي لذلك الآخر، فابتعد على الفور.

قالت كاثرين:

- أعرف أن شقيقكَ لن يمانع، لأنني سمعته يذكر من قبل مدى كرهه للرقص. لكن التفكير في ذلك كان لطفًا بالغًا منه. أعتقد أنه شاهد إيزابيلا وهي جالسة، وتخيل أنها قد تريد شريكًا، لكنه مخطئ للغاية، فهي لن تقوم للرقص بأي حالٍ من الأحوال.

ابتسم هنري قائلًا:

- إنكِ تتجشمين أقل قدرٍ من العناء في محاولة فهم الدوافع وراء سلوك الآخرين.

- لماذا؟ ما الذي تعنيه؟

- أنتِ لا تفكرين كيف يمكن أن يتأثر الشخص الآخر، وما الدوافع التي يمكنها التأثير على مشاعر ذلك الشخص، مع الأخذ في الاعتبار بعوامل السن والمكانة والعادات المحتملة في الحياة. لكنكِ تفكرين في الكيفية التي ستتأثرين بها أنتِ، وما الدوافع التي ستدفعكِ للتصرف بهذه الطريقة أو تلك.

- لا أفهمكَ.

- إذن فنحن غير متكافئين في هذا على الإطلاق، لأنني أفهمكِ تمامًا.

- أنا؟ أجل، لا أستطيع الحديث بشكلٍ جيدٍ، بما يكفي لأن أصبح غير مفهومة.

- أحسنتِ! تهكُّم رائع على اللغة الحديثة.

- لكن أرجو أن تخبرني بما تعنيه.

- حقًّا؟ أتريدين ذلك بالفعل؟ لكنكِ لا تدركين عواقب ذلك. سيعرضكِ لحرجٍ بالغٍ، وسيؤدي لخلافٍ بيننا بالتأكيد.

- لا، لا، لن يحدث أيٌّ من ذلك. أنا لا أشعر بالخوف.

- حسنًا إذن، كل ما قصدته هو أن كونكِ عزوتِ رغبة شقيقي في الرقص مع الآنسة ثورب إلى لطف طباعه فحسب، أقنعني بأنكِ تفوقين العالم بأسره في لطف الطباع.

تضرَّج واجه كاثرين بالحمرة، ونفت حديثه ذاك، فتأكدت توقعات الرجل. ومع ذلك، كان هناك شيءٌ في كلماته عوَّضها عن الارتباك الذي عانته، وقد شغل ذلك الشيء تفكيرها بدرجة كبيرة، حتى إنها سرحت لبعض الوقت، ونسيت الحديث أو الاستماع، وكادت تنسى أين تكون، حتى استفاقت على صوت إيزابيلا، فرفعت عينيها وشاهدتها مع الكابتن تيلني، وهما يستعدان للمشاركة في الرقص.

هزّت إيزابيلا كتفيها وابتسمت، وكان ذلك هو التفسير الوحيد الذي استطاعت تقديمه حينها لهذا التغيُّر الهائل الذي طرأ عليها. لكن ذلك لم يكفِ كي تتفهم كاثرين الأمر، فتحدثت إلى شريكها بدهشة واضحة:

- لا أعرف كيف يمكن أن يكون ذلك قد حدث! كانت إيزابيلا عازمة بشدة على ألا ترقص.

- وهل سبق وأن غيرت إيزابيلا رأيها من قبل؟

- أوه! لكن، لأن... وشقيقك! بعد ما نقلته أنتَ إليه على لساني، كيف أمكنه التفكير في أن يذهب ليطلب منها ذلك؟

- لا يمكنني الاندهاش لذلك. لقد طلبتِ مني الاندهاش بسبب صديقتكِ، لذا فقد فعلتُ. أما بالنسبة إلى شقيقي، فعليَّ الاعتراف بأنَّ سلوكَه حيال هذا الأمر لم يزد عمَّا توقعته منه بالفعل. كان جمال صديقتكِ عاملَ جذبٍ صريحًا، أما عن عزمها، كما تعرفين، فلا يمكن أن يفهمه سواكِ.

- أنت تضحك. لكنني أؤكد لك، إن إيزابيلا حازمة جدًّا بشكلٍ عامٍّ.

- هذا هو أقل ما ينبغي أن يُقال عن أي شخص. فأن يكون المرء حازمًا على الدوام، يعني أن يكون عنيدًا في معظم الوقت. من حسن الحكم على الأمور، معرفة متى يكون الوقت الملائم لإرخاء شدة التصميم. وبصرف النظر عن أخي، فأنا حقًّا أعتقد أنَّ الآنسة ثورب لم تخطئ بأي حالٍ من الأحوال بتركيزها على اللحظة الراهنة.

لم تتمكَّن الصديقتان من الاجتماع لتبادل أي حديث سري، حتى انتهاء الرقص. لكن بعد ذلك، وبينما كانتا تتجولان في أرجاء القاعة بذراعين معقودتين، أوضحت إيزابيلا موقفها.

- لا أتعجب اندهاشكِ هذا، وفي الواقع فأنا مرهقة حد الموت! إنَّه ثرثارٌ للغاية! ربما كان مسلٍّ بما فيه الكفاية لو لم يكن عقلي منشغلًا. لكنني كنتُ على استعداد لدفع ثروة كي أتمكَّن من الجلوس.

- لمَ لمْ تفعلي إذن؟

- أوه! يا إلهي! كنت سأبدو غريبة للغاية، وأنتِ تعلمين كم أكره ذلك. لقد رفضتُ طلبه قدر استطاعتي، لكنه لم يقبل الرفض. ليست لديكِ أي فكرة كم ضغط عليَّ. ترجَّيته أن يعذرني، ويبحث لنفسه عن شريكة أخرى، لكن لا، ليس هو من يقبل ذلك. بعد أن تطلَّع إليَّ، لم يعد هناك أي شخصٍ آخر في القاعة بوسعه تحمُّل التفكير فيه. ولم يكن يرغب في الرقص فحسب، بل أراد أن يكون برفقتي. أوه! يا له من هُراء! أخبرته أنه اختار طريقة من المستبعد تمامًا أن تؤثر عليَّ، فمن بين كل الأشياء في العالم، لا أكره شيئًا بقدر الخطب الرائعة والمجاملات، لذا... لذا وجدتُ أنني لن أنعم بالهدوء لو لم أنهض للرقص. بالإضافة إلى ذلك، ظننتُ أن السيد هيوز، الذي قدَّمه إليَّ، قد يستاء لو لم أفعل. وأنا على ثقة من أن شقيقكِ العزيز كان سيشعر بالحزن لو ظللتُ جالسة طيلة الأمسية. كم أنا سعيدة لانتهائها! إن روحي مرهقة أيما إرهاق من الاستماع إلى هرائه ذاك. ونظرًا لكونه شابًّا أنيق المظهر، فقد لاحظتُ أنَّ كلَّ الأعين تراقبنا.

- إنَّه وسيمٌ جدًّا بالفعل.

- وسيم! أجل، أعتقد أنه يمكن اعتباره كذلك. أظن أنه يحظى بإعجاب الناس بصفة عامة. لكنه ليس من النوع الذي يروق لي على الإطلاق. فأنا أكره البشرة المتوردة والأعين الداكنة في الرجال. لكنه مع ذلك حسن المظهر للغاية، وأنا متأكدة أنه فائق الغرور. لقد قللتُ من شأنه عدة مرات بطريقتي الخاصة، كما تعلمين.

عندما التقت الشابتان مرة أخرى، كان لديهما موضوعٌ أكثر إثارة بكثيرٍ لمناقشته. كانت رسالة جيمز مورلاند الثانية قد وصلت، وتم توضيح النوايا الطيبة لوالده بصورة كاملة. كان سيمنح ابنه، بمجرد بلوغه السن الملائم لذلك، منصبَ كاهن الأبرشية، إذ كان السيد مورلاند نفسه هو من يشغل ذلك المنصب في الوقت الحالي والمسؤول عن تعيين من يخلفه فيه، وكان ذلك يدر دخلًا سنويًّا قدره قرابة أربعمائة جنيه. لم يكن سيخصص له مجرد جزءٍ ضئيلٍ من دخل الأسرة، بوصفه واحدًا من بين عشرة أبناء. علاوة على ذلك، ضمن له ممتلكات تدر عائدًا يعادل ذلك على الأقل، كميراثٍ في المستقبل.

أعرب جيمز عن امتنانه لذلك بصورة ملائمة، وأوضح أنَّ عليهما الانتظار ما بين سنتين وثلاث سنوات قبل أن يتمكَّنا من الزواج. ومهما كان ذلك الانتظار مثيرًا للضيق، إلا أنه لم يكن أكثر مما توقع، وبالتالي تحمله من دون استياء. لم يكن لدى كاثرين أي توقعات حول الموضوع، كما لم يكن لديها أي فكرة عن دخل والدها، بالتالي بنت حكمها على الأمور تبعًا لحكم شقيقها، وشعرت بالرضا مثله، وهنَّأت إيزابيلا بحرارة لترتيب كل شيء على هذا النحو بشكلٍ يبعث على السرور.

قالت إيزابيلا والجدية تكسو ملامحها:

- إنه أمرٌ رائعٌ للغاية.

قالت السيدة ثورب اللطيفة، وهي تنظر لابنتها بقلقٍ:

- لقد تصرَّف السيد مورلاند على نحوٍ فائق الكرم بالفعل. أتمنى لو أنني استطعت أن أفعل مثله فحسب. لا يمكن للمرء أن يتوقع منه المزيدَ، كما تعرفين. إذا وجد نفسه قادرًا على تقديم المزيد بمرور الوقت، أعتقد أنه سيفعل. فأنا على يقينٍ من أنَّه رجلٌ رائعٌ، طيب القلب. إنَّ أربعمائة جنيه تعد دخلًا ضئيلًا بالفعل ليبدأ به المرء حياته، لكن رغباتكِ، يا عزيزتي إيزابيلا، معتدلة للغاية، وأنت لا تضعين في اعتباركِ مدى ضآلة مطالبكِ يا عزيزتي.

- لا أتمنى المزيد من أجل نفسي، لكنني لن أتحمَّل أذية عزيزي مورلاند، وأن أجعله يحيا بدخلٍ يكفي بالكاد ليجد المرء احتياجاته الأساسية في الحياة. أما بالنسبة إليَّ، فذلك لا يعني شيئًا. أنا لا أفكر في نفسي أبدًا.

- أعلم أنكِ لا تفعلين ذلك، يا عزيزتي. وستجدين مكافأتكِ دومًا في المودة التي يكنُّها لكِ الجميع بسبب ذلك. لم تكن هناك امرأةٌ شابة محبوبة قطٌّ، مثلما يحبكِ جميع من يعرفونكِ. وأعتقد أنه حينما يراكِ السيد مورلاند، يا ابنتي العزيزة... لكن دعينا لا نزعج عزيزتنا كاثرين بالحديث عن مثل هذه الأشياء. لقد تصرف السيد مورلاند بكرمٍ بالغٍ، كما تعرفين. لطالما سمعتُ أنَّه رجلٌ رائعٌ. وأنتِ تعلمين يا

عزيزتي أنه لا يجب علينا أن نفترض أنّه كان سيقدِّم مبلغًا أكبر، لو كنت أنتِ تمتلكين ثروة أكبر، فأنا على يقينٍ من أنه رجلٌ كريمٌ للغاية.

- أنا على ثقة من أنه لا يمكن لأحدٍ أن يقدِّر السيد مورلاند أكثر مما أفعل أنا، لكن لكلِّ شخص أوجه قصور، كما تعلمين. ولكل شخص الحق في أن يفعل ما يحلو له بماله الخاص.

تأذَّت كاثرين من هذه التلميحات، وقالت:

- أنا متأكدة للغاية أنَّ والدي وعد ببذل قصارى ما في جهده.

تمالكت إيزابيلا نفسها، وقالت:

- ليس هناك أدنى شك في ذلك، يا عزيزتي كاثرين. وأنتِ تعرفينني جيدًا بدرجة كافية للتأكد من أنَّ دخلًا أقل من ذلك بكثيرٍ سيرضيني. ليست الرغبة في المزيد من المال هي ما يجعل روحي المعنوية متدنية بعض الشيء في الوقت الحالي. أنا أكره المال، ولو كان بوسعنا الزواج الآن بدخلٍ قدره خمسين جنيهًا في العام فحسب، لتحققت كلُّ أمنياتي. آه! يا عزيزتي كاثرين، لقد كشفتِ أمري. هذا هو ما يؤلم: فترة العامين والنصف الطويلة للغاية، التي يجب انقضاؤها، قبل أن يتمكَّن أخوك من تقلُّد منصب الكاهن.

قالت السيدة ثورب:

- أجل، يا عزيزتي إيزابيلا. نحن نرى ما في قلبكِ بوضوحٍ تامٍّ. ليست لديكِ أي أقنعة. ونحن نتفهَّم تمامًا انزعاجكِ الحالي، وعلى الجميع أن يحبونكِ بقدرٍ أكبر، لمثل هذه المشاعر النبيلة الصادقة.

بدأ شعور كاثرين بالضيق يتراجع. حاولت تصديق أن تأخير الزواج هو السبب الوحيد لضيق إيزابيلا. وعندما رأتها في لقائهما التالي مرحة وودودة مثل أي وقتٍ مضى، حاولت أن تنسى أنها ظنَّت خلاف ذلك لوهلة. سرعان ما وصل جيمز بعد وصول رسالته، وتم استقباله بأكبر قدرٍ ممكنٍ من اللطف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

دخل آل ألين الأسبوع السادس من إقامتهما في باث، وبقي السؤال ما إذا كان يجب أن يصبح هذا هو الأسبوع الأخير مطروحًا لبعض الوقت، واستمعت كاثرين للحديث وقلبُها يخفق بشدة. كان انتهاء معرفتها بآل تيلني على هذا النحو السريع شرًّا لا يمكن أن يوازنه أيُّ شيء. بدت كلُّ سعادتها على المحك، بينما ظلَّ الموضوع معلَّقًا، إلى أن استقرت الأمور بعد أن تقرَّر مدُّ إيجار السكن لمدة أسبوعين آخرين. لم تشغل كاثرين نفسها بكثيرٍ من التوقعات بخصوص ما يمكن أن يقدمه لها هذان الأسبوعان الإضافيان، بخلاف متعة رؤية هنري تيلني في بعض الأحيان. في مرة أو مرتين بالفعل، بعد أن علمتها خطبة جيمز ما يمكن حدوثه، تمادت في أمنياتها السرية مفكرة أنه «ربما»... لكن بصفة عامة، حدت من أفكارها متعة وجودها معه في الحاضر. كان الحاضر الآن مؤلفًا من ثلاثة أسابيع أخرى، وكانت سعادتها مضمونة لتلك الفترة، بينما بقية حياتها تبدو بعيدة بدرجة لا تثير سوى قليلٍ من الاهتمام. خلال صباح اليوم الذي شهدت فيه تلك الترتيبات، ذهبت لزيارة الآنسة تيلني، وفاضت منها مشاعر البهجة. كان مقدَّرًا أن يكون ذلك اليوم عصيبًا، إذ ما إن أعربت عن سعادتها لكون السيد ألين قد مدَّ فترة إقامته، حتى أخبرتها الآنسة تيلني أن والدها قرَّر للتوِّ الرحيل عن باث بعد نهاية أسبوع آخر. كانت هذه ضربة قاسية! بدا القلق السابق صباح ذلك اليوم كأنَّه مريحٌ وهادئ مقارنة بخيبة الأمل الحالية. ظهرت التعاسة على ملامح كاثرين، وبنبرة قلقٍ حارٍّ، ردَّدت كلمات الآنسة تيلني الأخيرة قائلة:

- بعد نهاية أسبوع آخر!

- أجل، نادرًا ما يمكن إقناع والدي بإعطاء المياه المعدنية هنا الفرصة العادلة التي أعتقد أنها تستحقها، حتى يظهر تأثيرها الصحي. أصابته خيبة الأمل لعدم حضور بعض الأصدقاء الذين توقَّع لقاءهم هنا. وبما أنه بصحة جيدة الآن، فهو في عجلة من أمره للعودة إلى المنزل.

قالت كاثرين باكتئابٍ:

- أنا آسفة جدًّا لذلك. لو كنت أعرف هذا من قبل...

قالت الآنسة تيلني بنبرة إحراجٍ:

- ربما بوسعكِ التكرُّم... سيسعدني للغاية لو...

وضع دخول والدها حدًّا لكياستها، التي كانت كاثرين قد بدأت تتمنَّى لو أنها مقدمة للتعبير عن رغبتها في التراسل. بعد أن خاطبها بتهذيبٍ كالمعتاد، استدار لابنته قائلًا:

- حسنًا، يا إليانور، هل لي أن أهنئكِ لنجاحكِ في طلبكِ من صديقتكِ الجميلة؟

- كنت قد شرعتُ في الطلب للتوِّ، يا سيدي، عندما دخلتَ.

- حسنًا، فلتواصلي الحديث، بكلِّ تأكيدٍ. أنا أعلم كم تتمنين ذلك الأمر.

ومن دون أن يترك لابنته الفرصة في الحديث، واصل قائلًا:

- يا آنسة مورلاند، إن ابنتي لديها طلبٌ جريء للغاية. ربما تكون أخبرتكِ أننا سنغادر باث بعد أسبوعٍ من يوم السبت؛ وصلتني رسالة من وكيل أعمالي يخبرني فيها أنهم بحاجة لوجودي في المنزل. وبعد أن خاب أملي في لقاء ماركيز لونجتاون والجنرال كورتني هنا، وهما من أقدم أصدقائي، لم يعد هناك ما يبقيني في باث لأكثر من ذلك. ولو استطعنا تحقيق مطلبنا الأناني منكِ، سنغادرها من دون أي ندم. باختصار، هل بوسعنا إقناعكِ بالرحيل عن هذا الميدان الذي يعج بمحاولات لفت الانتباه والفوزِ بالمجاملات، وإرضاء صديقتكِ إليانور بصحبتكِ لها في جلوسترشير؟ يخجلني للغاية طلب هذا منكِ، على الرغم من أن وقاحته قطعًا ستبدو أعظم لكل من في باث سواكِ أنتِ. إن تواضعًا مثل تواضعكِ هذا... لكنني لن أحرجِك أبدًا بذلك المديح الصريح. لو أمكن إقناعكِ بتشريفنا بزيارتكِ، فستجعليننا سعداء بدرجة تتجاوز التعبير. من الصحيح أننا لا نستطيع أن نقدِّم لكِ شيئًا يضاهي مباهج هذا المكانِ المفعم بالحياة، ولا يمكننا إغراؤكِ بوسائل التسلية أو الفخامة، إذ إن أسلوب حياتنا، كما ترين، بسيطٌ وبعيدٌ عن الادعاء. ومع ذلك، لن ندَّخر جهدًا من جانبنا كي نجعل دير نورثانجر مكانًا مريحًا بقدر الإمكان.

دير نورثانجر! كانت هذه الكلمات مثيرة للغاية، وأوصلت مشاعر كاثرين لأعلى ذروة من السعادة. بالكاد تمكَّن قلبُها العامر بالامتنان والسعادة من كبح جماحه، لتخرج تعبيراته في حدود درجات الهدوء المقبولة. أن تتلقَّى دعوة مغرية لهذا الحدِّ! وأن يطلب أحدُهم صحبتَها بمثل هذه الحرارة! حوت تلك الدعوة كلَّ ما هو نبيلٌ ويبعث على الارتياح، وكلَّ متعة حاضرة، وكل أمل في المستقبل. أبدت موافقتها بحماسٍ، بشرط الحصول على موافقة والدها ووالدتها. قالت:

- سأرسل خطابًا إلى المنزل على الفور، ولو لم يعترضا، وأتوقَّع أنهما لن يفعلا...

لم يكن الجنرال تيلني أقل تفاؤلًا، بعد ذهابه بالفعل لزيارة أصدقائها في شارع بولتيني وحصوله على موافقتهما لطلبه. قال:

- بما أنهما وافقا على ذهابكِ، فبوسعنا توقع موافقة الجميع.

بدت الآنسة تيلني صادقة رغم هدوئها في مجاملاتها التي تلت ذلك. وخلال دقائق، صار الأمر محسومًا تقريبًا، باستثناء الموافقة المنتظرة من فولرتون.

دفعت أحداث ذلك الصباح مشاعر كاثرين للتذبذب بين القلق والاطمئنان وخيبة الأمل، إلَّا أنَّها استقرت الآن لتنعم بسعادة كاملة. أسرعت عائدة إلى المنزل لتكتب رسالتها بروحٍ معنوية مرتفعة حد النشوة، وهنري في قلبها واسم دير نورثانجر على شفتيها. اعتمد السيد والسيدة مورلاند على حسن تقدير الصديقين اللذين أوكلا إليهما أمر ابنتهما بالفعل، ولم يساورهما أي شكٍّ في مدى لياقة علاقة التعارف التي تمَّت تحت أعينهما، لذا أرسلا خطابًا بموافقتهما على زيارتها لجلوسترشير. رغم أن ذلك التساهل لم يكن أكثر مما كانت تأمله كاثرين، إلا أنه أكد قناعتها بأنها تفوق أي مخلوق آخر، من ناحية الأصدقاء والحظ، والظروف والفرص. بدا كأنَّ كلَّ شيء يتعاون لصالحها. بفضل كرم أصدقائها الأوائل، آل ألين، تعرَّضت لمواقف وجدت فيها كلَّ ألوان المتعة. أسعدها أن وجدت من

يبادلها كل مشاعرها، وأن تتحقق أمنياتها. نجحت في إقامة علاقة مع كل من تعلقت بهم. كانت إيزابيلا ستصير بمثابة شقيقة لها، وبهذا ضمنت محبتها. أما آل تيلني، الذين أرادت الفوز بحسن ظنهم أكثر من أي شخص آخر، فقد فاقوا حتى أقصى أمانيها بتلك الطريقة اللطيفة التي كانت علاقتهم ستستمر بها. كانت ستصبح زائرتهم المصطفاة، وستقضي أسابيع تحت نفس السقف مع أكثر شخصٍ تقدِّر صحبته، وبالإضافة إلى كل ما سبق، فقد كان هذا السقف هو سقف دير! كان شغفها بالمباني القديمة يقع في المرتبة التالية لشغفها بهنري تيلني. وكانت القلاع والأديرة عادة تملأ ما تبقَّى من أحلامِها التي كانت تخلو من صورته هو. ظلَّت رؤية واستكشاف إما متاريس وأبراج أحدهما، أو أروقة الآخر، أمنية عزيزة لها لأسابيع عديدة، على الرغم من أنَّه بدا من المستحيل أن تطمع فيما هو أكثر من مجرد زيارة لمدة ساعة فحسب. ومع هذا، كان ذلك سيتحقق. من وسط كل الفرص السانحة ما بين منزلٍ، أو بيتٍ ريفي، أو ضيعة، أو قصرٍ أو كوخٍ، اتضح أن نورثانجر كان ديرًا، وكانت هي ستسكنه. ستصبح دهاليزه الطويلة الرطبة وحجيراته الضيقة وكنيسته المهدمة في متناولها اليومي، ولم تستطع أن تخمد تمامًا آمالها في وجود بعض الأساطير التقليدية، أو بعض الذكريات المروعة حول راهبة منكوبة سيئة الطالع.

بدا أمرًا مثيرًا للدهشة، ألا يتباهى أصدقاؤها لامتلاكهم مثل ذلك المسكن، وأن يتصفوا بالتواضع لهذا الحدِّ. كان التفسير الوحيد هو أنهم ألِفوا الأمر منذ الصغر. لم يساورهم أيُّ شعورٍ بالكبر بسبب امتياز نعموا به منذ مولدهم. ولم تكن فخامة مسكنهم تشكِّل لهم أي أهمية، أكثر مما كانتً فخامة ملبسهم تمثل لهم شيئًا ذا بالٍ.

حرصت على الاستفسار عن كثيرٍ من الأشياء من الآنسة تيلني، إلَّا أنَّ أفكارها كانت صاخبة للغاية، لدرجة أنه حتى بعد الإجابة عن استفساراتها تلك، لم تصبح متأكدة أكثر من ذي قبل، ما إذا كان نورثانجر ديرًا مترفًا إبان حركة الإصلاح الديني، ومن كونه سقط في يد أحد أسلاف آل تيلني عقب حل الأديرة، ومن كون جزءٌ كبيرٌ من المبنى القديم لا يزال يشكل جزءًا من المسكن الحالي، رغم تهدم بقيته، ولا ما إذا كان يقع في وادٍ خفيضٍ، تحميه من الشمال والشرق غاباتٌ من شجر البلوط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3 -

بينما هي ممتلئة سعادة على هذا النحو، لم تكد كاثرين تدرك أنَّ يومين أو ثلاثة قد مرُّوا من دون أن ترى إيزابيلا لأكثر من بضعة دقائق مجتمعة. بدأت تدرك ذلك لأول مرة وتفتقد الحديث معها، بينما كانت تتجوَّل في قاعة المضخات ذات صباحٍ بجانب السيدة ألين، من دون أن يكون لديها ما تقوله أو تسمعه. ما إن شعرت بافتقادها للصداقة لخمس دقائق، حتى ظهرت صديقتها، ودعتها لتبادل حديثٍ سري، وقادتها نحو أحد المقاعد. قالت بينما هما تجلسان على مقعدٍ بين البابين، يمكن أن يرى المرء منه جميع الأشخاص الذين يدخلون من أي منهما:

- هذا مكاني المفضل. إنه منزوٍ للغاية.

لاحظتْ كاثرين أنَّ عيني إيزابيلا تتجهان باستمرارٍ نحو بابٍ أو آخر، كأنَّها تتوقع أحدهم بتلهفٍ، وتذكرت كم اتهمتها إيزابيلا ظلمًا بأنها ماكرة، فاعتقدت أن هذه اللحظة الحاضرة هي فرصة ملائمة لتكون كذلك بالفعل. لذا قالت بمرحٍ:

- لا تقلقي، يا إيزابيلا، سيحضر جيمز قريبًا.

أجابتها إيزابيلا:

- ها! يا عزيزتي، لا تعتقدي أنني حمقاء بدرجة تجعلني أرغب في إبقائه إلى جواري على الدوام. سيكون الأمرُ فظيعًا لو كنَّا معًا على الدوام، كما أن الجميع هنا سيسخرون منَّا بسبب ذلك. أنتِ ذاهبة إلى نورثانجر، إذن! أنا سعيدة جدًّا لذلك. إنه واحدٌ من أرقى الأماكن العتيقة في إنجلترا، حسب ما فهمت. سأعتمد عليكِ لوصف تفصيلي للمكان.

- سأبذل قصارى جهدي بالتأكيد، لأصفه لكِ. لكن عمَّن تبحثين؟ هل شقيقتاكِ قادمتان؟

- أنا لا أبحث عن أحدٍ. يجب أن يوجه المرءُ نظرَه نحو مكانٍ ما، وأنتِ تعرفين عادتي الحمقاء تلك، التي تجعلني أثبت نظري عندما أكون مستغرقة في التفكير. أنا شاردة للغاية، وأعتقد أنني أكثر الأشخاص شرودًا في العالم. يقول تيلني إنَّ هذا هو الحال دومًا مع بعض العقول التي لها طابعٌ معينٌ.

- لكنني اعتقدتُ، يا إيزابيلا، أنَّ لديكِ شيئًا محددًا ترغبين في إخباري به؟

- أوه، أجل، لديَّ بالفعل. لكن ها هو الدليل على ما كنت أقوله. يا لعقلي المسكين! كنت قد نسيته تمامًا. حسنًا، هذا هو الأمر. لقد تلقيتُ للتوِّ رسالة من جون، وبوسعكِ تخمين فحواها.

- لا، في الواقع لا أستطيع ذلك.

- يا حبيبتي العزيزة، لا تكوني متصنعة إلى هذا الحد. ماذا عساه يكتب عنه، سواكِ أنتِ؟ أنتِ تعرفين أنه غارقٌ تمامًا في حبكِ.

- حبي أنا، يا عزيزتي إيزابيلا!

- لا، يا عزيزتي كاثرين، هذا سخيفٌ تمامًا! التواضع وما إلى ذلك أمرٌ جيدٌ للغاية، لكن في الواقع فإن بعض الصدق أحيانًا ما يكون مستحسنًا أيضًا. لا أدري كيف يفرط المرء في التواضع لهذا الحد! هذا تصيد للمجاملات. كانت ملاطفاته واضحة بدرجة تكفي لأن يلحظها حتى الأطفال. وقد منحتِه أنتِ تشجيعًا إيجابيًّا قبل رحيله عن باث بنصف ساعة فحسب. لقد ذكر ذلك في رسالته هذه، ويقول إنه يكاد يُعد كأنَّه قدَّم لكِ عرضًا، وأنكِ تقبلتِ تودُّدَه على ألطف نحوٍ. وهو يريدني الآن أن أزكِّيه لكِ، وأخبركِ بكلِّ ما هو لطيفٌ. لذا فمن العبث التظاهُر بالجهل.

أعربت كاثرين بحرارة وصدقٍ عن دهشتها من مثل هذا الاتهام، واحتجَّت مصممة على براءتها من أي علمٍ بكون السيد ثورب واقعًا في حبها، وبالتالي استحالة أن تكون تعمَّدت تشجيعه على الإطلاق.

- أما فيما يتعلق بأي اهتمام من جانبه، أقسم بشرفي إنني لم أستشعره ولو للحظة، باستثناء كونه طلب مني الرقصَ في اليوم الأوَّل لوصوله. أما بالنسبة إلى كونه قدَّم لي عرضًا، أو ما شابه، فلا بُدَّ وأن هناك خطأ لا يمكن تفسيره. لا يمكن أن أكون أسأت فَهْم شيء كهذا، كما تعلمين! أريدكِ أن تصدقيني، وأنا أؤكد بشدة أننا لم نتبادل أي كلمة من هذا القبيل على الإطلاق. آخر نصف ساعة قبل رحيله! لا بُدَّ وأن الأمرَ كلَّه خطأ تمامًا، إذ إنني لم أره ولو مرة واحدة طيلة صباح ذلك اليوم.

- لكنكِ رأيتِه بالتأكيد، إذ إنكِ قضيتِ صباح اليوم بأكملِه في بناية إدجار -كان ذلك هو يوم وصول موافقة والدكِ- وأنا على يقين من أنكِ أنتِ وجون كنتما بمفردكما في غرفة الاستقبال، لبعض الوقت قبل مغادرتكِ للمنزل.

- هل أنتِ متأكدة؟ حسنًا، إذا كنتِ تقولين ذلك، أعتقد أنَّه صحيحٌ، لكن مهما حاولتُ، لا أستطيع تذكُّر ذلك. أذكر الآن أنني كنتُ بصحبتكِ، وأنني رأيته كما رأيتُ الباقين. لكن كوننا انفردنا معًا لخمس دقائق... على أي حال، الأمر لا يستحق الجدال. لأنه بصرف النظر عما يمكن أن يكون قد حدث من جانبه، فلا بُدَّ أن تصدقي أنني لا أذكر منه شيئًا على الإطلاق، وأنني لم أفكر، أو أتوقع، أو أتمنى منه أيَّ شيء من هذا القبيل أبدًا. أشعر بهمٍّ مفرطٍ لكونه يكنُّ لي أيَّ مشاعر على الإطلاق، لكن في الواقع لم يكن ذلك متعمَّدًا من جانبي، ولم تكن لديَّ أدنى فكرة عن الموضوع. أرجو أن توضحي له الأمر بأسرع ما يمكن، وأخبريه أنني أستميحه عذرًا... أعني، لا أدري ما الذي عليَّ قوله... لكن فلتجعليه يفهم مقصدي، بطريقة لائقة. لن أتحدث باستخفافٍ عن شقيقكِ، يا إيزابيلا، لكنني متأكدة أنكِ تعلمين جيدًا أنني لو كنتُ منشغلة بالتفكير في رجلٍ دونًا عن الآخر، فلن يكون هو ذلك الشخص.

ظلَّت إيزابيلا صامتة، واصلت كاثرين الحديث قائلة:

- يا صديقتي العزيزة، يجب ألَّا تغضبي مني. لا أعتقد أنَّ شقيقكِ يهتم بي كثيرًا. وأنتِ تعلمين أنَّنا سنظلُّ شقيقتين.

قالت إيزابيلا ووجهها يتخضَّب بالحمرة:

- أجل، أجل، هناك أكثر من طريقة كي نصير شقيقتين. لكن لمَ أستطرد في الحديث؟ حسنًا، يا عزيزتي كاثرين، يبدو أنكِ عقدتِ العزم ضد المسكين جون، أليس كذلك؟

- لا يمكنني مبادلته المشاعر، بكلِّ تأكيدٍ. وبالقطع لم أتعمَّد تشجيعه على ذلك.

- بما أنّ هذا هو الحال، فلن أزعجكِ بعدها أكثر من ذلك بالتأكيد. أراد مني جون محادثتكِ في الموضوع، لذا فعلتُ. لكن عليَّ الاعتراف، بمجرد أن قرأت هذه الرسالة، ظننتُ الأمرَ بالغ الحماقة ويفتقر إلى الحكمة، ومن غير المرجح أن يكون في صالح أي منكما. فكيف ستدبِّران معيشتكما، بافتراض أنكما تزوجتما؟ لدى كلٍ منكما بعض المال، بكل تأكيدٍ، لكن مبلغًا تافهًا كهذا لا يكفي لإعالة أسرة في هذه الأيام. ورغم كل ما يقوله أنصار الرومانسية، فلا يمكن العيش من دون مالٍ. أتعجَّب فحسب من أن جون فكَّر في الأمر. لا يمكن أن تكون وصلته رسالتي الأخيرة.

- إذن فأنتِ تبرئينني من أي خطأ؟ هل اقتنعتِ أنني لم أتعمَّد خداع أخيكِ قط، ولم أشك في كونه معجبًا بي، حتى هذه اللحظة؟

أجابتها إيزابيلا ضاحكة:

- أوه! بالنسبة إلى هذا، فأنا لن أتظاهر بمعرفة ما كنتِ تفكرين فيه وتخططين له في الماضي. أنتِ أدرى بكلِّ ذلك. من الوارد وقوع بعض المغازلات البريئة وما إلى ذلك، وعادة ما ينجرُّ المرء إلى تقديم بعض التشجيع، بدرجة أكبر مما يود الاعتراف بها. لكن تأكدي أنني آخر شخص في العالم يقسو في الحكم عليكِ. يجب السماح بكلٍّ هذا للشباب الذين يتمتعون بالحيوية. وما يعنيه المرء اليوم، قد لا يعنيه في اليوم التالي. الظروف تتغير، كما أنَّ الآراء تتغير.

- لكنَّ رأيي في شقيقكِ لم يتغير على الإطلاق. لقد ظلَّ هو نفسه على الدوام. أنتِ تصفين شيئًا لم يحدث قطّ.

واصلت الأخرى من دون الاستماع لها على الإطلاق:

- يا عزيزتي كاثرين، لن أكون السبب بأي حالٍ من الأحوال لدفعكِ إلى التعجل بالارتباط بالخطبة، قبل أن تكوني على استعدادٍ لذلك. لا أعتقد أنَّ هناك أيَّ شيء يبرر أن أطلب منكِ التضحية بكل سعادتكِ لمجرد إرضاء شقيقي، لأنه شقيقي فحسب. وكما تعلمين، ربما يصبح سعيدًا من دونكِ في النهاية، إذ إنَّ الناس نادرًا ما يعرفون ما يرغبونه، وخاصة الشباب، فهم متقلبون وغير متسقون بدرجة مثيرة للدهشة. ما أعنيه هو، لمَ يجب أن تكون سعادة شقيقي أهم لديَّ من سعادة صديقتي؟ أنتِ تعلمين أنَّ لمفهوم الصداقة لديَّ مكانة عالية للغاية. لكن أهم شيء، يا عزيزتي كاثرين، لا تتعجلي. ثقي بكلامي، فلا شكَّ في أنكِ ستندمين على ذلك لاحقًا، لو أنكِ تعجلتِ. يقول تيلني إنَّ الناس لا ينخدعون في شيء بقدر انخداعهم بعواطفِهم، وأنا أعتقد أنه محقٌّ للغاية. آه! ها هو قادمٌ. لا عليكِ، أنا واثقة من أنه لن يرانا.

رفعت كاثرين نظرها، فرأت الكابتن تيلني. أبقت إيزابيلا عينيها مثبتتين عليه بشدة وهي تتحدث، وسرعان ما جذبت انتباهه. اقترب على الفور، وجلس في المقعد الذي دعته إليه بحركة منها. جفلت كاثرين بسبب جملته الأولى التي تفوَّه بها. على الرغم من حديثه بصوتٍ منخفضٍ، إلَّا أنَّها ميَّزت قوله:

- ما هذا؟ أيجب أن نكون مراقبين دومًا، إما شخصيًّا أو بالوكالة!

أجابته إيزابيلا بنفس النبرة الهامسة:

- ها! هُراء! لمَ تضع في عقلي مثل تلك الأفكار؟ قد أصدقك. إن روحي، كما تعلم، مستقلة تمامًا.

- أتمنى لو كان قلبكِ مستقلًا. سيكفيني ذلك.

- قلبي! حقًّا! وما شأنكَ أنتَ بالقلوب؟ فليس لدى أي منكم، معشر الرجال، أي قلبٍ.

- إن لم تكن لدينا قلوبٌ، فلدينا أعين، وهي تعذبنا بما فيه الكفاية.

- أحقًّا؟ أنا آسفة لذلك. آسفة لأنَّ عينيكَ وجدت فيَّ ما يثير الضيق. سأستدير جانبًا. أتمنى أن يرضيكَ هذا.

أدارت له ظهرها، وواصلت قائلة:

- أتمنى ألا تكون عيناك تعانيان العذاب الآن.

- لم يسبق وأن تعرضتا للمعاناة لهذه الدرجة من قبل، إذ لا يزال طرف وجنة متوردة ظاهرًا، وهذا كثيرٌ جدًّا وقليل جدًّا في الوقت نفسه.

سمعت كاثرين كلَّ هذا، وانزعجتْ للغاية حتى لم يعُد بوسعِها سماع المزيد. اندهشتْ من تحمُّل إيزابيلا لذلك، وأحسَّت بالغيرة لشقيقها، فنهضت قائلة إنَّ عليها الانضمام للسيدة ألين، واقترحت أن تقوما للتمشية. لكن إيزابيلا لم تظهر أي ميل لذلك. كانت متعبة للغاية، كما أنَّ التمشية في قاعة المضخات أمرٌ مقيتٌ جدًّا، ولو أنَّها قامت من مكانها، فلن ترَ شقيقتيها اللتين تنتظر وصولهما في أي لحظة. لذا على كاثرين العزيزة أن تلتمس لها العذر، وتعود لتجلس بهدوءٍ مرة أخرى. لكن كان بوسع كاثرين أن تصير عنيدة هي الأخرى. اقتربت السيدة ألين حينها لتقترح العودة إلى المنزل، فانضمَّت إليها وغادرت قاعة المضخات، تاركة إيزابيلا وهي لا تزال جالسة مع الكابتن تيلني. هكذا تركتهما، وهي تشعر بقدرٍ كبيرٍ من القلق؛ بدا لها أنَّ الكابتن تيلني يقع في حب إيزابيلا، وأنها بدورها تشجعه على ذلك من دون وعيٍ. لا بُدَّ وأن ذلك كان لا شعوريًّا، إذ إن تعلق إيزابيلا بجيمز كان أمرًا مؤكدًا ومعروفًا تمامًا، مثل خطبتها له. كان من المستحيل الشك في صدقِها أو حسن نواياها، ومع ذلك فإنَّ أسلوبَها بدا فائق الغرابة طوال حديثهما. تمنَّت لو أنَّ إيزابيلا كانت قد تحدثت بأسلوبها المعتاد، ولم تسرف في الحديث عن المال لهذا الحدِّ، ولم تبدُ عليها السعادة لهذه الدرجة لرؤية الكابتن تيلني. كم كان غريبًا ألا تلحظ إعجابه بها! أحسَّت كاثرين أنها تتوق للتلميح لها بذلك، كي تلتزم الحذر، ولتمنع كل الألم الذي قد يسببه سلوكها المرح لكل من الكابتن تيلني ولشقيقها.

لم يعوضها الشعور بالإطراء لمشاعر جون ثورب حيالها، عن هذا التهور من جانب شقيقته. كانت بعيدة كل البعد عن الاقتناع بصدق مشاعره، كما كانت أبعد ما يكون عن تمني صدق مشاعره تلك. إذ إنَّها لم تنسَ أنه يمكن أن يخطئ، كما أنَّ تأكيده على العرض الذي قدَّمه وتشجيعها له أقنعها بأن أخطاءه يمكن أن تكون صارخة للغاية في بعض الأحيان. هكذا لم تزدد خيلاء، بل كان جلُّ شعورها هو الإحساس بالدهشة. تعجبت بشدة من اعتقاده بأنه واقعٌ في حبها. ذكرت إيزابيلا ملاطفاته لها، لكنها لم تلحظ أيًّا من ذلك قطٌّ. لكن إيزابيلا قالت الكثير من الأشياء التي كانت كاثرين تتمنى أنها تعجلت النطقَ بها، وأنها لن تكررها مرة ثانية أبدًا. وهكذا أحسَّت بالرضا واطمأنت تمامًا وارتاح بالها في الوقت الحالي.

- 4 -

مرَّت بضعة أيام، وعلى الرغم من أنَّ كاثرين لم تسمح لنفسها بالشكِّ في صديقتها، إلا أنها لم تستطع منع نفسها من مراقبتها من كثب. لم تكن نتيجة ما لاحظته مُرضية. بدت إيزابيلا شخصًا مختلفًا تمامًا. في الواقع، عندما رأتها محاطة بأصدقائهما المباشرين فقط في بناية إدجار أو شارع بولتيني، بدا التغيُّر في سلوكها بسيطًا، لدرجة أنه لو لم يزد عن ذلك، لربما مرَّ من دون أن يلحظه أحدٌ. كان ينتابها أحيانًا نوعٌ من اللا مبالاة الفاترة أو شرود الذهن ذاك الذي تباهت به، ولم يسبق لكاثرين أن سمعت به من قبل. لكن لو لم يكن قد حدث ما هو أسوأ من هذا، لربما أضفى عليها ذلك رونقًا جديدًا، وجعلها مثار اهتمام أكبر. لكن عندما شاهدتها كاثرين في الأماكن العامة وهي تتقبَّل ملاطفات الكابتن تيلني بنفس سهولة تقديمه هو لها، ورأتها تمنحه قدرًا من اهتمامها وابتساماتها يكاد يضاهي ما تمنحه لجيمز، صار تغيُّرها واضحًا بدرجة لا يمكن تجاوزها. كان معنى هذا السلوك المتقلِّب، وما تنتويه صديقتها، أبعد من أن تفهمه كاثرين. لا يمكن أن تكون إيزابيلا على دراية بالألم الذي تتسبَّب فيه، لكنها كانت درجة من اللا مبالاة التي تفتقد أيَّ مراعاة للآخرين، بدرجة لم تستطع كاثرين إلا أن تشعر بالاستياء بسببها. كان جيمز هو من يعاني. رأته كاثرين متجهمًا وقلقًا، وعلى الرغم من عدم مبالاة المرأة التي منحته قلبها براحته في الوقت الحالي، إلا أنَّه ظلَّ دومًا محلَّ شفقة كاثرين. كما أحسَّت بالقلق الشديد أيضًا حيال الكابتن تيلني. على الرغم من أنَّ مظهره لم يرُق لها، إلَّا أنَّ لقبه كان جوازه لنيل استحسانها، وفكرت بشفقة خالصة في خيبة أمله الوشيكة؛ إذ إنه على الرغم مما اعتقدت أنها سمعته في قاعة المضخات، فقد كان سلوكه لا يتوافق مع كونه يعلم بخطبة إيزابيلا، فلم تستطع أن تتخيل أنه يدرك ذلك عند تفكيرها في الأمر. ربما أحسَّ بالغيرة من شقيقها بوصفه منافسًا له، لكن إذا بدا حديثه كأنه يتضمن معنى أكبر من ذلك، فلا بُدَّ وأن الخطأ كان من جانبها هي، لأنها أساءت فهمه. أرادت أن تذكِّر إيزابيلا بوضعِها، بعتابٍ لطيفٍ، لتجعلها تدرك هذه القسوة المزدوجة. إلَّا أنَّ الفرصة المناسبة أو سوء الفهم دومًا ما كانا ضدها عند عتابها ذاك. كلما واتتها الفرصة للتلميح بالحديث، لم تكن إيزابيلا تفهمها على الإطلاق. صار الرحيل الموشك لآل تيلني عزاءها الوحيد في هذا الكرب. كان من المقرر أن تتم رحلتهم إلى جلوسترشير خلال بضعة أيام، وكان رحيل الكابتن سيعيد الهدوء لكلِّ القلوب على الأقل، باستثناء قلبه هو. لكن الكابتن تيلني لم تكن لديه أيُّ نية للرحيل في الوقت الحالي، ولم يكن ينوي الانضمام لأولئك المتوجهين إلى نورثانجر، بل كان سيبقى في باث. عندما علمت كاثرين بذلك، اتَّخذت قرارَها على الفور. تحدَّثت إلى هنري تيلني بخصوص الموضوع، وأبدت أسفَها لميل شقيقه الواضح نحو الآنسة ثورب، وناشدته لأن يوضح له كونها مخطوبة. أجابها هنري قائلًا:

- إنَّ شقيقي يعلم ذلك بالفعل.

- حقًّا؟ فلمَ يبقى هنا إذن؟

لم يحر جوابًا، وبدأ الحديث عن شيء آخر، لكنَّها واصلت الحديث بلهفة:

- لمَ لا تقنعه بالذهاب؟ كلما طالت مدة بقائه، ازداد الأمر سوءًا بالنسبة إليه في نهاية المطاف. أرجو أن تنصحه بمغادرة باث على الفور، لصالحه هو، ولصالح الجميع. مع الوقت، سيجعله البعد يشعر بالراحة مرة أخرى. لكن لا أمل له هنا، ولن يكسب من بقائه سوى التعاسة.

ابتسم هنري وقال:

- أنا على يقين من أنَّ شقيقي لن يرغب في هذا.

- إذن هل ستقنعه بالرحيل؟

- لا يمكن إقناع شخصٍ ما بتوجيه الأوامر له. لكن سامحيني لو لم أستطع حتى أن أحاول إقناعه. لقد أخبرته بنفسي أنَّ الآنسة ثورب مخطوبة. إنه يعلم ما يفعله، ولا بُدَّ أن يكون مسؤولًا عن نفسه.

صاحت كاثرين قائلة:

- لا، إنه لا يعلم ما يفعله، ولا يدري الألم الذي يتسبَّب فيه لشقيقي. لم يخبرني جيمز بذلك على الإطلاق، لكنني على يقين من أنه يشعر بانزعاجٍ بالغٍ.

- وهل أنتِ واثقة بأنَّ ذلك بسبب شقيقي؟

- أجل، واثقة تمام الثقة.

- هل ملاطفة أخي للآنسة ثورب، أم قبولها هي لملاطفاته تلك هو ما يتسبب له في الألم؟

- أليس الأمر سيان؟

- أعتقد أنَّ السيد مورلاند سيعترف بالفارق. لا ينزعج أيُّ رجلٍ من إعجاب رجلٍ آخر بالمرأة التي يحبها، لكن المرأة وحدها هي من يمكنها أن تحيل ذلك إلى عذابٍ.

تضرَّج وجه كاثرين خجلًا لصديقتها، وقالت:

- إيزابيلا مخطئة، لكنني متأكدة أنها لا تتعمَّد تعذيب أحدٍ، إذ إنها متعلِّقة بأخي بشدة. لقد وقعت في حبه منذ لقائهما لأول مرة. وقبل أن يتأكدا من موافقة والداي، انتابها القلق بدرجة محمومة. لا بُدَّ وأنك تعرف أنها متعلقة به.

- أتفهم الأمر. فهي واقعة في حب جيمز، بينما تغازل فريدريك.

- أوه! لا، إنها لا تغازله. لا تستطيع المرأة التي تحب رجلًا، أن تغازل آخر.

- لن تتمكَّن على الأرجح من أن تحب كما يجب أو تتبادل الغزل كما يجب، بالقدر الذي ستستطيعه لو أنها قامت بكل منهما على حدة. لا بُدَّ وأن يقدم كلا الرجلين بعض التنازلات.

بعد فترة قصيرة من الصمت، استأنفت كاثرين الحديث قائلة:

- إذن فأنت لا تعتقد أن إيزابيلا متعلقة بأخي بدرجة كبيرة؟

- ليس لديَّ رأيٌ في هذا الموضوع.

- لكن ما الذي يقصده شقيقك؟ إذا كان على علم بخطبتها، فما الذي يعنيه بسلوكه هذا؟

- أنتِ تسألين أسئلة بالغة الدقة.

- هل أفعل حقًّا؟ لا أسأل سوى ما أريد معرفة جوابه.

- لكن هل تسألين ما بوسعي الجواب عليه فحسب؟

- أجل، أعتقد ذلك. إذ لا بُدَّ وأن تكون على دراية بمكنون قلب شقيقك.

- أؤكد لكِ أنه لا يسعني في هذه اللحظة إلا أن أخمِّن مكنون قلب شقيقي، على حد تعبيركِ.

- حسنًا إذن؟

- حسنًا! لا، إذا كان الأمر متعلقًا بالتخمين، فليخمن كلٌّ منَّا لنفسه. إن الاسترشاد بتخمينات الغير شيءٌ مثيرٌ للشفقة. إن المقدمات المنطقية كلها أمامكِ. شقيقي شابٌّ عابث، وربما طائشٌ في بعض الأحيان، لقد تعرَّف على صديقتكِ منذ قرابة أسبوع، وقد علِم بأمر خطبتها منذ بداية معرفته بها تقريبًا.

قالت كاثرين بعد لحظاتٍ من التفكير:

- حسنًا، قد تكون قادرًا على تخمين نوايا شقيقكَ من كل ذلك، لكنني متأكدة أنني لا أستطيع ذلك عن نفسي. لكن ألا يشعر والدكَ بالانزعاج لذلك؟ ألا يريد أن يرحل الكابتن تيلني؟ فهو سيذهب بالتأكيد، لو أن والدك تحدث معه.

قال هنري:

- يا عزيزتي الآنسة مورلاند، ألا يمكن أن تكوني مخطئة بعض الشيء في اهتمامكِ المفرط هذا براحة شقيقكِ؟ ألا تتمادين في الأمر إلى حدٍّ ما؟ هل سيشكركِ، إما بالأصالة عن نفسه، أو نيابة عن الآنسة ثورب، لافتراضكِ أنه لا يمكن ضمان عاطفتها، أو على الأقل حسن سلوكها، إلا بمنعها من رؤية الكابتن تيلني؟ هل سيكون في مأمنٍ في حالة العزلة فحسب؟ أم هل سيظل قلبها مخلصًا له حينما لا يطلبه شخصٌ آخر فحسب؟ لا يمكنه أن يعتقد هذا. وعليكِ أن تثقي بأنه لن يريدكِ أن تعتقدي ذلك أنتِ الأخرى. لن أقول «لا تقلقي»، لأنني أعلم أنكِ كذلك بالفعل، في الوقت الحالي، لكن فلتحاولي التخفيف من قلقكِ هذا بقدر استطاعتكِ. ما دام لا يساوركِ أي شك في الارتباط المتبادل بين شقيقكِ وصديقتكِ، فلتعولي إذن على أن الغيرة الحقيقية لا يمكن أن توجد بينهما أبدًا، وكوني على ثقة بأنه لا يمكن أن يطول أي خلاف بينهما. إن قلبيهما مفتوحان بعضهما لبعضٍ، بصورة لا يمكن أن ينفتح بها أيهما لكِ أنتِ. إنهما يعرفان ما هو مطلوبٌ منهما بالتحديد، وما يمكنهما تحمُّله. وعليكِ التأكد من أن أيهما لن يشاكس الآخر بدرجة تتجاوز حدود التسلية.

لاحظ أنها لا تزال تبدو متشككة ومتجهمة، فأضاف قائلًا:

- على الرغم من أن فريدريك لن يغادر باث بصحبتنا، إلا أنه في الغالب لن يبقى سوى لفترة وجيزة للغاية، ربما يبقى بعدنا بعدة أيام فحسب. سرعان ما ستنتهي إجازة غيابه، وعليه العودة إلى كتيبته. وماذا ستكون علاقتهما ساعتها؟ ستشرب قاعة الطعام في المعسكر نخب إيزابيلا ثورب لأسبوعين، وستشارك هي شقيقكِ الضحك على شغف تيلني المسكين لمدة شهرٍ.

توقفت كاثرين عن مقاومة الشعور بالارتياح. كانت قد قاومته طوال ذلك الخطاب، إلا أنها صارت أسيرة له الآن. لا بُدَّ وأن هنري تيلني يعرف ما هو الأفضل. ألقتْ باللوم على نفسِها لشدة مخاوفها، وعقدتْ العزمَ على ألا تفكر في الموضوع بهذه الجدية مرة أخرى.

ساعد سلوك إيزابيلا خلال لقائهما قبل الفراق على دعم قرارها ذاك. أمضى آل ثورب الأمسية الأخيرة قبل رحيل كاثرين في شارع بولتيني، ولم يحدث بين الحبيبين ما يثير قلقها أو يجعلها ترحل وهي تشعر بالتخوف. ظهر جيمز بحالة معنوية مرتفعة، بينما كانت إيزابيلا رائقة على نحوٍ جذابٍ. بدا أنَّ رقتها حيال صديقتها تحتل مركز الصدارة في قلبها، لكن ذلك كان مسموحًا في مثل تلك اللحظة. كما أنها عارضت حبيبها صراحة في مرة، وسحبت يدها بعيدًا عنه في مرة أخرى. إلا أن كاثرين تذكرت تعليمات هنري، وأرجعت كل ذلك إلى تعقل عاطفتهما. وقد يكون العناق والدموع ووعود الوداع بين الجنس الناعم كلها أوهامًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

شعر السيد والسيدة ألين بالأسف لفراق صديقتهما الشابة التي جعلها مرحُها وبشاشتُها رفيقًا غاليًا، والتي ازدادت متعتهما بدرجة كبيرة وهما يحاولان الترفيه عنها. إلا أن سعادتها للذهاب برفقة الآنسة تيلني منعتهما من تمني شيئًا خلاف ذلك. وبما أنهما كانا سيبقيان في باث أسبوعًا واحدًا إضافيًّا فحسب، فلم يكونا ليشعرا بغيابها ذاك لفترة طويلة. أوصلها السيد ألين إلى شارع ميلسوم، حيث كانت ستتناول الإفطار، ورآها جالسة بين أصدقائها الجدد بأكبر قدرٍ من الترحيب. إلا أنها أحسَّت باضطرابٍ شديدٍ عندما وجدت نفسها كأنَّها فردٌ من أفراد الأسرة، وانتابها خوفٌ شديدٌ من ألا تتصرَّف بشكلٍ صائبٍ تمامًا، وألَّا تتمكَّن من الحفاظ على حسن رأيهم بها، لدرجة أنها خلال الحرج الذي غمرها خلال الدقائق الخمس الأولى، كادت تتمنى لو أنها عادت معه إلى شارع بولتيني.

لكن سرعان ما ساعدها سلوك الآنسة تيلني وابتسامة هنري على التخلُّص من بعض مشاعرها المزعجة تلك، إلَّا أنها كانت لا تزال أبعد ما يكون عن الشعور بالراحة، كما لم تفلح المجاملات المتواصلة من الجنرال نفسه في طمأنتها تمامًا. على الرغم من غرابة ذلك، إلَّا أنَّها ظنَّت أنها ربما كانت أقل انزعاجًا لو لم يكن الاهتمام بها فائقًا لهذا الحد. حرصه على راحتها، ودعواته المستمرة لها كي تتناول الطعام، ومخاوفه التي أعرب عنها مكررًا من ألا يكون هناك أمامها ما يلائم ذوقها، على الرغم من أنها لم يسبق لها وأن رأت طوال حياتها من قبل مثل هذا التنوع على مائدة الإفطار، كلُّ هذا جعل من المستحيل لها أن تنسى ولو للحظة أنها مجرد ضيفة. شعرت بأنها غير جديرة بكلِّ ذلك الاحترام على الإطلاق، ولم تعرف كيف تجيبه. كما لم تتمكَّن من أن تنعم بالهدوء، بسبب نفاد صبر الجنرال الذي كان ينتظر حضور ابنه الأكبر، وبسبب استيائه لكسل ابنه الذي أعرب عنه عندما نزل الكابتن تيلني أخيرًا. انزعجت بشدة من قسوة توبيخ والده، الذي بدا غير متناسب مع الجرم. وازداد قلقُها كثيرًا عندما وجدت نفسَها السبب الرئيس وراء ذلك التوبيخ، وأن الاستياء من تأخُّره كان بالأساس لأنَّ في ذلك عدم احترام لها. وضعها هذا في موقفٍ غير مريحٍ على الإطلاق، وأحسَّت بتعاطفٍ كبيرٍ مع الكابتن تيلني، من دون أن تستطيع تمني تفهمه.

استمع لوالده في صمتٍ، ولم يحاول الدفاع عن نفسه على الإطلاق، مما أكَّد لها مخاوفها بأنَّ انشغال ذهنه بسبب إيزابيلا ربما يكون السبب وراء سهره ليالٍ طويلة، وأنَّ ذلك قد يكون السبب الحقيقي وراء استيقاظه متأخرًا. كانت هذه المرة الأولى التي تقضي فيها وقتًا بصحبته، وكانت تأمل أن تتمكن الآن من تكوين رأيٍ عنه، إلا أنها سمعت صوته بالكاد خلال وجود والده في الغرفة. وحتى بعدها، كانت معنوياته قد تأثرت بدرجة بالغة، فلم تميز سوى هذه الكلمات التي همس بها لإليانور قائلًا:

- كم سأشعر بالسعادة عند رحيلكم جميعًا.

لم يكن النشاط الصاخب استعدادًا للرحيل ممتعًا. دقَّت الساعة العاشرة، بينما كان يتم إنزال صناديقهم، في حين كان الجنرال يرغب في خروجهم من شارع ميلسوم في تلك الساعة. وبدلًا من إحضار معطفه الطويل كي يلبسه مباشرة، فقد فُرش في العربة المفتوحة التي كان سيركبها برفقة ابنه. كان المقعد الأوسط في العربة المغلقة مطويًّا، على الرغم من أن ثلاثة أشخاص كانوا سيركبونها. كما أن

خادمة ابنته حشرت الكثيرَ من الطرود بالعربة، لدرجة أن الآنسة مورلاند لن يكون لديها مكانٌ للجلوس. وقد أثَّر قلق الجنرال تيلني عليه بشدة، لدرجة أنه عندما عاونها على الركوب، وجدت إليانور صعوبة إلى حدٍّ ما في إنقاذ مكتبها الجديد المخصَّص للكتابة، ومنعه من الإلقاء به في الطريق. أخيرًا، أُغلق باب العربة على الإناث الثلاث، وانطلقوا بالوتيرة المتزنة التي عادة ما يقطع بها أربعة خيول رائعة حسنة التغذية يملكها سيدٌ نبيلٌ، رحلة يبلغ طولها ثلاثين ميلًا. كانت تلك هي المسافة بين نورثانجر وباث، وكانت ستنقسم إلى جزأين متساويين. ارتفعت معنويات كاثرين عند انطلاقهم مبتعدين عن الباب، إذ لم تكن تشعر بأي قيودٍ بصحبة الآنسة تيلني. ومع التشويق الناتج عن طريق جديد تمامًا بالنسبة إليها، والدير الذي ينتظرها أمامها، والعربة المفتوحة خلفها، شاهدت آخر لمحة من باث من دون الشعور بأي ندمٍ، والتقت كل علامة من علامات الطريق من قبل أن تتوقع رؤيتها.

تلا ذلك ساعتان من الملل عندما توقَّفوا للاستراحة في بلدة بيتي فرانس، حيث لم يكن هناك ما يمكن القيام به سوى تناول الطعام من دون الشعور بالجوع، والتلكؤ في أرجاء المكان في غياب أي شيء يستحق رؤيته. وبسبب هذا الإزعاج، سرعان ما خفَّت درجة إعجابها بعض الشيء بأسلوب انتقالاتهم، بالعربة المغلقة الأنيقة التي يجرها أربعة خيولٍ، والحوذي ذي الزي الأنيق الذي ظلَّ يقف في ركابه بين حين وآخر، وراكبي الخيل العديدين المصاحبين لهم الذين يسيرون بحذاء العربة. لو كان أفراد المجموعة على توافق تامٍّ، لم يكن التأخير سيصير شيئًا يذكر. إلَّا أنَّ الجنرال تيلني، على الرغم من كونه رجلًا فاتنًا للغاية، بدا دومًا بمثابة قيدٍ على أبنائه، ولم يكد أحدٌ غيره يتفوَّه بشيء. عند ملاحظتها ذلك، إلى جانب سخطه الظاهر حيال كل ما كان متاحًا من طعام في النزل، ونفاد صبره وغضبه حيال النُدُل، ازدادت كاثرين رهبة منه مع كل لحظة تمرُّ، وبدت الساعتان كأنَّهما امتدَّتا لتصيرا أربع ساعات. أخيرًا، صدر الأمر بالإفراج، وفوجئت كاثرين للغاية باقتراح الجنرال أن تأخذ مكانه في عربة ابنه المفتوحة لما تبقى من الرحلة. كان اليوم صحوًا، وبدا حريصًا على أن تستمتع بقدر الإمكان برؤية الريف.

تذكرتْ رأي السيد ألين فيما يتعلَّق بعربات الشباب المفتوحة، فتضرج وجهها خجلًا عند سماع تلك الخطة، وكان أول ما طرأ على ذهنها هو الرفض، لكن الفكرة التالية التي عنت لها كانت أكثر احترامًا لحسن تقدير الجنرال تيلني، فلم يكن ليقترح عليها أي شيء غير لائقٍ. وفي غضون بضع دقائق، وجدت نفسَها مع هنري في العربة المفتوحة، كأسعد ما يكون. اقتنعت بعد تجربة قصيرة جدًّا أنَّ العربة المفتوحة هي أجمل عربة في العالم. من المؤكد أنَّ العربة المغلقة التي يجرها أربعة خيول انطلقت بشيء من الفخامة، إلا أنها كانت ضخمة ومزعجة، ولم تستطع أن تنسى بسهولة أنها اضطرَّت إلى التوقف لساعتين في بيتي فرانس. كان نصف ذلك الوقت فحسب سيكفي العربة المفتوحة، وكانت الجياد الرشيقة على استعدادٍ للتحرك بسرعة، ولولا أن الجنرال اختار أن تقود عربته هو الطريق، لتمكَّنا من تجاوزها بسهولة خلال نصف دقيقة. لكن مميزات العربة المفتوحة لم تكن كلها عائدة للخيل، بل كان هنري يقودها ببراعة وهدوءٍ، من دون أي إزعاجٍ، ومن دون التباهي أمامها أو إطلاق السباب نحو الخيل. كان مختلفًا تمام الاختلاف عن السيد الوحيد سائق العربة الذي كان بوسعها مقارنته به! ثم إن قبعته ظلَّت مستقرة، وبدت العباءة المتصلة بمعطفه الطويل بمظهرٍ فائق الأهمية على نحوٍ جذابٍ! بالقطع كان جلوسها بجواره وهو يقود العربة أعظم متعة في العالم، تلي متعة رقصها معه. وبالإضافة لكل سعادتها الأخرى، استمتعت الآن بالإنصات إليه وهو يمتدحها،

ويشكرها على الأقل نيابة عن شقيقته، للطفها بالتفضّل بزيارتها، ويعدُ ذلك صداقة حقيقية، ولدت لديهم امتنانًا حقيقيًّا. قال إن شقيقته تعاني ظروفًا مزعجة، وإنها ليست لديها أي رفقة من الإناث، وفي غياب والدها المتكرر كانت تبقى أحيانًا من دون أي رفقة على الإطلاق.

قالت كاثرين:

- كيف يمكن ذلك؟ ألست أنتَ معها؟

- أنا لا أقيم في نورثانجر سوى نصف الوقت فحسب. لديَّ سكني الخاص في وودستون، وهو يبعد نحو عشرين ميلًا عن سكن والدي، ومن الضروري أن أقضي بعض الوقت هناك.

- لا بُدَّ وأنك تشعر بالأسف الشديد لذلك!

- دومًا ما أشعر بالأسف عندما أترك إليانور.

- أجل، لكن إلى جانب محبتكَ لها، لا بُدَّ وأن تكون مغرمًا للغاية بالدير! بعد أن اعتدتَ على منزلٍ مثل الدير، لا بُدَّ وأن يكون بيت كاهن عادي مزعجًا للغاية.

ابتسم وقال:

- يبدو أنكِ كونتِ فكرة إيجابية للغاية عن الدير.

- بالتأكيد فعلتُ. أليس مكانًا قديمًا رائعًا، مثل تلك الأماكن التي يقرأ عنها المرء؟

- وهل أنتِ على استعدادٍ لمواجهة جميع أشكال الرعب التي قد تنتج عن مبنى يماثل تلك التي «يقرأ عنها المرء»؟ هل تتمتعين بشجاعة القلب؟ وأعصابٍ تتحمل الأبواب والممرات السرية؟

- أوه! نعم، لا أعتقد أنني سأشعر بالخوف بسهولة، لأنه سيكون هناك الكثيرُ من الناس في المنزل. وإلى جانب ذلك، فلم يُترك المنزل مهجورًا لسنواتٍ من دون أن يسكنه أحدٌ، حتى عادت إليه الأسرة على حين غرة من دون سابق إنذار، كما يحدث عادة.

- لا، بالتأكيد. لن نضطر إلى استكشاف طريقنا إلى قاعة تضيئها بشكلٍ خافتٍ جمرات نار تلفظ أنفاسها الأخيرة. كما لن نضطر إلى فرش أسرَّتنا على أرضية غرفة من دون نوافذَ أو أبوابٍ أو أثاثٍ. لكن عليكِ أن تدركي أنه عند قدوم سيدة شابة (بأي وسيلة كانت) إلى مسكنٍ من هذا النوع، فدومًا ما تقيم في جزءٍ منعزلٍ عن باقي الأسرة. بينما يتوجهون هم كي يخلدوا للراحة في الجزء الخاص بهم من المنزل، تقودها دوروثي، مدبرة المنزل القديمة، على نحوٍ رسمي لصعود درج مختلفٍ، عبر عديد من الممرات المعتمة، إلى غرفة لم تُستخدَم قطٌّ منذ مات بها أحد أبناء العمومة أو الأقارب قبل نحو عشرين عامًا مضت. هل يمكنكِ تحمُّل مراسم الاستقبال هذه؟ ألن تتوجسي خيفة عندما تجدين نفسكِ بمفردكِ في هذه الغرفة المعتمة، ذات السقف المرتفع، الواسعة جدًّا بالنسبة إليكِ، وليس لديكِ سوى الأشعة الخافتة لمصباحٍ واحدٍ فحسب لاستكشاف حجمها؟ وعلى حوائط الحجرة أبسطة جدارية مزخرفة تصور أشخاصًا بالحجم الطبيعي، بينما أغطية الفراش من نسيجٍ أخضر داكنٍ أو مخملٍ أرجواني، يوحي بطابع جنائزي. ألن تصابي بخيبة الأمل حينها؟

- أوه! لكنني على يقينٍ من أنّ ذلك لن يحدث لي.

- كم سيبلغ مدى خوفكِ، وأنت تتفحصين أثاثَ غرفتكِ! وما الذي ستميزينه؟ لا توجد أيُّ طاولات ولا موائد زينة، أو خزانات ملابس أو أدراج، لكن ربما يوجد في جانبٍ بقايا آلة عودٍ محطمٍ، وعلى الجانب الآخر صندوقٌ ثقيلٌ لا يمكن فتحه مهما بُذِل من جهدٍ. وفوق المِدفأة، هناك لوحةٌ معلقة لمحاربٍ وسيم، ستجذبكِ ملامحه على نحوٍ غير مفهوم، لدرجة أنكِ لن تتمكني من إبعاد عينيكِ عنه. وفي هذه الأثناء، فإن دوروثي لا تقل تعجُّبًا من مظهركِ أنتِ، فتتأملكِ بقلقٍ شديدٍ وتلقي ببعض التلميحات الغامضة. علاوة على ذلك، فهي تثير مخاوفكِ بعد أن تمنحكِ سببًا للاعتقاد بأن ذلك الجزء من الدير الذي تسكنينه مسكونٌ بالأشباح بلا شكٍّ، وتخبركِ أنه لن يكون هناك أي خدم بالقرب منكِ يصلهم نداؤكِ. مع عبارتها الأخيرة هذه، تنحني وترحل، وتنصتين أنتِ لوقع الخطى الذي أخذ ينحسر، حتى يصلك صدى آخر خطواتها. وعندما تحاولين إغلاق بابكِ بروح وجلة، تكتشفين بقلقٍ متزايدٍ أنه لا يوجد قفلٌ على الباب.

- أوه! يا سيد تيلني، هذا مخيفٌ للغاية! كأنَّه كتابٌ بالضبط! لكن لا يمكن أن يحدث لي ذلك بالفعل. أنا متأكدة أن اسم مدبرة منزلكم ليس دوروثي بالفعل. حسنًا، ماذا بعد ذلك؟

- ربما لا يحدث ما يستدعي القلق بعد ذلك خلال الليلة الأولى. بعد التغلُّب على رعبكِ الهائل من الفراش، ستخلدين إلى الراحة، وتحظين ببضع ساعاتٍ من النوم المضطرب. لكن في الليلة الثانية، أو الثالثة من وصولكِ على أقصى تقدير، ستقع عاصفة عنيفة في الغالب. سيدوي الرعد بصوتٍ مرتفعٍ، حتى يبدو كأنَّه يهزُّ الصرح حتى أساسِه، وسيتردَّد صداه في الجبال المحيطة. وفي أثناء هبوب الريح المخيف المصاحب له، قد تظنين أنَّه بوسعكِ رؤية جزءٍ من البساط الجداري المعلق وهو يهتز بعنفٍ أكثر من باقي الأجزاء، إذ إنَّ مصباحكِ لم ينطفئ. لن تتمكَّني من كبح جماح فضولكِ بالطبع، في هذه اللحظة المواتية للغاية لإشباع ذلك الفضول، وستنهضين على الفور، وتلفِّين نفسَكِ برداء نومِكِ، وتشرعين في استكشاف هذا اللغز. بعد بحثٍ قصيرٍ للغاية، ستعثرين على فاصلٍ في النسيج تمَّت حياكته بمهارة شديدة، بحيث يستعصي على أدق تفتيشٍ. عند فتحه، سيظهر بابٌ على الفور، مؤمَّن فقط بقضبان غليظة وقفلٍ، وستنجحين في فتحه بعد عدة محاولات. بعدها ستلجين غرفة صغيرة مقنطرة، ومصباحكِ في يدكِ.

- بالقطع لا. سأكون أكثر خوفًا من الإقدام على مثل ذلك الفعل.

- ماذا؟ ليس بعد أن تكون دوروثي قد أخبرتكِ أنَّ هناك ممرًّا سريًّا تحت الأرض، بين غرفتكِ وكنيسة القديس أنتوني، التي تقع على مبعدة ميليْن فحسب. هل بوسعكِ الإحجام عن مغامرة بسيطة كهذه؟ لا، لا، بل ستتقدمين داخل هذه الغرفة الصغيرة المقنطرة، وتمرِّين من خلالها إلى عدة غرفٍ أخرى، من دون ملاحظة أي شيء لافتٍ للنظر في أيٍّ منهم. ربما يكون في إحداها خنجرٌ، وفي أخرى بضعُ قطراتٍ من الدماء، وفي غرفة ثالثة بقايا بعض آلات التعذيب، لكن نظرًا لأنَّه لا يوجد أيُّ شيءٍ من ذلك يقع خارج نطاق المألوف، ولأن زيت مصباحكِ كاد ينفد، فسوف تستديرين للعودة إلى غرفتكِ الخاصة مرة أخرى. ومع ذلك، عند مروركِ بالغرفة الصغيرة المقنطرة مرة ثانية، سيلفت نظرك خزانة ضخمة قديمة الطراز من خشب الأبنوس والذهب، لم تلحظيها من قبل، على الرغم من أنكِ

تفحَّصتِ الأثاث بدقة. مدفوعة بإحساسٍ لا يُقاوم، ستتقدّمين منها بحماسٍ، وتفتحين أبوابها القابلة للطي، وتبحثين في جميع الأدراج لبعض الوقت، قبل العثور على أي شيء ذي أهمية. ربما لا تجدين ما يزيد عن كنزٍ كبيرٍ من الماس. لكن في النهاية، عند لمس زنبرك خفي، تنفتح مقصورة داخلية، وتظهر لفافة من الأوراق تقبضين عليها، وتجدين أنها تحتوي على عديدٍ من المخطوطات، فتسرعين بذلك الكنز الثمين إلى غرفتكِ الخاصة، لكن ما أن تتمكني بالكاد من قراءة العبارات التالية: «أوه! أيًّا من تكون، يا من سقطت بين يديه مذكرات ماتيلدا البائسة...»، حتى ينطفئ مصباحكِ تمامًا في التجويف الخاص به، مخلفًا إياكِ في ظلامٍ دامسٍ.

- أوه! لا، لا، لا تقل ذلك. حسنًا، فلتواصل الحديث.

لكنَّ هنري كان مستمتعًا للغاية بالاهتمام الذي أثاره لديها، فلم يتمكَّن من المواصلة أبعد من ذلك، إذ لم يعُد قادرًا على الحفاظ على جدية الموضوع أو نبرة الصوت، واضطر إلى مناشدتها باللجوء لخيالِها الخاص لمعرفة عذابات ماتيلدا. تمالكت كاثرين نفسها، وأحسَّت بالخجل من لهفتِها تلك، وأخذت تؤكد له بجدية أنَّ تركيزها كان منصبًّا على الموضوع من دون أدنى خوفٍ من أن يقابلها في الواقع ما يحكيه. كانت على يقينٍ من أنَّ الآنسة تيلني لن تضعها أبدًا في غرفة مثل تلك التي وصفها! ولم تكن تشعر بالخوف على الإطلاق.

مع اقترابهما من نهاية الرحلة، عاودها بشدة نفاد صبرها لرؤية الدير الذي كان قد زال لبعض الوقت بسبب حديثه حول مواضيع مختلفة تمامًا، ومع كل منعطفٍ من الطريق، توقَّعت برهبة شديدة أن ترى لمحة من جدرانه الحجرية الضخمة وهي ترتفع وسط أجمة من أشجار البلوط العتيقة، بينما آخر أشعة للشمس تنعكس بروعة على نوافذه القوطية العالية. إلا أنَّ البناية كانت تقع في منطقة منخفضة، حتى إنها وجدتْ نفسَها تجاوزت البوابات الضخمة ودخلت الأراضي المحيطة بنورثانجر من دون أن تلمح ولو مدخنة عتيقة.

لم تكن تعتقد أنَّ عليها الشعور بالدهشة، لكن كان هناك شيءٌ ما في طريقة اقترابهما هذه، لم تكن تتوقعها. حيث أحسَّت بغرابة الأمر وتناقضه، بعد أن مرَّت بين بناياتٍ ذات مظهرٍ حديثٍ، ووجدت نفسها بسهولة في محيط الدير، بعد مرور العربة سريعًا عبر طريقٍ مريحٍ مستوٍ مُمهَّدٍ بالحصى الناعم، من دون أي عوائق أو اضطراباتٍ أو مشاكل من أي نوع. إلَّا أنَّ الوقت لم يطل كثيرًا بما يسمح لها بالانشغال بالتفكير في مثل هذه الأمور. هطلت دفقة مفاجئة من الأمطار في وجهها مباشرة، واستحال عليها الانشغال بأي شيء آخر، لكنها ركَّزت جلَّ تفكيرها على سلامة قبعتها الجديدة المصنوعة من القش. في الواقع، كانت قد وصلت عند جدران الدير نفسه، وترجَّلت من العربة بمساعدة هنري، ولجأت للاحتماء بالشرفة القديمة، ومرَّت للردهة، حيث كانت صديقتها والجنرال ينتظران الترحيب بها، من دون أن يراودها ولو هاجسٌ واحدٌ بعذابٍ مستقبلي يحلُّ عليها، أو الارتياب للحظة في أي مشاهد رعبٍ سابق وقعت داخل الصرح المهيب. لم تحمل لها النسمات تنهدات القتلى، بل حملت الأمطار الغزيرة فحسب. بعد أن نفضت ملابسها جيدًا، صارت على استعدادٍ كي يقودوها لغرفة الاستقبال العادية التي يستخدمها أفراد الأسرة، وأضحت قادرة على التفكير في المكان الذي صارت فيه.

دير! أجل، كان أمرًا ممتعًا أن تكون في ديرٍ بالفعل! لكن بينما هي تجول بعينيها في الغرفة، ساورها الشكُّ في أنَّ أي شيء تحت نظرها كان سيوحي لها بذلك. كان الأثاث بأكمله غنيًّا وأنيقًا، على الطراز الحديث. توقعت أن تكون المِدفأة عريضة، مزينة بالنقوش المحفورة الضخمة على الطراز العتيق، إلا أنها كانت أقل عرضًا على طرازٍ حديثٍ، مزيَّنة بألواحٍ من الرخام الأنيق رغم بساطته، وقد تراصت أعلاها زيناتٌ من أجمل أنواع الخزف الإنجليزي. كما أنَّ النوافذ التي تطلعت لرؤيتها على وجه الخصوص، بعد سماعها حديث الجنرال حول حفاظه بحرصٍ على طرازها القوطي، كانت أقل مما صوَّره لها خيالها. من المؤكد أنه حافظ على القوس المدبب، وكانت هيئتها على الطراز القوطي، بل إنها كانت أيضًا تنفتح للداخل بدلًا من الأعلى، إلَّا أنَّ كلَّ لوحٍ من الألواح الزجاجية كان بالغ الضخامة والصفاء، وشديد الإضاءة! بالنسبة إلى خيالها الذي كان يأمل في تقسيماتٍ صغيرة وزخارف حجرية كثيفة، وزجاجٍ ملونٍ مكسو بالأتربة وشباك العناكب، كان ذلك الفارق مؤلمًا للغاية.

عندما لاحظ الجنرال نظرتها، بدأ يتحدث عن صغر الغرفة، وبساطة الأثاث، حيث كان كلُّ شيءٍ مخصصًا للاستخدام اليومي، ويهدف للراحة فحسب، وما إلى ذلك. مع ذلك، أثنى على نفسه قائلًا إنَّ هناك بعض الغرف في الدير تستحق منها الاهتمام، ثم شرع يصف التذهيب الباهظ في إحدى الغرف على وجه الخصوص، عندما أخرج ساعته وقطع حديثه، ليعلن بدهشة أنَّ الساعة الخامسة إلا الثلث. بدت هذه الكلمة كأنَّها إشارة للفراق، إذ وجدت كاثرين نفسَها وقد صحبتها الآنسة تيلني وابتعدت سريعًا، بطريقة أقنعتها أن الالتزام بالمواعيد الصارمة للأسرة أمرٌ متوقعٌ في نورثانجر. عادا عبر الردهة الفسيحة ذات السقف الشاهق الارتفاع، وصعدا سلمًا عريضًا من خشب البلوط اللامع، أفضى بهما بعد عديدٍ من الدرجات والبسطات إلى رواقٍ عريضٍ ممتدٍّ، على أحد جانبيه صفٌّ من الأبواب، بينما يضيئه من الجانب الآخر نوافذ تمكَّنت كاثرين من اكتشاف أنَّها تطلُّ على ساحة، قبل أن تقودها الآنسة تيلني إلى إحدى الغرف. بالكاد بقيت لتعرب عن أمنياتها بأن تجد كاثرين الغرفة مريحة، قبل أن تغادرها وهي تناشدها بقلقٍ لإجراء أقل قدرٍ ممكنٍ من التغيير في ملبسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 6 -

كانت لمحة سريعة كافية لإقناع كاثرين أنَّ غرفتها تختلف تمامًا عن تلك التي سعى هنري لإخافتها بوصفها؛ لم تكن بأي حالٍ من الأحوال كبيرة بصورة زائدة عن الحدِّ، كما لم تكن بها أي أبسطة جدارية معلقة ولا أي مخمل. كانت الجدران مكسوة بورق الحائط، والأرضية مغطاة بالسجاد. ولم تكن النوافذ أقل كمالًا ولا أكثر إعتامًا من تلك الموجودة بغرفة الاستقبال بالطابق السفلي. وعلى الرغم من أنَّ الأثاث لم يكن على أحدث صيحة، إلَّا أنَّه كان أنيقًا ومريحًا، وبدا الجو العام للغرفة أبعد ما يكون عن الكآبة. ارتاح قلبُها على الفور فيما يتعلق بهذه النقطة، فعقدت العزم على عدم إضاعة الوقت في تفحُّص أي شيء بدقة، إذ كانت تخشى بشدة إغضاب الجنرال بسبب أي تأخير. لذا خلعت ملابسها بأقصى سرعة ممكنة، وكانت تستعد لفتح لفافة الملابس التي جلبتها بجوارها على مقعدها في العربة للاستخدام الفوري عند وصولها، عندما سقطت عيناها فجأة على صندوقٍ ضخمٍ مرتفعٍ، يقع في فجوة عميقة على أحد جانبي المِدفأة. جفلت من منظره، ونسيت كلَّ شيء آخر، ووقفت تتأمَّله بتعجُّبٍ بلا حراكٍ، بينما مرَّت الأفكار التالية بذهنِها:

- هذا غريبٌ حقًّا! لم أتوقع مثل هذا المنظر! صندوقٌ ضخمٌ ثقيلٌ! ترى ما الذي بداخله؟ لمَ وُضع هنا؟ وقد تم دفعه للخلف أيضًا، كأنَّه من المفترض أن يبقى بعيدًا عن الأنظار! سأنظر بداخله مهما كلفني ذلك، سأنظر بداخله، بصورة مباشرة، في وضح النهار. لو انتظرت حتى المساء، قد تنطفئ شمعتي.

تقدَّمت منه وتفحَّصته من كثبٍ. وجدته مصنوعًا من خشب الأرز، ومطعَّمًا بمهارة بخشبٍ آخر ذي لونٍ داكنٍ بدرجة أكبر، وكان يرتفع عن الأرض بنحو قدمٍ، على قاعدة منحوتة من الخشب نفسه. كان القفل من الفضة، إلا أنه فقد بريقه بفعل الزمن. وعلى كلِّ جانبٍ من جانبيه هناك بقايا غير مكتملة لمقبضين من الفضة أيضًا، ربما كُسرا قبل الأوان بفعل عنفٍ غريبٍ، وفي منتصف الغطاء كانت هناك كتابة غامضة من نفس المعدن. انحنت كاثرين فوقه باهتمام، لكنها لم تتمكَّن من تمييز أي شيء على وجه اليقين. مهما تأمَّلته من أي اتجاهٍ، لم تستطع الاقتناع أن الحرف الأخير هو حرف «ت»، ومع ذلك، لو اتضح أنه أي حرف خلاف هذا في ذلك المنزل، لصار الأمر مثيرًا للدهشة. لو لم يكن ملكًا لهم في الأساس، فأي أحداث غريبة تلك التي قادته ليسقط في يد آل تيلني؟

أخذ فضولها الوجِل يتزايد كل لحظة، وقبضت على مشبك القفل بأيدي مرتعشة، وصمَّمت أن ترضي فضولها رغم المخاطر، لتتعرف على الأقل على ما بداخلِه. رفعت الغطاء بصعوبة لبضعة بوصات، إذ بدا أن هناك ما يقاوم جهودها، لكن في تلك اللحظة، جعلتها طرقات مفاجئة على الباب تجفل، وترخي قبضتها، فانغلق الغطاء بعنفٍ مخيفٍ. كانت هذه الدخيلة ذات التوقيت السيئ هي خادمة الآنسة تيلني، التي أرسلتها سيدتها لمعاونة الآنسة مورلاند. وعلى الرغم من أن كاثرين صرفتها على الفور، إلا أنَّ ذلك ذكَّرها بما يجب عليها فعله، وأجبرها على استكمال ارتداء ملابسها من دون مزيدٍ من التأخير، على الرغم من رغبتها الشديدة في سبر أغوار هذا اللغز. لم تحرز تقدمًا سريعًا، لأنَّ أفكارها وعينيها كانتا لا تزالان مركزتين على ذلك الشيء الملائم للغاية لإثارة الفضول والقلق. ومع أنها لم تجرؤ على إضاعة لحظة في محاولة ثانية، إلا أنها لم تستطع الابتعاد عن الصندوق أكثر من بضع خطوات. مع ذلك، في النهاية بعد أن أدخلت إحدى ذراعيها في ثوبها، بدا أنها أوشكت على الانتهاء من التزين،

بحيث صار من الممكن إشباع فضولها بأمانٍ. بالتأكيد بوسعها التمهُّل للحظة، وستبذل قصارى جهدها، بحيث ينفتح الغطاء في لحظة، ما لم يكن مثبَّتًا بوسائل خارقة للطبيعة. بهذه الروح، تقدمت للأمام، ولم تخدعها ثقتها تلك. ألقت بالغطاء للوراء بقوة وعزم، وظهر أمام عينيها المليئتين بالدهشة منظرُ غطاءِ فراشٍ قطني أبيض، مطوي بعناية، قابع في أحدً طرفي الصندوق معلنًا حيازته له بلا منازعٍ!

كانت تتأمَّله وقد احمرَّ وجهها من الدهشة، عندما ولجت الآنسة تيلني الغرفة، متلهفة لانتهاء صديقتها من الاستعداد. حينها أحسَّت كاثرين بالخجل لضبطها متلبسة بهذا البحث الذي بلا طائلٍ، علاوة على خجلها المتزايد من انشغالها بالتفكير لبضع دقائق في تلك التوقعات السخيفة. قالت الآنسة تيلني، بينما أغلقت كاثرين الصندوق على عجلٍ، واستدارت لتواجه المرآة:

- إنه صندوقٌ عتيقٌ غريبٌ، أليس كذلك؟ يستحيل معرفة عدد الأجيال التي مرَّت خلال وجوده هنا. لا أعرف كيف وُضِع في هذه الغرفة لأول مرة، لكنني لم أنقله، لأنني ظننتُ أنه قد يكون مفيدًا في بعض الأحيان لتخزين القبعات والقلنسوات. أسوأ ما فيه هو أن وزنه يجعله صعب الفتح. إلا أنه بعيدٌ عن الطريق على الأقل في تلك الزاوية.

لم يكن لدى كاثرين وقتٌ للكلام، وهي تتضرج حمرة، وتربط ثوبَها، وتتخذ قراراتٍ حكيمة، كل ذلك في نفس الوقت وبأقصى سرعة. لمَّحت الآنسة تيلني بلطفٍ إلى قلقها من التأخير، وخلال نصف دقيقة ركضا هابطين الدرج معًا، بقلقٍ كان له ما يبرره، إذ كان الجنرال يذرع غرفة الاستقبال جيئة وذهابًا، ممسكًا بساعته في يده. وفي نفس لحظة دخولهما، قرع الجرس بعنفٍ وصاح آمرًا:

- ليوضع العشاء على المائدة فورًا!

ارتجفتْ كاثرين لشدة نبرتِه، وجلستْ شاحبة متقطِّعة الأنفاس، بحالة مزاجية متدنية للغاية، وقد أحسَّت بالقلق على أبنائه، والكراهية حيال الصناديق القديمة. استعاد الجنرال لطفَه وهو يطالعها، وأمضى بقية الوقت وهو يوبِّخ ابنته لأنها استعجلت صديقتها الجميلة بحماقة، حتى تقطَّعت أنفاسُها من السرعة، في حين أنه لم يكن هناك أي داعي للعجلة على الإطلاق. لكنَّ كاثرين لم تستطع التغلُّب على ضيقِها المزدوَج لكونها تسبَّبت في التوبيخ لصديقتها، ولسذاجتها البالغة، حتى جلسوا أخيرًا إلى مائدة العشاء، وساعدتها ابتسامات الجنرال المجاملة وشهيتها المفتوحة على استعادة هدوئها. كانت غرفة الطعام شاسعة، ذات اتساعٍ ملائم لتكون غرفة استقبال أكبر كثيرًا من تلك العادية التي يستخدمها أفراد الأسرة. كانت مجهَّزة بفخامة وثراءٍ، كادت عين كاثرين غير المتمرسة ألا تدركه، إذ لم ترَ أكثر من اتساعِها وعدد الخدم بها. عبَّرت عن إعجابها بتلك النقطة الأولى بصوتٍ مرتفعٍ، واعترف الجنرال بتهذيبٍ شديدٍ أنها ليست غرفة صغيرة بأي حالٍ من الأحوال، كما اعترف أيضًا أنَّه على الرغم من عدم اكتراثه بتلك الأمور مثل باقي الناس، إلا أنه كان يعِد غرفة الطعام الكبيرة بدرجة كافية، واحدة من ضرورات الحياة. قال:

- مع ذلك، أفترض أنكِ لا بُدَّ وأن تكوني اعتدتِ غرفًا أكبر كثيرًا لدى آل ألين.

قدَّمت له كاثرين تأكيدَها الصادق قائلة:

- لا، في الواقع. إنّ غرفة طعام السيد ألين لا تزيد عن نصف حجم هذه.

وقالت إنها لم يسبق وأن رأت غرفة بهذا الحجم في حياتها من قبل. ازداد مرح الجنرال، وقال إنه نظرًا لكونه يمتلك مثل هذه الغرفة، فقد ظنَّ أنَّ عدم استغلالها حماقة. لكنه أقسم بشرفه إنه يعتقد أنَّ الغرف التي بنصف حجم هذه الغرفة قد تكون أكثر راحة. كان على يقينٍ من أنَّ منزل السيد ألين لا بُدَّ وأن يكون بالحجم المثالي الملائم للسعادة المعقولة.

انقضت الأمسية من دون أي إزعاجٍ آخر، وفي الأوقات العارضة التي غاب خلالها الجنرال تيلني، سادت البهجة. لم تشعر كاثرين بأدنى قدرٍ من التعب بفعل رحلتها سوى في وجودِه فقط، وحتى ساعتها، حتى في لحظات الإرهاق أو التحفُّظ، هيمن شعورٌ عامٌّ بالسعادة، وكان بوسعِها التفكير في أصدقائها في باث، من دون أي أمنياتٍ بالتواجد بصحبتِهم.

كانت ليلة عاصفة، وظلَّت الريحُ تشتد على فتراتٍ متقطعة طوال ذلك المساء، حتى عصفت الريح وانهمرت الأمطار بغزارة عندما تفرَّق الجميع. استمعت كاثرين للعاصفة بإحساسٍ من الرهبة، بينما هي تعبر الردهة، وعندما سمعتها تعصف حول أحد أركان المبنى العتيق، وتصفق بابًا بعيدًا بغضبٍ مفاجئ، أحسَّت لأول مرة أنها في ديرٍ بالفعل. أجل، كانت هذه أصواتًا مميزة، جلبت لذاكرتِها مجموعة متنوعة لا حصر لها من المواقف والمشاهد المروعة التي شهدتها مثل هذه المباني، والتي صاحبتها عواصف كهذه، وابتهجت بشدة للظروف السعيدة التي صاحبت وجودها هي بين هذه الجدران المهيبة! لم يكن لديها هي ما تخشاه من قتلة ما بعد منتصف الليل، أو النبلاء المخمورين. بالقطع كان هنري يمزح فحسب بخصوص ما حكاه لها ذلك الصباح. في منزل مؤثَّث ومؤمَّن على هذا النحو، لم يكن لديها ما تستكشفه أو تعاني منه، وبوسعها أن تأوي لغرفة نومِها بأمانٍ، كما لو كانت في مخدعها في فولرتون. هكذا شجعت نفسها بحكمة، وشرعت تصعد الدرج، وتمكَّنت من ولوج غرفتها بثبات قلبٍ، خاصة بعد أن لاحظت أنَّ الآنسة تيلني تنام على مبعدة بابين منها فحسب، وارتفعت معنوياتها على الفور لمرأى النيران المشتعلة على نحوٍ مبهجٍ. تقدَّمت من سياج المدفأة وقالت:

- هذا أفضل كثيرًا. كم هو من الأفضل أن يجد المرء النار مشتعلة بالفعل، بدلًا من أن يضطر إلى الانتظار، مرتجفًا من البرد، حتى يأوي جميع أفراد الأسرة للفراش، كما اضطرت عديدٌ من الفتيات المسكينات، حتى تأتي خادمة عجوزٌ وفية لتخيف المرء بدخولها فجأة حاملة حزمة من الحطب! كم أنا سعيدة لأنَّ نورثانجر على حاله هذه! لو كان يشبه بعض الأماكن الأخرى، لا أعرف إن كان بوسعي التحلي بالشجاعة حينها، في ليلة كهذه. لكن بالتأكيد ليس هناك ما يستدعي القلق الآن .

تجوَّلت بنظرها في الغرفة. بدا أنَّ ستائر النافذة تتحرك. لا يمكن أن يكون ذلك سوى عنف الريح الذي يخترق فجوات المصاريع. اندفعت للأمام بجرأة، وهي تدندن لحنًا بلا مبالاة، لتؤكد لنفسها أن هذا هو السبب بالفعل، فاختلست نظرة بشجاعة خلف كل ستارة، ولم ترى شيئًا يثير خوفها على أي من مقاعد النوافذ المنخفضة. وحينما وضعت يدها على المصراع، اقتنعت بقوة الريح. بينما هي تستدير بعد أن تفحصت المصراع، حانت منها التفاتة نحو الصندوق القديم، ولم يكن هذا من دون فائدة، إذ أحسَّت بالازدراء لتلك المخاوف المنبثقة عن الخيالات الفارغة، التي لا أساس لها من الصحة، وبدأت تجهز

نفسها للنوم بسعادة ولا مبالاة. عليها أن تأخد ما تحتاجه من الوقت، وألا تتعجل. لم تكترث ما إذا كانت آخر شخص لا يزال مستيقظًا في المنزل. لكنها لن تضيف المزيدَ من الحطب للنيران، سيبدو ذلك نوعًا من الجبن، كأنَّها ترغب في حماية الضوء حتى بعد أن تأوي لفراشها. لذا خفتت النار، وبعد أن قضت كاثرين ما يقرب من الساعة في استعداداتها، بدأت تفكر في الخلود إلى الفراش. لكن عندما ألقت نظرة أخيرة حول الغرفة، لفت نظرها خزانة سوداء مرتفعة عتيقة الطراز، لم تلحظها من قبل على الرغم من كونها في مكانٍ واضحٍ بما فيه الكفاية. تذكرت على الفور كلمات هنري، ووصفه لخزانة من الأبنوس سيفوتها ملاحظتها في بادئ الأمر. ومع أنه لا يمكن أن يكون هناك شيءٌ في ذلك بالفعل، إلَّا أنَّ الأمر بدا غريبًا، وكانت بالتأكيد مصادفة غير عادية! تناولت شمعتها، وتفحصت الخزانة من كثبٍ. لم تكن مصنوعة من الأبنوس والذهب على الإطلاق، بل مطلية بالورنيش. ورنيش أسود وأصفر من أرقى الأنواع. وبينما كانت تمسك شمعتها، بدا للأصفر تأثيرٌ يشبه الذهب إلى حدٍّ كبيرٍ. كان المفتاح في الباب، وراودتها رغبة غريبة أن تنظر بداخلها، لكن لم يكن لديها أدنى توقُّع بالعثُور على أي شيء. إلَّا أنَّ الأمر كان غريبًا للغاية، بعد ما قاله هنري. باختصارٍ، لن تتمكَّن من النوم حتى تتفحصها، لذا وضعت الشمعة على كرسي بحرصٍ شديدٍ، وقبضت على المفتاح بيدٍ مرتعشة للغاية، وحاولت أن تديره، لكنه قاوم أقصى جهودها. ارتبكت، لكن ذلك لم يثبط عزيمتها. حاولت بطريقة أخرى، فانفتح ترباس، وظنَّت أنها نجحت، لكن يا للغرابة! ظلَّ الباب ثابتًا لا يتزحزح. توقفت للحظة، وهي تتعجب لاهثة. زأرت الريح خلال المدخنة، وضرب النوافذ وابلٌ من المطر، وبدا أن كلَّ شيء يعبر عن فظاعة موقفها. إلا أنه سيكون من العبث أن تخلد للفراش بينما لم تشبع فضولها حيال هذا الأمر، حيث سيستحيل عليها النوم مع إدراكها لوجود خزانة مغلقة على هذا النحو الغامض بالقرب منها. حاولت مع المفتاح مرة أخرى، وبعد تحريكه لبعض الوقت بكل طريقة ممكنة بسرعة وحزم، وبآخر جهدٍ وأملٍ لديها، انفتح الباب فجأة تحت يدها، ووثب قلبُها فرحًا لهذا النصر. وبعد أن فتحت كلا البابين القابلين للطي، حيث لم يكن الثاني مغلقًا سوى بمزاليج يقل تركيبها غرابة عن ذلك القفل، وعلى الرغم من أنَّ عينيها لم تستطيعا تمييز أي شيء خارج عن المألوف، ظهر أمامها صفٌّ مزدوجٌ من الأدراج الصغيرة، مع وجود بعض الأدراج الأكبر حجمًا فوقها وتحتها. وفي المنتصف، كان هناك بابٌ صغيرٌ مغلقٌ أيضًا بقفلٍ ومفتاحٍ، وبداخله على الأرجح تجويفٌ مهمٌّ.

تسارعت دقات قلب كاثرين، إلا أنها لم تفقد شجاعتها. علت الحمرة وجنتيها بدافعٍ من الأمل، والتمعت عيناها بالفضول. قبضت أصابعها على مقبض أحد الأدراج، وجذبته للخارج. كان خاليًا تمامًا. بقلقٍ أقل وحماسٍ أكبر، قبضت على ثانٍ، ثم ثالث ورابع، وكانت كلها فارغة. لم تدع واحدًا من دون تفتيشه، ولم تعثر على شيء في أي منهم. كانت قد قرأت كثيرًا عن فن إخفاء الكنوز، ولم تنسَ احتمال وجود بطانة زائفة للأدراج، فتحسَّست كل منها بقلقٍ حادٍّ، إلا أنَّ ذلك كان من دون جدوى. لم يبق مكانٌ لم تفتشه، سوى ذلك الكائن في المنتصف فحسب. وعلى الرغم من أنها منذ البداية، لم تراودها أدنى فكرة عن العثور على أي شيء في أي جزء من الخزانة، ولم تشعر بخيبة الأمل على الإطلاق لفشلها حتى هذه اللحظة، لكنها ستكون حماقة منها لو لم تستكمل تفتيشها جيدًا طالما شرعت في ذلك بالفعل. إلا أن الأمر استغرق منها بعض الوقت، حتى نجحت في فتح الباب، فقد واجهت مع هذا القفل الداخلي نفس الصعوبة التي واجهتها مع القفل الخارجي. لكنه انفتح أخيرًا، ولم يكن بحثها

عبثًا كالسابق. سرعان ما وقعت عيناها على لفافة من الورق مدفوعة في أبعد أركان ذلك التجويف، لإخفائها على ما يبدو. كانت مشاعرها في تلك اللحظة لا توصف. خفق قلبُها، واصطكت ركبتاها، وشحبت وجنتاها. قبضت على المخطوطة الثمينة بيدٍ مرتعشة، إذ كانت لمحة سريعة كافية للتأكد من وجود أحرف مكتوبة. وبينما أدركت بشعورٍ مروعٍ هذا التشابه المذهل مع ما سبق وأن تنبَّأ به هنري، عزمت على قراءة كل سطر على الفور قبلَ خلودها للنوم.

جعلها خفوت ضوء شمعتها تلتفت نحوها بقلقٍ، لكن لم يكن هناك خطرٌ من انطفائها فجأة. كان لا يزال أمامها بضع ساعات لتبقى مشتعلة. وحتى لا تعاني من صعوبة في تمييز ما هو مكتوب، أكثر من تلك التي قد تواجهها بسبب قدم المخطوطة، قامت بقص رأس الشمعة على عجلٍ. ([16]) يا للأسف! لقد قصَّتها وأطفأتها في نفس الوقت. لم يكن من الممكن حتى لانطفاء المصباح أن يصير له مثل ذلك التأثير المروع. ([17]) تجمَّدت كاثرين في رعبٍ لبضع لحظاتٍ. قُضي الأمرُ تمامًا، ولم تعد هناك بقية من جذوة مشتعلة في الفتيل، تمنح الأمل لأنفاسها التي تنفخ فيه محاولة إعادة إشعاله. امتلأت الغرفة بظلامٍ دامسٍ لا يمكن اختراقه. تعالت الريح، وعصفت بغضبٍ مفاجئ، وأضافت للحظة رعبًا جديدًا. ارتعدت كاثرين من رأسها حتى أخمص قدميها. في الصمت الذي تلى ذلك، رنَّ في أذنيها الوجلتين صوتٌ يشبه وقع أقدام مبتعدة، وباب بعيد يُغلق. لم يكن بوسع الطبيعة البشرية تحمُّل المزيد. ندَّى العرقُ البارد جبينَها، وسقطت المخطوطة من يدها. تلمَّست طريقَها إلى الفراش، وقفزت إليه على عجلٍ، محاولة التخفيف من عذابها ذاك بأن اندسَّت بعيدًا تحت الأغطية. بدا لها من المستحيل تمامًا أن تتمكَّن من إغلاق عينيها والخلود إلى النوم في تلك الليلة. لا بُدَّ وأن تكون الراحة مستحيلة تمامًا بينما فضولها مستثارٌ إلى هذا الحدِّ، ومشاعرها مضطربة بكلِّ شكلٍ ممكنٍ. كما كانت العاصفة في الخارج مروعة للغاية! لم تكن تشعر بالخوف من الريح من قبل، إلَّا أنَّ كلَّ صفيرٍ الآن بدا كأنه محمَّلٌ بأخبار مروعة. تلك المخطوطة التي عثرت عليها بهذا الشكل الغريب، بحيثُ تحققت نبوءة ذلك الصباح على هذا النحو المدهش، كيف يمكن تفسير ذلك؟ وما الذي يمكن أن تحتوي عليه؟ ولمن يمكن أن تعود؟ وكيف أمكن إخفاؤها طيلة هذا الوقت؟ وكم هو غريبٌ أن يقع على عاتقها هي اكتشافها! لن تتمكن من الاطمئنان أو الارتياح، حتى تكتشف محتواها، وعقدت العزم على الاطلاع عليها مع أول ضوءٍ للشمس. لكن كانت هناك عديدٌ من الساعات المليئة بالضجر، والتي يجب أن تنقضي أولًا. ارتعدتْ وتقلَّبت في فراشِها، وحسدت كلَّ من ينعم بنوم هادئ. كانت العاصفة لا تزال مستعرة، وبلغت مسامعها على فترات متقطعة عديدٌ من الأصواتً المخيفة أكثر من الريح حتى. بدت ستائر فراشها تهتز للحظة، وفي اللحظة التالية تقلقل قفل الباب، كأنَّ أحدهم يحاول الدخول. بدا كأنَّ همهمات جوفاء تتسلل بطول الرواق، وتجمَّدت الدماء في عروقها أكثر من مرة بسبب صوت نواحٍ بعيدٍ. انقضت الساعة تلو الأخرى، وسمعت كاثرين المنهكة جميع الساعات في المنزل وهي تدقُّ معلنة الساعة الثالثة، قبل أن تنحسر العاصفة، أو تغرق هي في النوم على غفلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 7 -

كان صوت الخادمة وهي تفتح مصاريع النافذة في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، هو أول ما أيقظ كاثرين. فتحت عينيها، متعجبة من أنهما انغلقتا من الأساس، فوقع نظرُها على أشياءٍ مبهجة، وقد أُشعلت النار بالفعل، وحلَّ صباحٌ مشرقٌ محلَّ عاصفة الليلة الماضية. ما إن استفاقت حتى عادت لها على الفور ذكرى المخطوطة، فقفزت من الفراش في نفس اللحظة التي خرجت فيها الخادمة، وجمعت بلهفة كلَّ الأوراق المتناثرة التي انفلتت من اللفافة عند سقوطها على الأرض. بعدها عادت مسرعة للاستمتاع برفاهية الاطلاع عليها، متكئة على وسادتها. رأت بوضوح الآن أنَّ عليها ألا تتوقع مخطوطة يضاهي طولها تلك المخطوطات التي أثارت فيها الرعدة بشكلٍ عامٍّ حينما قرأت عنها في الكتب. بدت اللفافة كأنَّها مؤلفة بالكامل من صفحاتٍ صغيرة منفصلة، كما كانت صغيرة الحجم، وأقل كثيرًا مما اعتقدت في البداية.

جرت عيناها بنهم فوق إحدى الصفحات، وفوجئت من فحواها. هل يمكن هذا، أم أنَّ حواسَها تخدعها؟ بدا أنَّ كلَّ ما أمامَها هو قائمة جردٍ للملابس فحسب، مكتوبة بأحرف حديثة وبخط سيِّئ. لو كان بوسعها تصديق ما تراه عيناها، فقد كانت تمسك بيدها قائمة للغسيل. أمسكت صفحة أخرى، فرأت نفس الشيء، مع اختلاف بسيطٍ، كما لم تقدِّم صفحة ثالثة ورابعة وخامسة أيَّ جديدٍ. وجدت في كلٍّ منها قوائمَ من القمصان والجوارب وأربطة العنق والصدريات. في صفحتين أخريين خطَّتهما نفس اليد، وجدت قائمة بنفقاتٍ لا تثير الاهتمام أكثر مما سبق: رسائل بريدية، ومساحيق للشعر، وأربطة للأحذية، وصابون. أما أكبر صفحة، التي التفَّت حول باقي الصفحات، فبدا أول سطر منها يصعب قراءته: «وضع كمادة لعلاج جرح فرس كستنائي». فاتورة بيطار! كان هذا هو فحوى مجموعة الأوراق، (التي افترضت حينها أن خادمة مهملة تركتها في المكان الذي أخذتها هي منه)، التي ملأتها بالترقُّب والقلق، وحرمتها النوم لنصف الليلة الماضية! أحسَّت بخزي شديدٍ. ألم يكن بوسعها تعلُّم الحكمة من مغامرتها مع الصندوق؟ لفت أحد أركانه انتباهها بينما هي ممددة هناك، وبدا كأنه يطلق عليها حكمه. لا يمكن أن يكون هناك ما هو أوضح الآن، أكثر من سخافة خيالاتها الأخيرة تلك. أن تفترض أنه من الممكن بقاء مخطوطة تعود لعدة أجيالٍ مضتْ من دون أن يكتشفها أحدٌ في غرفة كهذه، حديثة للغاية وصالحة للسكن! أو أن تكون هي أول من يمتلك المهارة اللازمة لفتح خزانة، مفتاحها موجودٌ أمام الجميع!

كيف استطاعت أن تخدع نفسَها لهذا الحدِّ؟ حاشا للسماء أن يعرف هنري تيلني حماقتها هذه أبدًا! وقد كان هو السبب في ذلك بدرجة كبيرة، لأنَّه لو لم تكن الخزانة تبدو كأنها تطابق إلى حدٍّ كبيرٍ تلك التي وصفها في مغامراتها، لما شعرت حيالها بأدنى قدرٍ من الفضول. كان ذلك هو مصدر الراحة الوحيد بالنسبة إليها. تلهَّفت للتخلُّص سريعًا من ذلك الدليل الكريه على حماقتِها، تلك الأوراق البغيضة المتناثرة على فراشِها، فنهضت على الفور وطوتها بنفس الشكل الذي كانت عليه من قبل قدر استطاعتها، وأعادتها إلى نفس المكان داخل الخزانة، وهي تتمنَّى بشدة ألا يتسبَّب أيُّ حادثٍ غير مرغوب فيه بإخراجهم مرة أخرى، كي لا تشعر بالخزي ولو أمام نفسها.

مع هذا، كانت صعوبة فتح الأقفال حينها لا تزال أمرًا غريبًا، حيث إنها تمكنت من فتحها الآن بسهولة تامة. كان هناك شيءٌ غامضٌ في ذلك بالتأكيد، وانشغلت بالتفكير في تلك الفكرة المغرية لنصف دقيقة، حتى طرأ على ذهنِها احتمالٌ أنَّ الباب كان مفتوحًا في البداية، حتى أغلقته هي، وجعلها ذلك تتضرَّج حُمرة بفعل الخجل مرة أخرى.

هربت بأسرع ما يمكنها من تلك الغرفة التي كان سلوكها فيها ينتج تلك الأفكار غير السارة، ووجدت طريقها سريعًا لغرفة الإفطار، التي أشارت لها الآنسة تيلني في مساء اليوم السابق. كان هنري بمفرده في الغرفة، وانزعجت للغاية عندما تمنَّى على الفور ألا تكون انزعجت من العاصفة، مع الإشارة بمكرٍ إلى طبيعة المبنى الذي يسكنونه. لم تكن تريد انكشاف نقطة ضعفها ولو مقابل أي شيء، ومع ذلك لم تكن قادرة على الكذب بصورة مطلقة، فاضطرت إلى الاعتراف بأن الريح أبقتها مستيقظة لبعض الوقت، ثم أضافت قائلة، وهي ترغب في التخلُّص من الموضوع:

- لكن ها نحن نتمتع بصباحٍ جميلٍ بعدها، ولا تعود هناك أهمية للعواصف أو السهاد بعد انقضائهما. يا لها من زهورٍ ياقوتية جميلة! لقد تعلَّمتُ للتوِّ أن أحب زهور الياقوتية.

- وكيف تعلمتِ؟ بالمصادفة أم بالإقناع؟

- لقد علمتني شقيقتكَ. لا أعرف كيف. اعتادت السيدة ألين بذل الجهد عامًا بعد عام، كي تجعلني أحبهم، لكنني لم أستطع ذلك على الإطلاق، حتى رأيتهم منذ بضعة أيامٍ في شارع ميلسوم. أنا لا أبالي بالزهور بطبيعة الحال.

- لكنكِ الآن تحبين زهور الياقوتية. هذا أفضل كثيرًا. لقد اكتسبتِ مصدرًا جديدًا للمتعة، ومن الجيد أن يكون لدى المرء أكبرُ قدرٍ ممكنٍ من مصادر السعادة. علاوة على ذلك، فإن حبَّ الزهور أمرٌ مرغوبٌ فيه دومًا في بناتٍ جنسكِ، كوسيلة لتشجيعكن على الخروج وإغرائكن بالتريُّض، بدرجة أكبر مما قد تفعلن في العادة. وعلى الرغم من أنَّ حبَّ زهور الياقوتية قد يكون مرتبطًا بالمنزل إلى حدٍّ ما، فمن يدري، بما أن الشعور تولَّد لديكِ، فربما تتعلمين حبَّ الورد بمرور الوقت. (18)

- لكنني لستُ بحاجة لذلك لتشجيعي على الخروج؛ إن متعة التمشية واستنشاق الهواء النقي كافية بالنسبة إليَّ، وحينما يكون الطقس جيدًا، أمضي أكثر من نصف وقتي بالخارج. تقول أمي إنني لا أبقى بالداخل على الإطلاق.

- على أي حالٍ، أنا سعيدٌ لأنكِ تعلمتِ حب زهور الياقوتية. إن مجرد تعلُّم المرء كيف يحب الأشياء، هو ما يهم، كما أنَّ قابلية الشابة للتعلُّم هي نعمة عظيمة. هل لشقيقتي أسلوبٌ لطيفٌ في التعليم؟

أنقذ دخول الجنرال كاثرين من حرج محاولة الإجابة، ودلَّت مجاملاته الباسمة على اعتدال مزاجِه، إلَّا أنَّ تلميحه بلطفٍ إلى أن الاستيقاظ مبكرًا سيكون ملائمًا بدرجة أكبر، لم يعنها على الحفاظ على رباطة جأشها.

ما إن جلسوا إلى المائدة حتى انتبهت كاثرين لأناقة أطباق الإفطار، ومن حسن الحظ أنها كانت من اختيار الجنرال. أحسَّ بالسعادة لاستحسانِها ذوقه، واعترف بكونه أنيقًا وبسيطًا، وأعلن أنه يؤمن

بتشجيع صناعة بلاده. ومن جانبه، بالنسبة إلى ذوقه الذي لا يمحص كثيرًا، كان طعم الشاي جيدًا في الخزف المصنوع من طين ستافوردشير، تمامًا مثلما كان في تلك المصنوعة من طين دريسدين أو سيف. لكن طقم الخزف هذا كان قديمًا للغاية، تم شراؤه منذ عامين. وقد تحسَّنت عمليات التصنيع كثيرًا منذ ذلك الحين، كما أنه شاهد بعضَ النماذج الجميلة عندما كان في لندن آخر مرة. ولولا أنه لا يتسم بذلك النوع من الخيلاء، لانجرَّ لغواية طلب طقم جديد. ومع ذلك، كان على يقين من أنَّ الفرصة قد تسنح له قريبًا لاختيار طقمٍ جديدٍ، لكن ليس لنفسِه. ربما كانت كاثرين هي الوحيدة من بين الحضور التي لم تفهم مقصده.

بعد الانتهاء من الإفطار بوقتٍ قصير، تركهم هنري متجهًا إلى وودستون، حيث تطلَّب منه عمله ذلك، وكان سيبقى هناك ليومين أو ثلاثة. انتظر الجميع في الردهة لوداعِه وهو يركب حصانه، وبعد عودتهم إلى غرفة الإفطار مرة أخرى، توجَّهت كاثرين نحو النافذة على الفور على أمل أن تلمح هيئته ثانية. قال الجنرال مخاطبًا إليانور:

- هذا يمثِّل عبئًا ثقيلًا إلى حدٍّ ما، على قوة تحمُّل شقيقكِ. سيبدو منزل وودستون بمظهرٍ كئيبٍ اليوم.

سألت كاثرين:

- هل هو مكانٌ جميلٌ؟

- ما رأيكِ أنتِ، يا إليانور؟ قولي رأيكِ، فالسيدات هن الأكثر دراية بذوق السيدات الأخريات فيما يتعلَّق بالأماكن، وكذلك بالرجال. أعتقد أنَّ أكثر الأعين حيادية ستعترف أنه مكانٌ يتمتَّع بعديدٍ من المزايا. يقع المنزل وسط مروجٍ جميلة، مواجهًا جهة الجنوب الشرقي، ملحقٌ به حديقة ممتازة للمطبخ في الجهة نفسها، وقد بنَيتُ الجدران المحيطة به ودعمتها بنفسي لصالح ابني، منذ عشر سنوات. إنَّه سكنٌ عائلي لكاهن الأبرشية، يا آنسة مورلاند. وحيث إن معظم المكان مملوكٌ لي، فيمكنكِ تخيُّل أنني أهتم بألَّا يكون في حالة سيئة. حتى لو كان هنري يعتمد في دخلِه فقط على منصبه ككاهنٍ لهذه الأبرشية، لكفاه ذلك. ربما يبدو من الغريب أن أفكر أنَّه بحاجة لأي مهنة على الإطلاق، في وجود اثنين من الأبناء الأصغر سنًّا فحسب. ([19]) وبالتأكيد فإنَّ هناك بعضَ اللحظات التي نتمنى فيها جميعًا لو أنه بوسعه التحرُّر من أي روابط يربطه بها العمل. لكن على الرغم من أنني قد لا أتمكن من إقناعكما تمامًا، أيتها الشابتان، إلا أنني على يقينٍ من أنَّ والدكِ، يا آنسة مورلاند، سيتفق معي في التفكير أنه من المناسب منح كل شابٍّ عملًا ما. ليس المال هو المهم، وهو ليس هدفًا لذاته، لكن ما يهم هو العمل. حتى فريدريك، ابني الأكبر، كما ترين، الذي ربما يرث أراضٍ وعقارات هائلة كأي رجلٍ نبيلٍ في المقاطعة، لديه مهنته التي يعمل بها.

بدا التأثير العظيم لجدالِه الأخير هذا مرضيًا لرغباته، إذ أثبتت السيدة بصمتِها أنه ليس هناك ما يُقال للرد عليه.

كانوا قد ذكروا شيئًا ما في الليلة الماضية، بخصوص اصطحابها لمشاهدة المنزل، وعرض هو الآن أن يقودها في جولة بنفسِه. وعلى الرغم من أنَّ كاثرين كانت تأمل في استكشافِه برفقة ابنته فقط، إلَّا أنَّ هذا الاقتراح كان يبعث على السعادة في حدِّ ذاتِه، تحت أي ظرفٍ من الظروف، بحيث لا يسعها

إلا أن تقبله بترحيبٍ؛ إذ إنها أمضت بالفعل ثماني عشرة ساعة في الدير، ولم ترَ سوى عددٍ قليلٍ من غرفه. كان صندوق أدوات الغزل قد أُخرج على مهلٍ، لكنَّها أغلقته ببهجة على عجلٍ، وفي لحظة، صارت مستعدة لمرافقتِه. علاوة على ذلك، وعد بعد أن ينتهوا من مشاهدة المنزل، باصطحابها بنفسه في جولة للاستمتاع بمشاهدة الحديقة والمناطق المزروعة بالشجيرات. انحنت له مبدية موافقتها. لكن ربما كانت تفضل أن تشاهد الحديقة أولًا؟ كان الجو ملائمًا في الوقت الحالي، وفي مثل هذا الوقت من العام، كان هناك شكٌّ كبيرٌ في استمراره على هذا النحو. ما الذي تفضله؟ كان تحت أمرها في أي حالٍ من الأحوال. ما الذي كانت ابنته تعتقد أنه يتوافق أكثر مع رغبات صديقتها الجميلة؟ لكنه يعتقد أن بوسعه التمييز. أجل، لقد قرأ في عيني الآنسة مورلاند بالقطع رغبة حكيمة في الاستفادة من الطقس الباسم في الوقت الحالي. لكن منذ متى كانت تخطئ الحكمَ على الأمور؟ فسوف يظل الدير آمنًا وجافًّا على الدوام. وافقها الرأي بشكلٍ مطلقٍ، وسيذهب لإحضار قبعته ويعود لمرافقتهما بعد لحظة.

غادر الغرفة، وبدت خيبة الأمل والقلق على وجه كاثرين، التي شرعت تعبِّر عن عدم رغبتها في أن يصحبهما للخارج ضد رغبته، وهو يخطئ الاعتقاد بأن ذلك يرضيها هي. إلَّا أنَّ الآنسة تيلني أوقفتها ببعض الارتباك، وقالت:

- أعتقد أنه سيكون من الحكمة الاستفادة بالنهار طالما ظلَّ صحوًا لهذا الحدِّ. ولا تقلقي بشأن والدي، فهو دومًا ما يخرج للتريض في مثل هذا الوقت من اليوم.

لم تعرف كاثرين كيف تفهم هذا الأمر بالتحديد. لمَ بدا الإحراج على الآنسة تيلني؟ هل يمكن أن يكون الجنرال غير راغبٍ في اصطحابها لرؤية الدير؟ لكنه هو كان صاحب الاقتراح. وألم يكن من الغريب أن يذهب للتريض دومًا في وقتٍ مبكرٍ لهذا الحد؟ لم يكن والدها ولا السيد ألين يفعلان ذلك. كان الأمر مستفزًّا، بكل تأكيدٍ. كانت متلهفةً لرؤية المنزل، بينما لم يكن لديها أي اهتمامٍ يُذكَر بالأراضي المحيطة به. كانت ستهتم بالقطع لو كان هنري برفقتهم! لكنها الآن لن تستطيعَ تمييز المشاهد التي تستحق التصوير عندما تراها. كانت هذه هي أفكارها التي احتفظت بها لنفسها، وارتدت قلنسوتها بصبرٍ واستياءٍ.

مع ذلك، فقد اندهشتْ بدرجة تتجاوز توقعاتها من فخامة الدير، عندما رأته للمرة الأولى من الحديقة. كان المبنى بأكملِه يحيط بساحة كبيرة، وقد برز جانبي المربع بزخارفهما القوطية الغنية التي تستدعي الإعجاب. اختفى بقية المنظر وراء روابي الأشجار القديمة ومجموعات الأشجار الكثيفة المزروعة حديثًا. كما أنَّ التلال شديدة الانحدار المغطاة بالأشجار، التي تظل المنزل من الخلف، بدت جميلة حتى في شهر مارس الذي تتساقط فيه أوراق الأشجار. لم يسبق لكاثرين أن رأت شيئًا يُقارن به، وكان شعورها بالبهجة قويًّا للغاية، لدرجة أنها لم تنتظر رأيًا آخر أفضل، بل اندفعت في إبداء الدهشة والثناء. استمع لها الجنرال بتقبُّلٍ وامتنانٍ، وبدا كما لو أنَّ رأيه الخاص في نورثانجر ظلَّ غيرَ محددٍ حتى هذه الساعة.

بعد ذلك كان عليهم رؤية حديقة المطبخ، فقادهما إليها عبر جزءٍ صغيرٍ من الحديقة.

لم تستطع كاثرين سماع عدد الأفدنة التي تشملها هذه الحديقة من دون الشعور بالصدمة، إذ كانت أكثر من ضعف مساحة كل حدائق السيد ألين ووالدها، بما في ذلك ساحة الكنيسة والبستان. بدا عدد

الجدران لا حصر له، وامتدادها لا متناهٍ، كما بدا كأنّ هناك قرية بأكملها مؤلفة من الصوبات الزجاجية نشأت بين تلك الجدران، وسكان أبرشية كاملة يعملون داخل تلك المساحة المسورة. أحسَّ الجنرال بالإطراء من نظرة الدهشة التي علت ملامحها، والتي أخبرته بوضوحٍ، كما أجبرها بعد قليلٍ على إخباره بالكلمات، أنها لم يسبق لها أن رأت أي حدائق تضاهيها على الإطلاق من قبل. اعترف بتواضعٍ قائلًا إنه لم يتعمد ذلك أو يسعَ له على الإطلاق، لكنه يعتقد أنه لا يوجد ما يضاهيها في جميع أرجاء المملكة، ولو كانت لديه أي هواية، فهي هذه الحديقة. كان يحب الحدائق. وعلى الرغم من عدم اكتراثه بشأن الطعام بصفة عامة، إلا أنه كان يحب الفاكهة الجيدة، أو لو لم يكن، فعلى الأقل كان أبناؤه وأصدقاؤه كذلك. لكن كانت هناك مشاكل كبيرة متعلقة برعاية حديقة كهذه. لم تكن أقصى درجات الرعاية تضمن دومًا الحصول على أغلى الثمار، إذ لم تنتج الحديقة سوى مئة من ثمار الأناناس فحسب في العام الماضي. أبدى اعتقاده بأن السيد ألين لا بُدَّ وأن يعاني نفسَ هذا الانزعاج مثله تمامًا.

- لا، على الإطلاق. السيد ألين لا يكترث بالحديقة، ولا يدخلها أبدًا.

بابتسامة انتصارٍ ورضا عن النفس، تمنَّى الجنرال لو أنه يستطيع فعلَ الشيء نفسه، فلم يكن يدخل حديقته أبدًا من دون الانزعاج بطريقة أو بأخرى لكونها لا ترقى لما خطط له.

سأل بينما هم يلِجون صوباته الزجاجية، وهو يشرح طريقة عملها:

- ما هو نظام العمل في الصوبات الزجاجية المتدرجة الحرارة التي يمتلكها السيد ألين؟

- لا يمتلك السيد ألين سوى صوبة واحدة صغيرة فحسب، تستغلها السيدة ألين من أجل نباتاتها في فصل الشتاء، وكانت تشعل بداخلها النار لتدفئتها بين حينٍ وآخر.

قال الجنرال بنظرة احتقارٍ بالغة السعادة:

- إنَّه رجلٌ سعيدُ الحظ!

بعد أن اصطحبها لجميع الأقسام، وقادها تحت كل جدارٍ، حتى سئمت بشدة من المشاهدة والتجوال، ترك الفتاتين تخرجان أخيرًا عبر بابٍ خارجي، ثم عبَّر عن رغبتِه في تفحُّص تأثير بعض التعديلات الأخيرة في صوبة الشاي، واقترح أن يكون ذلك امتدادًا لطيفًا لتمشيتهم، لو لم تكن الآنسة مورلاند تشعر بالتعب.

- لكن إلى أين أنتِ ذاهبة، يا إليانور؟ لمَ اخترتِ ذلك الطريق البارد الرطب للتوجُّه إلى هناك؟ ستبتل الآنسة مورلاند. أفضل طريق لنا يقع عبر الحديقة.

قالت الآنسة تيلني:

- هذا الطريق مفضَّل لي بدرجة كبيرة، لدرجة أنني دومًا ما أعتقد أنه أفضل وأقصر طريقٍ. لكن ربما يكون رطبًا بالفعل.

كان طريقًا ضيقًا متعرجًا، يمرُّ عبر بستانٍ كثيفٍ من أشجار التنوب الاسكتلندي القديمة. لفت طابعه الموحش انتباه كاثرين، وباتت تتوق لدخوله، حتى إن استنكار الجنرال لم ينجح في منعِها من المضي قدمًا. أدرك رغبتها تلك، وبعد أن أبدى تحذيراتِه الصحية عبثًا مرة أخرى، منعه التهذيب من إبداء الاعتراض أكثر من ذلك. إلا أنه اعتذر عن مرافقتهما، إذ لم تكن أشعة الشمس مشرقة هناك بما يكفي بالنسبة إليه، لذا سيقابلهما عند طريقٍ آخر. استدار مبتعدًا، وأحسَّت كاثرين بالصدمة من كم الارتياح الذي شعرت به لذلك الفراق. إلا أنَّ شعورَها بالارتياح فاق صدمتها، فأخذت تتحدث ببساطة ومرحٍ عن الكآبة اللذيذة التي يثيرها فيها هذا البستان. قالت رفيقتها بتنهيدة:

- أنا مغرمة بهذه البقعة على نحوٍ خاصٍ. لقد كان هذا هو الممشى المفضَّل لوالدتي.

لم تسمع كاثرين أحدًا من الأسرة يذكر السيدة تيلني من قبل، فظهر على وجهها على الفور أثر الاهتمام الذي أثارته هذه الذكرى الرقيقة، كما ظهر ذلك من خلال صمتِها وانتباهِها بينما هي تنتظر سماع المزيد.

أضافت إليانور قائلة:

- اعتدتُ التمشية بصحبتها كثيرًا هنا! على الرغم من أنني لم أكن أحبه ساعتها، بقدر ما أحبه الآن. في الواقع كنت أتعجب من خيارها آنذاك. لكن ذكراها تجعل المكان عزيزًا عليَّ الآن.

فكرت كاثرين:

- ألا يجدر بذلك أن يجعله عزيزًا على زوجها؟ مع ذلك، فقد رفض الجنرال الدخول إليه.

واصلت الآنسة تيلني الصمتَ، فقالت كاثرين:

- لا بُدَّ وأن موتها كان بلاءً عظيمًا!

أجابتها الأخرى بصوتٍ خفيضٍ:

- بلاءً عظيمًا ومتزايدًا. كنتُ في الثالثة عشرة من العمر فحسب حينما حدث ذلك، وعلى الرغم من أنني شعرتُ بخسارتي بقدر ما يمكن أن يشعر بذلك أي شخصٍ في مثل ذلك السن الصغير، إلا أنني لم أدرك، ولم يكن بوسعي أن أدرك حينها مدى فداحة الخسارة بالفعل.

توقفتْ للحظة، ثم أضافت بتوكيدٍ شديدٍ:

- ليست لديَّ شقيقة، كما تعلمين. وعلى الرغم من أن هنري... على الرغم من أنَّ شقيقاي حنونان للغاية، وهنري متواجدٌ هنا كثيرًا، وهو شيء أشعر بالامتنان البالغ له، إلا أنه من المستحيل بالنسبة إليَّ ألا أشعر بالوحدة في كثيرٍ من الأحيان.

- من المؤكد أنكِ تفتقدين وجوده كثيرًا.

- كانت الأم ستظل موجودة على الدوام. كانت الأم ستصير صديقة دائمة، يفوق تأثيرها أي تأثيرٍ آخر.

هل كانت امرأة فاتنة للغاية؟ هل كانت جميلة؟ هل هناك أي صورة لها في الدير؟ ولمَ كانت تميل بشدة على هذا النحو لذلك البستان؟ هل كان ذلك بدافعٍ من تدني معنوياتها؟ تدفقت تلك الأسئلة من كاثرين بحماسٍ، وتلقت ردًّا بالإيجاب على أول ثلاثةٍ، بينما تم تجاهل السؤالين الأخيرين. تزايد اهتمام كاثرين بالسيدة تيلني الراحلة مع كل سؤال، سواء تلقَّت له جوابًا أم لا. أحسَّت بالاقتناع بكونها تعيسة في زواجها، وبأن الجنرال بالتأكيد كان زوجًا قاسيًا. لم يكن يحب الممشى الخاص بها، فهل يمكن أن يكون قد أحبها هي إذن؟ علاوة على ذلك، فعلى الرغم من وسامته، إلا أنه كان هناك شيءٌ ما في ملامحه يشير لكونه لم يُحسِن معاملتها.

تضرَّج وجه كاثرين خجلًا من خبث سؤالها، وقالت:

- إنَّ صورتها، على ما أظن، معلقة في غرفة والدكِ؟

- لا، كان من المفترض أن تُعلَّق في غرفة الاستقبال، لكنَّ والدي لم يرضَ عن اللوحة، وظلَّت لفترة من الوقت من دون أن يكون لها مكانٌ. وبعد وفاتها بفترة وجيزة، أخذتها لنفسي وعلقتها في غرفة نومي، حيث يسعدني أن أريكِ إياها. إنها تشبهها للغاية.

ها هو دليل آخر: لوحة تشبه إلى حدٍّ بعيدٍ الزوجة الراحلة، ولا يقدِّرها الزوج! لا بُدَّ وأنَّه كان بالغَ القسوة حيالها!

لم تعد كاثرين تحاول أن تخفي عن نفسها طبيعة المشاعر التي أثارها فيها على الرغم من كل مجاملاته، وتحوَّل ما كان خوفًا ونفورًا من قبل، ليصير كراهية مطلقة. أجل، كراهية! جعلته قسوته حيال امرأة فاتنة لهذا الحدِّ يبدو بغيضًا بالنسبة إليها. كانت قد قرأت كثيرًا عن مثل هذا النوع من الشخصيات، شخصيات اعتاد السيد ألين أن يسميها غير طبيعية أو مُبالغًا فيها، لكن ها هو دليل قاطع يثبت عكس رأيه ذلك.

كانت قد انتهت من التفكير في هذه النقطة، عندما أوصلتهما نهاية الطريق إلى الجنرال مباشرة، وعلى الرغم من كل سخطها الأخلاقي، وجدت نفسَها مضطرة مرة أخرى إلى السير معه والاستماع إليه، وحتى لمبادلته الابتسام عندما يبتسم هو. إلا أنها لم تعد قادرة على الاستمتاع بالمناظر المحيطة، وسرعان ما أخذت تسير متثاقلة، ولاحظ الجنرال ذلك، فأبدى اهتمامًا بصحتها كأنه يوبِّخها لرأيها فيه، وألحَّ بشدة على عودتها إلى المنزل مع ابنته، على أن يلحق هو بهما بعد ربع ساعة. افترقوا مرة أخرى، لكنه استدعى إليانور بعد نصف دقيقة وأصدر لها أمرًا صارمًا بألا تصحب صديقتها في جولة بالدير حتى عودته. بدا الأمر شديد الغرابة لكاثرين، حين أظهر الجنرال للمرة الثانية تلهُّفه على تأجيل ما تتوق له هي بشدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 8 -

مرَّت ساعة قبل عودة الجنرال، وقضت ضيفته الشابة معظم تلك الساعة في تأمُّل شخصيته في ضوء غير إيجابي على الإطلاق. لم يكن هذا الغياب المطول وهذه النزهات المنفردة يدلَّان على عقلٍ ينعم بالراحة، أو ضميرٍ سالمٍ من التأنيب. ظهر أخيرًا، وبغض النظر عن كآبة ما كان يشغل تفكيره، إلا أنه ظلَّ بوسعِه الابتسام مع ذلك. كانت الآنسة تيلني تتفهَّم جزئيًّا مدى فضول صديقتها لرؤية المنزل، لذا سرعان ما أعادت ذكر الموضوع، وخلافًا لتوقعات كاثرين، لم يعد لدى والدها أي ذريعة أخرى للتأجيل، سوى التوقف لخمس دقائق لطلب المرطبات حتى تكون جاهزة في الغرفة عند عودتهم، وأبدى استعداده لمرافقتهما أخيرًا.

مضوا قدمًا، وبجوٍّ من المهابة وبخطوة رصينة تلفت الأنظار، لكنها لم تفلح في إبعاد الشكوك التي ساورت كاثرين الواسعة الإطلاع، قادهما عبر الردهة وخلال غرفة الاستقبال العادية، وغرفة جانبية غير ذات أهمية، إلى غرفة رائعة من ناحية الحجم والأثاث. كانت هذه هي غرفة الاستقبال الحقيقية، التي لا تستخدم سوى في وجود ضيوفٍ فائقي الأهمية. كانت فخمة للغاية، ورائعة جدًّا، وساحرة لأقصى درجة! هذا هو كل ما تمكَّنت كاثرين من النطق به، إذ لم تلحظ عيناها التي تفتقد للتمييز إلا بالكاد لون الساتان، لذا أثنى الجنرال بنفسه على كل التفاصيل الدقيقة ذات الأهمية التي تستحق الثناء. لم تكن تكلفة أو أناقة أثاث أي غرفة تعني شيئًا بالنسبة إليها، فلم تكن تهتم بأي أثاثٍ أحدث من ذلك الذي يعود للقرن الخامس عشر. بعد أن أشبع الجنرال فضوله الشخصي، وتفحص بدقة كل الزخارف التي يعرفها جيدًا، دخلوا إلى المكتبة، التي كانت غرفة تضاهي سابقتها روعة، وكان معروضًا بها مجموعة من الكتب التي يمكن لرجلٍ متواضعٍ أن يتأمَّلها بفخر. أنصتت كاثرين، وأبدت إعجابَها، وتعجبت بمشاعر صادقة أكثر من ذي قبل، وألَمَّت بكلِّ ما بوسعِها الإلمام به من مخزون العلم هذا، بأن ألقت نظرة على نصف عناوين الكتب التي تعلو أحدَ الأرفف، ثم صارت على استعدادٍ للمضي قدمًا. لكنها لم تلقَ الكثيرَ من الأجنحة المليئة بغرفٍ متعددة كما كانت تأمل. على الرغم من ضخامة المبنى، إلا أنها شاهدت الجزء الأكبر منه بالفعل. لكن عندما قيل لها إنه بالإضافة للمطبخ، فإن الست أو السبع غرف التي شاهدتها الآن تحيط بثلاثة جوانب من الساحة، لم تستطع تصديق ذلك، أو التغلب على شكوكها في وجود عديد من الحجرات السرية. مع ذلك، أحسَّت ببعض الارتياح وهم يعودون في طريقهم إلى الغرف الشائعة الاستخدام، مارِّين عبر عددٍ من الغرف الأقل أهمية المطلة على الساحة، والتي كانت تصل بين الجوانب المختلفة بين حينٍ وآخر عبر ممراتٍ معقدة. أحسَّت بالارتياح أكثر بينما هم في طريقهم، عندما قيل لها إنها تطأ الآن جزءًا مما كان سكن الرهبان في السابق، مع الإشارة لآثار صوامعهم. كما لاحظت عديدًا من الأبواب التي لم تكن مفتوحة، ولم يشرح لها أحدٌ ماهيتها، ثم وجدت نفسها في غرفة لعب البلياردو ثم غرفة الجنرال الخاصة على التوالي، من دون فهم الطريق الذي يوصل بينهما تحديدًا، ومن دون معرفة الطريق الصحيح الذي تسلكه بعد أن غادرتهما. ثم مرَّت أخيرًا عبر غرفة صغيرة مظلمة، عرفت مما أخبرها به هنري أنها مليئة بمجموعته من الكتب والبنادق والمعاطف الطويلة.

في غرفة الطعام التي شاهدتها بالفعل، وستشاهدها دومًا في تمام الساعة الخامسة، لم يستطع الجنرال التخلي عن متعة المشي بطول الغرفة، ليؤكد للآنسة مورلاند مساحتها، وهو الأمر الذي لم تكن تشك فيه ولا تكترث له. ثم توجَّهوا عبر ممرٍّ إلى المطبخ، الذي كان هو المطبخ العتيق الخاص بالدير، وجدرانه الضخمة يكسوها بكثافة دخان الزمن الماضي، بينما تنتشر به المواقد والخزانات الحديثة. لم يقصِّر الجنرال في تحديثاته هنا، إذ جلب كلَّ الاختراعات الحديثة لتسهيل عمل الطهاة في مكان عملهم الفسيح هذا. وفي حين فشلت محاولات الكثيرين من قبل، نجح هو ببراعته في إحداث التعديلات المطلوبة على أكمل وجه. كانت عطاياه لهذه البقعة وحدها كفيلة في أي وقتٍ من الأوقات بوضعِهِ في مرتبة عالية على قائمة المتبرعين للدير. ([20]) انتهى الجزء العتيق من الدير بنهاية جدران المطبخ، بعد أن أزال والد الجنرال الضلع الرابع من البناء المحيط بالساحة، نظرًا لحالته المتدهورة، وشيَّد بدلًا منه الجزء الموجود حاليًّا. انتهى هنا كلُّ ما هو مهيب، ولم يكن المبنى الجديد حديثًا فحسب، بل ظهر عليه ذلك جليًّا. كان هذا الجزء مخصصًا للخدم وللأعمال المنزلية المختلفة، وتحدُّه من الخلف ساحات الإسطبلات، فلم يكن هناك داعٍ لتوحيد الطراز المعماري. أحسَّت كاثرين بالغضب من اليد التي أطاحت بما كان يفوق الكل قيمة، من أجل الأعمال المنزلية فحسب. ولو كان الأمر بيدها، لتنازلت عن طيب خاطرٍ عن المرور بين مثل هذه المشاهد التي تلوَّثت ذكراها، لو أنَّ الجنرال سمح لها بذلك. لكن نقطة غروره كانت هي مدى تنظيم مقر الخدم، وكان مقتنعًا أنه بالنسبة إلى عقلٍ مثل عقل الآنسة مورلاند، فلا بُدَّ وأن تكون الترتيبات ووسائل الراحة التي تخفِّف مشاق عمل أولئك الذين يقلُّون عنها مكانة، مصدر سعادة على الدوام، وهو ليس بحاجة لعذرٍ لاصطحابها هناك. ألقوا نظرة سريعة على المكان بأكملِه، فأثار إعجاب كاثرين بدرجة فاقت توقعاتها، بسبب وفرة وملائمة كل شيء. في حين كانت بعض المخازن غير المنتظمة وحجرة ملحقة بالمطبخ لغسيل الأطباق في منزل آل ألين بفولرتون، تُعَد كافية للغرض الذي أُنشئت من أجله، فقد كانت تلك المهام تتم هنا في غرفٍ مريحة وواسعة، مقسَّمة على نحوٍ ملائم. كما أنَّ عدد الخدم الذين ظلُّوا يظهرون على نحوٍ مستمرٍ بدا لها كأنَّه لا يقل عن عدد تلك الغرف. أينَما ذهبوا، كانت الخادمات تتوقفن للانحناء لهم باحترام، وهن يرتدين قباقيب خشبية ترفع أحذيتهن عن الأرض لتبقى جافة، أو كان الخدم ممن لا يرتدونَ زيهم الرسمي يتسلَّلون مبتعدين. ومع ذلك، كان هذا ديرًا! كم بدت هذه الترتيبات المنزلية مختلفة عن تلك التي قرأت عنها في الأديرة والقلاع، التي على الرغم من كونها أكبر بالتأكيد من نورثانجر، إلَّا أنَّ كلَّ الأعمال المنزلية الشاقة كانت تقوم بها خادمتان فقط على أقصى تقدير. لطالما اندهشت السيدة ألين من كيفية تمكُّنهم من إنجاز ذلك كله، وعندما رأت كاثرين بنفسها كل المطلوب عمله هنا، بدأت تشعر بالدهشة هي الأخرى.

عادوا إلى الردهة ليتمكَّنوا من صعود الدرج الرئيس، وحتى يمكن الإشارة إلى جمال خشبه والزخارف الغنية المنحوتة به. بعد وصولهم للأعلى، انعطفوا في اتجاهٍ معاكسٍ من الرواق الذي كانت غرفتها تقع به، وسرعان ما وصلوا لرواقٍ آخر يشبهه، لكنه يفوقه طولًا واتساعًا. شاهدت هنا على التوالي ثلاث غرف نوم كبيرة، مع غرف تبديل الملابس الملحقة بهم، وجميعها مؤثَّثة على أتمِّ وأجمل وجه. نعمت هذه الغرف بكلِّ ما يمكن أن يضفيه عليها المال والذوق من راحة وأناقة، ونظرًا لأنها تم تأثيثها خلال السنوات الخمس الماضية، فقد بدت مثالية في كلِّ ما من شأنه أن يبعث على السرور بشكلٍ عامٍّ، إلَّا أنَّها كان ينقصها كل ما من شأنه أن يبعث السرور في نفس كاثرين. وبينما هم

يشاهدون الغرفة الأخيرة، ذكر الجنرال بعض أسماء الشخصيات المميزة الذين شرفوا باستضافتهم في بعض الأحيان، واستدار باسمًا نحو كاثرين، مبديًا أمله في أن يسكن الغرفة في أقرب وقت ممكن «أصدقاؤنا من فولرتون».

لمستها تلك المجاملة غير المتوقعة، وأحسَّت بأسى عميقٍ لأنها لا تستطيع أن تحسن التفكير في رجلٍ يعاملها بلطفٍ على هذا النحو، ويمتلئ كياسة حيال كل أسرتها.

انتهى الرواق بأبوابٍ قابلة للطي، تقدَّمت منها الآنسة تيلني وفتحتها، ثم مرَّت من خلالها، وبدت على وشك فتح أول باب جهة اليسار، في ممرٍّ طويلٍ آخر من الرواق، عندما تقدَّم الجنرال مناديًا إياها على عجلٍ، وتهيَّأ لكاثرين أنَّ صوته به نبرة غضبٍ، وسألها إلى أين هي ذاهبة، وما الذي تبقى لرؤيته؟ ألم ترَ الآنسة مورلاند بالفعل كل ما هو جدير بمشاهدتها؟ وألم تكن تعتقد أن صديقتها قد ترغب في بعض الراحة بعد كل هذا الجهد؟ تراجعت الآنسة تيلني على الفور، وأُغلقت الأبواب الثقيلة في وجه كاثرين التي أحسَّت بالحرج، بعد أن استرقت نظرة خاطفة وراء الأبواب، وشاهدت ممرًّا أضيق، وعديدًا من الفتحات، ودرجًا حلزونيًّا، واعتقدت أنها أخيرًا اقتربت من شيء ما قد يثير اهتمامها. شعرت وهي تخطو عائدة إلى الرواق رغمًا عنها، أنها تفضل أن يُسمَح لها باستكشاف ذلك الطرف من المنزل، بدلًا من رؤية كل أناقة بقية المنزل. كانت رغبة الجنرال الواضحة في منعِها من مثل هذا الاستكشاف حافزًا إضافيًّا. من المؤكد أنَّ هناك شيئًا ما يتم إخفاؤه. وعلى الرغم من أنَّ خيالها جنح بها مؤخرًا لمرة أو مرتين، إلَّا أنَّها لا يمكن أن تكون مضللة في هذا الشأن. وقد بدا أنَّ عبارة قصيرة من جانب الآنسة تيلني كشفت ماهية ذلك الشيء، بينما هما تتبعان الجنرال على مبعدة بعض الشيء خلال هبوطهما الدرج. كان كلُّ ما قالته هو:

- كنتُ سأصحبكِ إلى الغرفة التي كانت لوالدتي. الغرفة التي ماتت بها.

لكن على الرغم من قلة كلماتها تلك، فقد نقلت لكاثرين معلوماتٍ توازي صفحاتٍ بأكملِها. لا عجب في أنَّ الجنرال يضيق بمرأى الأشياء التي لا بُدَّ وأن تحويها الغرفة: غرفة لا شكَّ في أنَّه لم يدخلها منذ وقوع ذلك الحادث الفظيع، الذي تحرَّرت بعده زوجته المعذبة، وبقي هو يعاني لسعات الضمير.

في المرة التالية التي أصبحت فيها مع إليانور بمفردِها، حاولت التعبير عن رغبتها في السماح لها برؤيتها، إلى جانب ما تبقَّى من ذلك الطرف من المنزل، فوعدت إليانور باصطحابِها هناك حينما يسنح لهما الوقت المناسب. فهمت كاثرين مقصدها. لا بُدَّ أن يشاهدا الجنرال وهو يغادر المنزل أولًا، قبل أن يتمكَّنا من دخول تلك الغرفة. قالت بنبرة شفقة:

- إنَّها لا تزال على حالها، كما أعتقد؟

- نعم، تمامًا.

- ومنذ متى توفيت والدتكِ؟

- لقد ماتت منذ تسع سنوات.

كانت كاثرين تعلم أن تسع سنوات فترة ضئيلة، مقارنة بالوقت الذي يمرُّ عادة بعد وفاة زوجة مريضة، قبل أن يُعاد ترتيب غرفتها.

- أفترضُ أنكِ كنتِ بجانبها حتى النهاية؟

تنهدت الآنسة تيلني قائلة:

- لا، كنتُ بعيدة عن المنزل للأسف. كان مرضُها قصيرًا ومفاجئًا، وانتهى كلُّ شيء قبل عودتي.

تجمَّدت الدماء في عروق كاثرين من الأفكار الرهيبة التي تولَّدت بشكلٍ طبيعيٍّ من هذه الكلمات. هل هذا ممكن بالفعل؟ هل يمكن أن يكون والد هنري...؟ ومع ذلك، فما أكثر الأمثلة التي تبرر حتى أكثر الشكوك سوادًا! وعندما رأته ذلك المساء، في أثناء عملها مع صديقتها، وهو يذرع غرفة الاستقبال ببطءٍ، طوال ساعة بأكملِها، بينما هو مستغرقٌ في تفكيرٍ صامتٍ والحزن يغشى عينيه وقد تغضَّن جبينه، أحسَّت أنَّها لا يمكن أن تكون مخطئة في حكمِها عليه. كان ذلك هو سلوك وهيئة مونتوني! ([21]) وما الذي يوضح أكثر من ذلك الأفكار الكئيبة التي تعتمل في عقلٍ لم يفقد بعد كلَّ حسٍّ بالإنسانية، في مراجعته المخيفة لمشاهد ذنبه الماضية؟ يا له من رجلٍ تعسٍ! دفعها قلقُها لأن توجِّه عينيها نحوه بشكلٍ متكررٍ، حتى لفتت انتباه الآنسة تيلني، فهمست قائلة:

- كثيرًا ما يذرع والدي الغرفة بهذه الطريقة. لا شيء غريبٌ في ذلك.

فكرت كاثرين أن هذا أسوأ كثيرًا! كان ذلك التمرين في مثل هذا الوقت غير المناسب، متوافقًا مع غرابة مواعيد تريضه في الصباح، وكل ذلك لا ينبِّئ بالخير.

بعد أمسية بها قليلٌ من التنوع، وبدت طويلة بدرجة جعلتها تدرك بشكلٍ خاصٍّ أهمية وجود هنري بينهم، أحسَّت بسعادة غامرة للانصراف إلى غرفتِها، على الرغم من أنَّ نظرة من الجنرال لابنتِه لم يكن من المفترض أن تلحظها هي، كانت الدافع وراء قيامِها لتدق الجرس. لكن عند حضور كبير الخدم لإشعال شمعة سيده، منعه من ذلك، حيث لم يكن ذلك الأخير ينتوي الخلود للنوم. قال لكاثرين:

- لديَّ كثيرٌ من النشرات الإخبارية التي عليَّ الانتهاء من قراءتها، قبل أن أتمكَّن من إغماض عيناي. وربما أنكب على شؤون الأمة لساعاتٍ طويلة بعد أن تنامي أنتِ. هل يمكن لأيٍّ منَّا الانشغال بما هو ملائم له أكثر من ذلك؟ ستضعف عيني أنا لِمَا فيه صالح الآخرين، بينما ترتاح عيناكِ أنتِ استعدادًا للإقدام على المشاكسة.

لكن لا العمل المزعوم، ولا المجاملة الرائعة، منعت كاثرين من التفكير أنَّ شيئًا مختلفًا تمامًا لا بُدَّ وأن يكون السببَ وراء تأخير الخلود للراحة لهذا الحدِّ. كان من المستبعَد أن يبقى مستيقظًا لساعاتٍ طويلة بعد أن يأوي جميعُ أفراد الأسرة لفراشهم، بسبب نشراتٍ مثيرة للضجر. لا بُدَّ وأنَّ هناك سببًا أعمق. كان هناك شيءٌ ما يتعيَّن عليه القيام به، ولا يمكنه ذلك إلا بعد خلود جميع من بالمنزل إلى النوم. كان الاستنتاج الذي أعقب ذلك بالضرورة هو أنَّ السيدة تيلني لا تزال على قيد الحياة، حبيسة لأسبابٍ مجهولة، وتتلقَّى من يد زوجها القاسية حصة من طعام رديء كل ليلة. وبقدر ما بدت تلك الفكرة صادمة، إلا أنها كانت على الأقل أفضل من موتِها المبكِّر على نحوٍ ظالمٍ، إذ إنها لا بُدَّ وأن

تتحرَّر في النهاية بطبيعة الحال. مرضها المزعوم المفاجئ، وغياب ابنتها، وفي الغالب غياب أبنائها الآخرين أيضًا في ذلك الحين، كل ذلك كان يرجح فكرة حبسها، لكن بقي الكشف عن الدافع وراء ذلك، سواء كانت الغيرة ربما، أو القسوة الوحشية.

بينما هي منشغلة بتلك الأفكار وهي تبدل ملابسها، خطر لها فجأة أنها ربَّما مرَّت صباح ذلك اليوم بالبقعة التي كانت تلك السيدة التعيسة حبيسة بها، وربما كانت على بُعد خطواتٍ قليلة فحسب من الزنزانة التي قضت فيها أيامَها، فأي جزءٍ من الدير يمكن أن يكون أكثر ملائمة لهذا الغرض من ذلك الذي كان لا يزال يحمل آثار صوامع الرهبان؟ تذكرت جيدًا أنَّ هناك أبوابًا لم يشِر لها الجنرال على الإطلاق، في الممرِّ المرصوف بالأحجار ذي السقف المقنطر المرتفع، الذي عبرت منه بالفعل برهبة غريبة. ما الذي يمكن أن تقود إليه تلك الأبواب؟ ولدعم معقولية هذا التخمين، خطر لها أيضًا أن ذلك الرواق المحرم الذي تقع به غرفة السيدة تيلني التعيسة لا بُدَّ وأن يكون، بقدر ما تسعفها الذاكرة، بالضبط فوق هذا الصف من صوامع الرهبان مثار الريبة، وأنَّ الدرج الموجود بجوار هذه الغرفة، الذي لمحت منه نظرة خاطفة، لا بُدَّ وأن يؤدي لتلك الصوامع بطريقة سرية ما، مما سهَّل من تصرفات زوجها الوحشية. ربما نقلها أسفل ذلك الدرج وهي في حالة من فقدان الوعي تم التخطيط لها عمدًا!

كانت كاثرين تشعر بالدهشة أحيانًا لجرأة تخميناتها تلك، كما كانت تأمل أو تخشى أن تكون قد تمادت في أحيانٍ أخرى، لكن في وجود ما يدعمها، كان من المستحيل تجاهلها.

كان جانب الساحة الذي افترضت أنه موقع حدوث الجرم، يقع في مواجهة جانب غرفتها هي، تبعًا لاعتقادِها. فطرأ لها أنَّها لو راقبت بعناية، فقد ترى بعض الأشعة من ضوء مصباح الجنرال وهي تلتمع عبر النوافذ السفلية، بينما هو يمرُّ في طريقِه إلى محبس زوجته. تسلَّلت بخفَّة من غرفتِها إلى النافذة المقابلة عبر الرواق، مرتين قبل أن تأوي للفراش كي ترى لو ظهر، إلَّا أنَّ كلَّ شيء كان مظلمًا في الخارج، فلا بُدَّ وأن الوقت كان لا يزال مبكرًا. أدركت من الأصوات المختلفة المتعالية أنَّ الخدم لا يزالون مستيقظين. ظنَّت أنَّه سيكون من العبث مراقبة أي شيء قبل منتصف الليل، لكن بعد أن تدق الساعة الثانية عشرة، ويعم الهدوء، ستتسلل خارجة لإلقاء نظرة مرة أخرى، إن لم يخفها الظلام. وعندما دقت الساعة معلنة الثانية عشرة، كانت كاثرين قد استغرقت في النوم منذ نصف ساعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 9 -

لم تسنح الفرصة في اليوم التالي لاستكشاف تلك الغرف الغامضة. كان اليوم هو الأحد، وقضى الجنرال الوقت بأكملِه ما بين فترة الصباح حتى قداس ما بعد الظهيرة وهو يتريض في الخارج، أو يتناول اللحوم الباردة في المنزل. وعلى الرغم من تعاظم فضول كاثرين، إلَّا أنَّ شجاعتها لم تبلغ درجة تدفعها للاستكشاف بعد العشاء، إما على ضوء الشمس الغاربة ما بين الساعة السادسة والسابعة، أو على ضوء المصباح الذي لا يمكن الوثوق فيه، إذ كانت إضاءته جزئية فحسب، رغم كونه أقوى. لذا لم يكن هناك أيُّ شيء مميز في اليوم ليثير خيالها، عدا نصب أنيق للغاية لتخليد ذكرى السيدة تيلني، كان يقع مباشرة أمام مقصورة الأسرة بالكنيسة. لفت ذلك انتباهها على الفور، وظلَّ نظرُها مثبتًا عليه لفترة طويلة. تأثَّرت حدَّ الدموع، عندما قرأت المرثية المتكلفة للغاية، والتي نسب إليها فيها الزوج المكلوم كلَّ الفضائل، على الرغم من أنَّه لا بُدَّ وأن كانت له يدٌ بطريقة أو بأخرى في القضاء عليها.

ربما لم يكن من الغريب أنَّ الجنرال تمكَّن من مواجهة مثل هذا النصب التذكاري بعد أن أقامه، لكن كونه استطاع الجلوس أمامه متمالكًا نفسه بجرأة شديدة، محيطًا نفسه بجوٍّ من الرصانة، متلفتًا حوله من دون خوفٍ، لا، بل كونه دخل الكنيسة من الأساس هو ما بدا مدهشًا لكاثرين. مع ذلك، كانت هناك عديدٌ من الأمثلة التي يمكن ذكرها لآخرين مثله أمات الذنب شعورَهم. كان بوسعها تذكُّر العشرات ممن دأبوا على ارتكاب كل رذيلة ممكنة، متنقلين من جريمة لأخرى، مرتكبين جرائم القتل ضد من يشاؤون، من دون أي شعورٍ بالإنسانية أو بالندم، حتى يصل تاريخهم الأسود لنهايته إما بميتة عنيفة أو بتقاعدٍ له صبغة دينية. لم يكن من الممكن أن تؤثر إقامة النصب في حدِّ ذاته ولو بأدنى درجة في شكوكها بشأن الظروف الفعلية لموت السيدة تيلني. حتى لو تمكَّنت من النزول إلى مدفن الأسرة، حيث كان من المفترض أن رفاتها ترقد، ولو شاهدت التابوت الذي كان من المفترض أنه يضمها، فما جدوى ذلك؟ كانت كاثرين قد قرأت كثيرًا بما فيه الكفاية، حتى تدرك مدى سهولة صنع تمثال من الشمع، وإقامة جنازة مزيفة.

وعدها صباح اليوم التالي بشيء أفضل. كان خروج الجنرال مبكرًا للتريض يعد سيئ التوقيت من جميع الجوانب، إلَّا أنَّه كان ملائمًا هنا. عندما تأكدت من خروجه من المنزل، اقترحت مباشرةً على الآنسة تيلني الوفاء بوعدِها. كانت إليانور على استعدادٍ لإرضائها، وبينما هما في طريقهما، ذكَّرتها كاثرين بوعدٍ آخر قطعته، فكانت زيارتهما الأولى نتيجة لذلك إلى غرفة نومها لرؤية اللوحة المعلقة هناك. صوَّرت اللوحة امرأة فائقة الجمال، لها ملامح لطيفة متأملة، مما توافق مع توقعات تلك التي تراها لأول مرة الآن، لكنها لم تطابق تلك التوقعات تمامًا، إذ توقَّعت كاثرين أن تجد ملامح ومظهر وبشرة تماثل تمامًا صورة هنري أو إليانور، حيث إن اللوحات الوحيدة التي تصور أشخاصًا التي اعتادت التفكير فيها كانت دومًا ما تصور شبهًا متساويًا بين الأم وأبنائها. كان الوجه الذي يتم تصويره، يستمر لأجيالٍ طويلة. لكنها هنا اضطرت إلى التأمُّل والتدقيق والبحث كي ترى تشابُهًا. مع ذلك، على الرغم من هذا النقص، تأمَّلت اللوحة بكثيرٍ من العاطفة، ولولا أنه كان هناك ما يثير اهتمامها بدرجة أكبر، لما غادرتها طواعية.

كان اضطرابُها عند دخولهما الرواق الكبير، أكثر من أن يسمح بأي محاولة لتبادل الحديث. لم تستطع سوى تأمُّل رفيقتها فحسب. بدت ملامح إليانور حزينة، إلَّا أنَّها كانت هادئة أيضًا، ودلَّت رباطة جأشِها على اعتيادها كل الأشياء الكئيبة التي كانتا تتقدمان نحوها. مرَّت ثانية عبر الأبواب القابلة للطي، ومرة أخرى، صارت يدها على ذلك القفل المهم. استدارت كاثرين لتغلق تلك الأبواب بحذرٍ وتخوفٍ، وهي تلتقط أنفاسها بالكاد، عندما شاهدت الهيئة المخيفة للجنرال نفسه واقفًا أمامها عندَ الطرف البعيد للرواق! في نفس اللحظة، تردَّد في المبنى بأكملِه بأعلى صوتٍ له اسم إليانور مما أعطى ابنته أول إنذارٍ بوجوده، وزاد كاثرين رعبًا فوق رعبِها. كانت محاولة الاختباء هي أول رد فعلٍ غريزي لها عندما شاهدته، لكن لم يكن بوسعها أن تأمل ألَّا يكون قد رآها. وبعد أن مرَّت صديقتها بجوارها مسرعة، مرسلة لها نظرة اعتذار، قبل أن تنضم إليه وتختفي معه، هرعت هي للاختباء في غرفتِها في أمانٍ، وأغلقت البابَ على نفسِها معتقدة أنها لن تمتلك الشجاعة الكافية للنزول مرة أخرى على الإطلاق. بقيت هناك لمدة ساعة على الأقل، وهي تعاني الاضطراب لأقصى حدٍّ، وترثي بشدة لحال صديقتها المسكينة. توقعت أن يستدعيها الجنرال الغاضب إلى غرفته هي الأخرى، لكن لم يصلها أي استدعاءٍ. أخيرًا، بعد أن رأت عربة تقترب من الدير، تجرَّأت على النزول ومقابلته في ظلِّ حماية الزوار. امتلأت غرفة الإفطار بهجة في صحبة الضيوف، وقدَّمها الجنرال إليهم بوصفها صديقة ابنته، بأسلوبٍ مجاملٍ أخفى حنقه المقيت على نحوٍ جيدٍ، مما جعلها تأمن على حياتِها على الأقل في الوقت الحاضر. وعندما حافظت إليانور على ثبات تعبيرات ملامحها، حرصًا منها على الحفاظ على سمعته، واستغلت أقرب فرصة لتقول لها:«كان والدي يريدني كي أجيب رسالة فحسب»، بدأت كاثرين تأمل إما أنَّ الجنرال لم يرها، أو أنَّه سمح لها أن تعتقد ذلك بدافعٍ من الدهاء. بناء على ثقتها بهذا، واتتها الجرأة للبقاء في حضرته بعد انصراف الزوار، ولم يحدث ما يعكر الصفو.

خلال تأملاتها ذلك الصباح، توصَّلت لقرارٍ بأن تحاول فتح الباب المحرم بمفردها المرة القادمة. سيكون من الأفضل كثيرًا من كل الجوانب ألَّا تعلم إليانور شيئًا عن الأمر. لا يمكن أن يكون من واجباتها كصديقة تعريضها لخطر كشف أمرها للمرة الثانية، وجلبها لغرفة لا بُدَّ وأنَّها تجعل قلبها يعتصر ألمًا. ولا يمكن أن يكون غضب الجنرال نحوها هي، مثلما هو حيال ابنته. علاوة على ذلك، فقد ظنَّت أن الاستكشاف نفسه سيكون مُرضيًا أكثر، من دون صحبة أي رفيقٍ. سيكون من المستحيل أن تشرح لإليانور تلك الشكوك التي غالبًا ما لم تراود تلك الأخيرة حتى الآن. لذا لن تستطيع في وجودِها البحث عن تلك البراهين على قسوة الجنرال، والتي رغم كونها أفلتت الاكتشاف في السابق، إلَّا أنَّها أحسَّت بالثقة في العثور عليها في مكانٍ ما، في شكل دفتر يومياتٍ ممزقٍ، كُتب حتى النفس الأخير. صارت تعرف الطريق إلى الغرفة جيدًا الآن، وحيث إنها كانت تريد الانتهاء من الأمر قبل عودة هنري، الذي كان من المتوقع رجوعه في الغد، لم يكن أمامها أيُّ وقتٍ لتضيعه. كان النهار مشرقًا، بينما تشعر هي بشجاعة عالية. كانت الساعة الرابعة، ولا تزال هناك ساعتان قبل غروب الشمس في الأفق، وستصير بمفردها لو أنها ذهبت لغرفتها نصف ساعة قبل الموعد المعتاد لتبديل ملابسها.

تمَّ الأمرُ، ووجدت كاثرين نفسَها بمفردِها في الرواق قبل أن تتوقف الساعة عن دقاتها. لم يكن هناك وقتٌ للتفكير. أسرعت في المضي قدمًا، وفتحت الأبواب القابلة للطي بأقل قدرٍ ممكنٍ من الضجيج،

ومن دون أن تتوقف لتنظر حولها أو تلتقط أنفاسَها، أسرعت مندفعة نحو الباب المطلوب. استسلم القفل تحت يدها لحسن الحظ، من دون أي صوتٍ قد ينبِّه إنسانًا آخر. دخلت متسللة على أطراف أصابعها، وامتدت الغرفة أمامها، إلا أنَّ بضع دقائق انقضت قبل أن تتمكَّن من التقدم لخطوة أخرى. رأت ما جعلها تثبت في مكانها، وجعل الارتباك يرتسم على كل ملامحها. شاهدت غرفة واسعة متناسقة، بها فراشٌ ضخمٌ عليه غطاءٌ قطني فرشته خادمة، ومِدفأة لامعة، وخزانات ملابس من خشب الماهوجني، وكراسٍ مطلية بعناية التمعت فوقها أشعة الشمس الغربية الدافئة المتدفقة من خلال نافذتين تنفتحان للأعلى. توقَّعت كاثرين أن تختلج مشاعرها، وهو ما حدث بالفعل. تملَّكتها الدهشة والشك في بادئ الأمر، وبعدها بفترة وجيزة أشرق شعاعٌ من المنطق السليم، أضاف لها بعضًا من مشاعر الخزي المرير. لا يمكن أن تكون قد أخطأت الغرفة، لكن كم كانت مخطئة بشأن كل شيء آخر! فيما قصدته الآنسة تيلني، وفي حساباتها هي! اتضح أنَّ هذه الغرفة التي منحتها هي تاريخًا عتيقًا للغاية، وموقعًا فظيعًا جدًّا، ما هي إلا طرف من الجزء الذي بناه والد الجنرال. كان هناك بابان آخران في الغرفة، يؤديان في الغالب إلى غرفٍ لتبديل الملابس، لكنها لم تشعر بأي ميلٍ نحو فتح أيٍّ منهما. ترى هل تبقى الوشاح الذي ارتدته السيدة تيلني آخر مرة سارت فيها، أو المجلد الذي قرأت فيه آخر مرة، ليفصحا عما لم يُسمح لشيء آخر الهمس به؟ لا، مهما كانت جرائم الجنرال، فمن المؤكد أنَّه كان يتمتع بالذكاء أكثر من أن يدعها تنكشف. سئمت الاستكشاف، وأرادت أن تكون في أمانٍ بغرفتها، دون أن يطلع أحدٌ سوى قلبها على حماقته تلك. كانت على وشك الانسحاب بهدوءٍ كما دخلت، عندما جعلها وقع أقدام لا تعلم مصدرها تقف مرتعدة. سيكون من المزعج أن يجدها أحدهم هنا، حتى لو كان مجرد خادمٍ، أما لو كان الجنرال (وقد بدا دومًا متوجدًا في الجوار، خاصة عندما يكون غير مرغوب فيه)، فسيكون ذلك أسوأ كثيرًا! أصاخت السمع، وبدا أنَّ الصوت توقف. عقدت العزم على ألا تضيع لحظة، فمرَّت عبر الباب وأغلقته. في تلك اللحظة، فُتِح بابٌ بالأسفل على عجلٍ، وبدا أنَّ أحدَهم يصعد بخطى سريعة ذلك الدرج الذي كان عليها المرور بقمتِه قبل أن تتمكَّن من الوصول إلى الرواق. لم تستطع الحركة. ثبَّتت عينيها على الدرج وهي تشعر برعبٍ غامضٍ، وفي غضون لحظاتٍ ظهر هنري أمامها. قالت بنبرة غلبت عليها الدهشة الشديدة:

- سيد تيلني!

بدتْ عليه الدهشة هو الآخر. واصلت قائلة من دون أن تعني بالطريقة التي تخاطبه بها:

- يا إلهي! كيف أتيتَ إلى هنا؟ وكيف صعدتَ ذلك الدرج؟

أجاب بدهشة بالغة:

- كيف صعدتُ ذلك الدرج! لأنَّه أقرب طريقٍ من ساحة الإسطبل إلى غرفتي الخاصة. ولمَ لا يجب أن أصعده؟

تمالكتْ كاثرين نفسَها وتضرَّج وجهُها بشدة، ولم تستطع قول المزيد. بدا كأنَّه يبحث في وجهِها عن ذلك التفسير الذي لم تقدِّمه شفتاها. تقدَّمتْ نحو الرواق. قال وهو يدفع الأبواب القابلة للطي:

- وهل يمكن أن أسألكِ بدوري، كيف أتيتِ هنا؟ إنّ عبوركِ من هذا الممر في طريقكِ من غرفة الإفطار لحجرتكِ يضاهي غرابة صعودي من ذلك الدرج للتوجُّه نحو غرفتي أنا.

أجابته كاثرين وهي تخفض نظرها للأسفل:

- لقد ذهبتُ لأرى غرفة والدتكَ.

- غرفة والدتي! وهل هناك أي شيء استثنائي كي تريه؟

- لا، لا شيء على الإطلاق. ظننتُ أنكَ لن تعود حتى يوم غدٍ.

- لم أتوقَّع أن أكون قادرًا على العودة قبل ذلك عندما رحلتُ، لكن منذ ثلاث ساعات، سررتُ عندما وجدتُ أنه لا يوجد ما يعيقني عن العودة. تبدين شاحبة. أخشى أنني أثرتُ قلقكِ بركضي سريعًا بتلك الطريقة على الدرج. ربما لم تكوني تعرفين ذلك. ألم تكوني على دراية بأنه يؤدي إلى مقر الخدم والإسطبلات؟

- لا، لم أكن أعرف ذلك. لقد حظيتَ بيومٍ صحوٍ للغاية لرحلتكَ.

- جدًّا. وهل تتركك إليانور لتتجولي داخل جميع غرف المنزل بمفردكِ؟

- أوه! لا، لقد صحبتني لمشاهدة الجزء الأكبر في يوم السبت. وكنَّا سنأتي لهذه الغرف. لكن...

خفضتْ صوتها، وواصلت قائلة:

- كان والدكَ معنا.

قال هنري وهو يتأمَّلها بجدية:

- وقد منعكِ ذلك. هل شاهدتِ جميع الغرف الواقعة في ذلك الممر؟

- لا. كنتُ فقط أريد رؤية... ألم يتأخر الوقت كثيرًا؟ يجب أن أذهب لتبديل ملابسي.

قال وهو يريها ساعته:

- إنَّها الرابعة والربع فحسب. وأنتِ لستِ في باث الآن. لا يوجد أي مسرحٍ أو قاعة حفلاتٍ كي تستعدي لها. لا بُدَّ وأن تكون نصف ساعة كافية في نورثانجر.

لم تستطع أن تناقضه في ذلك، وبالتالي اضطرت إلى أن تسمح له باستبقائها، على الرغم من أنَّ خوفها من التعرُّض لمزيدٍ من الأسئلة جعلها ترغب في مغادرته، لأول مرة منذ أن تعارفا. سارا ببطءٍ عبر الرواق.

- هل تلقيتِ أي رسائل من باث منذ أن قابلتكِ آخر مرة؟

- لا. وأنا مندهشة للغاية بسبب ذلك. لقد وعدتْ إيزابيلا بإخلاصٍ شديدٍ أن تكتب لي على الفور.

- وعدتْ بإخلاصٍ شديدٍ! وعد مخلص! هذا يثير حيرتي. لقد سمعتَ عن الأداء التمثيلي المخلص، لكن الوعد المخلص... إخلاص الوعد! تلك القدرة غير جديرة بالمعرفة على أي حالٍ، إذ إن بوسعِها أن تخدعكِ وتؤلمكِ. إن غرفة والدتي واسعة للغاية، أليس كذلك؟ إنها فسيحة ومبهجة، وخزانات الملابس منظمة للغاية! تبدو لي دومًا كأنَّها أكثر غرفة مريحة في المنزل، وأتساءل لمَ لا تتخذها إليانور كغرفة لها. لقد أرسلتكِ هي لمشاهدتها، على ما أعتقد؟

- لا.

- لقد قمتِ بكل هذا بمفردكِ؟

لم تحر كاثرين جوابًا. بعد فترة قصيرة من الصمت، راقبها خلالها من كثبٍ، واصل قائلًا:

- بما أنَّه لا يوجد شيءٌ في الغرفة ذاتِها يثير الفضول، فلا بُدَّ وأن يكون هذا نابعًا من الشعور بالاحترام لشخصية والدتي، كما وصفتها إليانور، وفي هذا تكريمٌ لذكراها. أعتقد أنَّ العالم لم يرَ امرأة أفضل منها، لكن الفضيلة لا تثير مثل هذا الاهتمام كثيرًا. إنَّ المزايا البسيطة المتواضعة لشخصٍ لم يعرفه المرء من قبل، لا تثير عادة مثل هذا النوع من التبجيل والرقة الشديدة، التي قد تدفع للقيام بزيارة مثلما فعلتِ أنتِ. لقد استفاضت إليانور في الحديث عنها، على ما أعتقد؟

- أجل، بدرجة كبيرة. أعني، لم تتحدث عنها بدرجة زائدة عن الحدِّ، إلَّا أنَّ ما قالته كان مثيرًا للاهتمام بدرجة كبيرة. موتها بذلك الشكل المفاجئ...

تحدثتْ ببطءٍ وبترددٍ، وواصلتْ قائلة:

- وأنكم... أنَّه لم يكن هناك أحدٌ منكم في المنزل. ووالدك... اعتقدتُ أنه ربما لم يكن يحبها كثيرًا.

أجابها وعينه مثبتة على عينيها:

- ومن هذه الظروف استنتجتِ أنه ربما يكون قد وقع بعض الإهمال. بعض...

هزَّت رأسَها لا إراديًّا. واصل هو قائلًا:

- أو ربما حتى يكون شيئًا لا يمكن التسامُح فيه بدرجة أكبر من ذلك.

رفعت عينيها لتنظر إليه مباشرة أكثر مما فعلتْ في أي وقتٍ مضى. واصل هو الحديث:

- كان مرض والدتي، أي النوبة التي أودت بحياتها، أمرًا مفاجئًا. أما المرض نفسه، الذي عانت من أعراضِه كثيرًا من قبل، فقد كان حمى صفراوية، أي أنَّ السبب وراءه كان عضويًّا. في اليوم الثالث، ما أن تمكنَّا من إقناعها، حتى حضر الطبيب لفحصِها. كان رجلًا محترمًا للغاية، لطالما وثقت هي به بدرجة كبيرة. بناء على رأيه في خطورة حالتها، تم استدعاء طبيبين آخرين في اليوم التالي، وظلُّوا حاضرين طوال الوقت تقريبًا، لأربع وعشرين ساعة. وفي اليوم الخامس، ماتت. خلال تطور مرضها، شاهدتها أنا وفريدريك مِرارًا وتكرارًا (كان كلانا موجودين بالمنزل)، ومما رأيناه بأنفسِنا بوسعنا أن نشهد أنها تلقَّت كلَّ الرعاية ممكنة، النابعة من اهتمام المحيطين بها، والتي تسمح لها بها

ظروفها ومكانتها. كانت إليانور المسكينة غائبة، وعلى مبعدة لم تسمح لها بالحضور إلا لرؤية والدتها وهي في نعشِها.

قالت كاثرين:

- لكن ماذا عن والدكَ، هل بدا عليه التأثُّر؟

- ظلَّ متأثِّرًا للغاية لفترة من الوقت. لقد أخطأتِ في افتراضكِ أنَّه لم يكن متعلقًا بها. أنا على يقينٍ من أنَّه أحبَّها، بقدر استطاعته. لا يتمتع الجميع بنفس القدر من رقة الطباع، كما تعرفين، ولن أدَّعي القول بأنها لم تعانِ الكثيرَ خلال حياتِها، لكن على الرغم من أنَّه قد يكون ظلمها بطباعِه، إلَّا أنَّه لم يسيء تقديرها قطٌّ. كان تقديره لها صادقًا، وقد تأثَّر حقًّا بموتِها، وإن لم يدم ذلك.

قالت كاثرين:

- أنا سعيدة جدًّا لذلك. كان الأمر سيبدو صادمًا!

- إذا كنتُ أفهمكِ بشكلٍ صحيحٍ، فقد فكرتِ في افتراضٍ مرعبٍ، لدرجة أنني لا أمتلك الكلمات التي... يا عزيزتي الآنسة مورلاند، فكري في الطبيعة المروعة للشكوك التي ساورتكِ. من أين استقيتِ حكمكِ هذا؟ فلتتذكري البلد والعصر الذي نعيش فيه، وتذكري أننا إنجليز، وأننا مسيحيون. ولترجعي لإدراككِ الشخصي، وحسكِ بما هو ممكن، وملاحظاتكِ الخاصة بما يدور حولكِ. هل يؤهلنا تعليمنا لارتكاب مثل هذه الفظائع؟ هل تتواطأ قوانيننا مع ذلك؟ هل يمكن ارتكاب كل ذلك، من دون أن يعرف أحدٌ، في بلدٍ مثل هذه، حيث التواصل الاجتماعي والتواصل من خلال الرسائل بلغا درجة صار معها المرء محاطًا بحي من الجواسيس المتطوعين، وحيث كلُّ شيء مُعلَنٌ في الطرقات وصفحات الصحف؟ يا عزيزتي الآنسة مورلاند، ما هذه الأفكار التي تركتِ نفسكِ تنشغلين بها؟

كانا قد وصلا لنهاية الرواق، فهرعت إلى غرفتِها وهي تذرف دموع الخزي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 10 -

انتهت الخيالات الرومانسية، واستفاقت كاثرين تمامًا. كان خطاب هنري، على قصره، قد فتح عينيها عن آخرهما لترى تطرُّف خيالاتها مؤخرًا، أكثر مما فعلته جميع خيبات أملها. أحسَّت بالإهانة الشديدة، وبكت بكاءً مريرًا. لم تسقط في نظر نفسِها فحسب، بل في نظر هنري أيضًا. انكشفتْ له جميعُ حماقاتِها، التي بدت إجرامية أيضًا الآن، ولا بُدَّ وأنَّه سوف يحتقرها إلى الأبد. هل سيكون بوسعه أن يسامحها أبدًا لِمَا تجرَّأ خيالُها على تصويره لها بخصوص شخصية والده؟ وهل يمكن نسيان سخافة فضولها ومخاوفها على الإطلاق؟ كرهت نفسَها بدرجة أكبر مما تستطيع التعبير عنها. قبل صباحِ هذا اليوم المصيري، كان قد أظهر في مرة أو مرتين، أو هكذا ظنَّت، ما يشبه العاطفة حيالها، لكنَّها باختصارٍ جعلت نفسَها تشعر بالتعاسة الآن بقدر الإمكانِ لنصف ساعة تقريبًا، ثم هبطت للطابق السفلي بقلبٍ كَسيرٍ عندما دقَّت الساعة الخامسة، وبالكاد تمكَّنت من الإجابة بوضوحٍ عندما سألتها إليانور ما إذا كانتْ بخير. سرعان ما تبِعها هنري المخيف إلى الغرفة، وبدا الاختلافُ الوحيد في سلوكِه معها هو أنَّه أولاها اهتمامًا أكثر من المعتاد. لم تكن كاثرين بحاجة إلى الشعور بالراحة في أي وقتٍ مضى أكثر منها الآن، وبدا هو كأنَّه يدري ذلك.

انقضى المساء من دون أن يتناقص سلوكه اللطيف الباعث على الارتياح، وارتفعت معنوياتها تدريجيًّا لتتنعم بهدوءٍ معتدلٍ نسبيًّا. لم تنسَ الماضي أو تدافع عنه، بل تمنَّت ألَّا ينكشف أكثر من هذا أبدًا، وألَّا يكلِّفها ذلك خسارة احترام هنري بالكامل. كانت أفكارُها لا تزال مركَّزة بشكلٍ أساسيٍّ على ما أحسَّت به واقترفته بدافعٍ من الرعب غير المبرَّر، فلم يكن هناك ما هو أوضح من أنَّ كلَّ ذلك كان وهمًا خلقته هي ذاتيًّا طواعيةً، بحيث أضفت على كلِّ ظرفٍ تافهٍ أهميةً بدافعٍ من الخيال العازم على الشعور بالذعر، وأجبرت كلَّ شيء على أن يخضع لغرضٍ واحدٍ بوازعٍ من عقلها الذي كان يتوق للشعور بالخوف من قبل أن تطأ الدير. تذكَّرت المشاعر التي استعدَّت بها لاستقبال المعلومات بخصوص نورثانجر، ورأت كيف أنَّ افتتانها ذاك قد حدث، إضافة إلى كلِّ الضرر أيضًا، قبل رحيلِها عن باث بفترة طويلة. بدا أنَّه من الممكن إرجاع كل ذلك إلى تأثير نوعية القراءة التي انغمست فيها.

على الرغم من كون جميع أعمال السيدة رادكليف ساحرة للغاية، كما كانت أعمال كلِّ من يقلِّدون كتابتها، إلَّا أنَّه ربما لم يكن على المرء، أو على الأقل في مقاطعات وسط إنجلترا، البحث عن الطبيعة البشرية في هذه الأعمال. قد تقدِّم تلك الكتابات صورة أمينة لجبال الألب والبرانس، بغابات الصنوبر التي تغطيها والجرائم التي تُقترف بها، وربما تكون إيطاليا وسويسرا وجنوب فرنسا مليئةً بالرعب كما يتم تصويرها، إذ لم تجرؤ كاثرين على الشك فيما يتجاوز حدودَ بلادها، وحتى فيما يتعلَّق بذلك، كانت ستسلم وتقبل بأمر أقصى الحدود الشمالية والجنوبية لو أنها تعرضت للضغط بعض الشيء. أما في الجزء الأوسط من إنجلترا على الأقل، كان هناك بالتأكيد بعضُ الأمان في قوانين البلاد وأخلاقيات العصر، حتى بالنسبة إلى زوجة غير محبوبة. لم يكن القتل مسموحًا به، ولم يكن الخدم عبيدًا، كما لم يكن من الممكن الحصولُ على السموم والأدوية المخدرة من كل صيدليٍّ كأنَّها راوند. ربما لا تكون هناك أيُّ شخصيات مركَّبة في جبال الألب والبرانس. وربما يكون من لا يتمتع هناك بنقاء الملائكة، له تصرفات الشياطين. إلَّا أنَّ الأمرَ لم يكن كذلك في إنجلترا. كانت تعتقد أنَّه يوجد في

قلوب وعادات الإنجليز مزيجٌ عام، وإن لم يكن متكافئًا، بين الخير والشر. بناء على قناعتها هذه، لم تكن لتفاجأ حتى لو أظهر هنري أو إليانور تيلني نقصًا طفيفًا فيما بعد. وبناء على هذه القناعة أيضًا، فلا داعي لأن تخشى الاعتراف ببعض العيوب الفعلية في شخصية والدِهما، الذي على الرغم من تبرئته من الشكوك الجسيمة المؤذية التي عليها الخجل من كونها فكرت فيها على الإطلاق، إلَّا أنَّها باتت مقتنعة بعد تفكيرٍ متأنٍ أنَّه ليس لطيفًا تمامًا.

بعد أن اتَّخذت قرارَها فيما يتعلَّق بهذه النقاط، وعقدتْ العزمَ على الحكم على الأمور والتصرُّف في المستقبل بأكبر قدر من حُسن التقدير دومًا، لم يعد أمامها ما تفعله سوى أن تسامح نفسَها، وتنعم بالسعادة أكثر من أي وقتٍ مضى. وقد ساعدتها على ذلك يدُ الزمن المتسامحة، تدريجيًّا على نحوٍ غير ملموسٍ، بمرور يوم آخر. كان أكبر عونٍ لها هو كرم هنري المدهش وسلوكه النبيل، إذ لم يلمِّح لِمَا حدث بأي شكلٍ من الأشكال على الإطلاق. ما لبثْتْ أن أحسَّت روحُها بالارتياح التام، وباتت قادرة كما كانت من قبل على الاستفادة باستمرارٍ من أي شيءٍ يقوله، بأسرع مما كانت تتخيَّل ذلك ممكنًا في بداية محنتِها. في الواقع، كانت هناك بعضُ الموضوعات التي ظنَّت أنَّها ستظل ترتعد بسببها على الدوام، مثل ذكر الصندوق أو الخزانة على سبيل المثال، كما لم تكن تحب منظر الورنيش بأي شكلٍ من الأشكال، لكن كان عليها الاعتراف بأنَّ الذكرى العارضة لحماقات الماضي، مهما كانت مؤلمة، قد تكون مفيدة.

سرعان ما أخذ القلق بشأن أمور الحياة العادية يحلُّ محلَّ المخاوف الرومانسية. مع كل يوم، تزايدت رغبتُها أكثر وأكثر في أن تصلها رسالة من إيزابيلا، باتت نافدة الصبر لمعرفة أخبار ما يَحدث في باث، وأخبار الحضور في قاعات الحفلات، كما كانت حريصة على وجه الخصوص أن تعرف ما إذا كانت إيزابيلا قد تمكَّنت من العثور على خيطٍ قطنيٍّ رفيعٍ للغزل، كانت ترغب فيه عندما افترقت عنها، إلى جانب استمرار علاقتها مع جيمز على أكمل وجه. كان مصدر المعلومات الوحيد الذي تعتمد عليه هو إيزابيلا، إذ اعترض جيمز على الكتابة لها، حتى عودته إلى أوكسفورد. كما لم تمنحها السيدة ألين أيَّ أملٍ في كتابة رسالة لها، حتى عودتها إلى فولرتون. إلَّا أنَّ إيزابيلا وعدتها مِرارًا وتكرارًا، وعندما كانت تعِد بشيء، كانت تحرص بشدة على تنفيذ ما وعدت به. وهذا هو ما جعل الأمر فائق الغرابة!

لتسعة أيام متتالية، تعجَّبت كاثرين من تكرار خيبة أملها، التي أخذت تزداد حدة مع صباح كلِّ يوم. لكن عندمًا دخلت غرفة الإفطار في اليوم العاشر، كان أول ما شاهدته هي رسالة، أمسك بها هنريٌ بيدٍ ممدودة. شكرته بحرارة، كما لو أنَّه كتبها بنفسِه. نظرت إلى العنوان، وقالت:

- لكنها من جيمز فحسب.

فتحت الرسالة. كانت من أوكسفورد، وكان هذا فحواها:

عزيزتي كاثرين،

يعلم الرب أنَّني ليست لديَّ أدنى رغبة في الكتابة، إلَّا أنَّني أعتقد أنَّه من واجبي إخباركِ أنَّ كلَّ شيء انتهى بيني وبين الآنسة ثورب. تركتها ورحلتُ عن باث بالأمس، ولا أرغب في رؤية أيٍّ منهما

ثانية. لن أخوض في التفاصيل، فلن يسبِّب لكِ ذلك سوى مزيدٍ من الألم فحسب. ستسمعين قريبًا من طرفٍ آخر، وستعرفين على من يقع اللوم. وآمل أن تبرِّئي أخاكِ من كلِّ شيء، سوى حماقته في الاعتقاد ببساطة أنَّ العواطف التي أحسَّ بها متبادلة. حمدًا للرب! لقد استفقتُ في الوقت المناسب! لكنَّها ضربة قاسية! بعد أن تكرَّم والدي بمنح موافقته... لكن يكفي هذا القدر. لقد أصابتني بالتعاسة إلى الأبد! أتمنَّى أن تصلني منكِ رسالة قريبًا، يا عزيزتي كاثرين. أنتِ صديقتي الوحيدة، وأعتمدُ على محبتكِ. أتمنى أن تنتهي زيارتكِ لنورثانجر، قبل إعلان الكابتن تيلني أمر خِطبته، وإلا ستكونين في وضعٍ غير مريح. إن ثورب المسكين في لندن، وأخشى رؤيته. سيتألَّم قلبُه الصادق كثيرًا. لقد كتبتُ له، ولوالدي. إنَّ خداعها هو ما يؤلمني، أكثر من أي شيء آخر. عند مناقشتها في الأمر، ظلَّت حتى آخر لحظة تقول إنها لا تزال متعلقة بي أكثر من أي وقتٍ مضى، وتضحك من مخاوفي. يخجلني التفكير في طول المدة التي تحمَّلتُ فيها كلَّ ذلك. لكن لو حدث وأن كان هناك أي رجلٍ لديه من الأسباب ما يجعله يؤمن بكونه محبوبًا، فقد كنتُ أنا ذلك الرجل. لا أفهم حتى هذه اللحظة ما الذي كانت تفكر فيه، فلا حاجة لها باستغلالي كي تضمن تيلني. في النهاية، افترقنا بالتراضي. كم أتمنَّى لو لم نلتقِ قطّ! لا أتوقَّع أن أعرف امرأة أخرى تشبهها على الإطلاق! عزيزتي كاثرين، احذري كيف تمنحين قلبكِ.

فلتصدقيني.

لم تكن كاثرين قد قرأت ثلاثة أسطر، حتى اتَّضح من التغيُّر المفاجئ لملامحها، وتعبيراتها القصيرة التي تنمُّ عن الدهشة والتعجُّب، أنَّها تلقَّت أخبارًا سيئة. لاحظ هنري، الذي كان يراقبها من كثبٍ طوال قراءتها للرسالة، أنها لم تنته بأفضل مما بدأت. لكنه لم يستطع إبداء الدهشة حتى، بسبب دخول والده. ذهبوا لتناول الإفطار على الفور، لكن كاثرين لم تستطع تناول أي شيء تقريبًا. ملأت الدموع عينيها، وانسالت على وجنتيها وهي جالسة. أمسكت الرسالة بيدها للحظة، ثم وضعتها في حجرها، وبعد ذلك في جيبها، بدت كأنَّها لا تدري ما تفعله. من حسن الحظ أنَّ الجنرال لم يكن لديه الوقت لملاحظتها، لانشغاله بتناول الكاكاو وقراءة الصحيفة. لكن بالنسبة إلى الاثنين الآخرين، كانت محنتها واضحة للعيان. ما إن جرؤت على مغادرة المائدة، حتى هرعت إلى غرفتها. لكنَّ الخادمات كنَّ يعملن بها، فاضطرت إلى النزول مرة أخرى. توجَّهت إلى غرفة الاستقبال لتنعم ببعض الخصوصية، إلَّا أنَّ هنري وإليانور كانا قد ذهبا هناك أيضًا، وكانا في تلك اللحظة يتشاوران بعمقٍ في شأنِها. تراجعت وهي تحاول الاعتذار، لكنَّها أُجبرت على العودة بحزمٍ ولطفٍ، وانسحب الآخران بعد أن أعربت إليانور بمودة عن رغبتها في معاونتها ومواساتها.

بعد نصف ساعة من الاستغراق في الحزن والتفكير، أحسَّت كاثرين أنها قادرة على مواجهة أصدقائها. أما إطلاعهما على سبب كربها، فقد كانت تلك مسألة أخرى. لو تعرَّضت للاستجواب الشديد، ربما تمنحهما فكرة فقط، وتلمِّح عن الأمر بصورة غير مباشرة، لا أكثر من ذلك. كيف لها أن تفضح صديقة، مثلما كانت إيزابيلا بالنسبة إليها، إلى جانب تورُّط شقيقهما في الأمر لهذا الحدِّ! كانت تعتقد أنَّ عليها نبذَ الموضوع برمتِه. كان هنري وإليانور بمفردهما في غرفة الإفطار، ونظر كلاهما نحوها بقلقٍ عندما دخلت. جلست كاثرين إلى الطاولة، وبعد فترة قصيرة من الصمت، قالت إليانور:

- أتمنّى ألا تكون هناك أخبارٌ سيئة من فولرتون. أتمنّى ألا يكون أيٌّ من السيد والسيدة مورلاند، وأشقائكِ وشقيقاتكِ، مريضًا.

تنهدت كاثرين وهي تتحدث، وقالت:

- لا، أشكركِ. إنهم جميعًا على ما يرام. كانت الرسالة من شقيقي في أوكسفورد.

لم يُقال أي شيء آخر لبضع دقائق، ثم أضافت قائلة من بين دموعها:

- لا أعتقد أنني سأتمنَّى استلام رسالة أخرى أبدًا!

أغلق هنري الكتابَ الذي كان قد فتحه للتوِّ، وقال:

- أنا آسفٌ، لو كنتُ اشتبهتُ في احتواء الرسالة على أي شيء غير مرحبٍ به، لكنتُ منحتكِ إياها بشعورٍ مختلفٍ للغاية.

- لقد حوت ما هو أسوأ مما يمكن لأي شخص تخيله! إن جيمز المسكين تعيسٌ للغاية! سرعان ما ستعرفان السبب.

أجاب هنري قائلًا بحرارة:

- لا بُدَّ وأنَّ كونه ينعم بشقيقة طيبة القلب وحنونة لهذا الحدِّ، يمثِّل مصدر راحة بالغة بالنسبة إليه في أي كربٍ.

بعدها بفترة قصيرة، قالت كاثرين باضطرابٍ:

- لديَّ طلبٌ واحدٌ أترجَّاه. أرجو إخباري مسبقًا إذا كان شقيقكما قادمًا، حتى أتمكَّن من الرحيل.

- شقيقنا! فريدريك!

- أجل. بالتأكيد سيؤسفني للغاية الرحيل سريعًا بهذه الدرجة، لكن حدث شيءٌ من شأنِه أن يجعل وجودي في نفس المنزل مع الكابتن تيلني أمرًا لا يُحتَمل بالنسبة إليَّ.

توقفت إليانور عن التطريز بينما هي تحدِّق بدهشة متزايدة، إلَّا أنَّ هنري بدأ يشكُّ في الحقيقة، ومرَّ على شفتيه شيءٌ ما ذُكِر فيه اسم الآنسة ثورب.

صاحت كاثرين قائلة:

- كم أنتَ لمَّاح! لقد خمَّنتَ الأمر! ومع ذلك، عندما تحدثنا عن الموضوع في باث، لم تكن تعتقد أنَّه سينتهي على هذا النحو. إيزابيلا... لا عجب الآن أنني لم أسمع منها شيئًا... لقد هجرتْ إيزابيلا شقيقي، وستتزوج شقيقكَ أنتَ! هل كان بوسعكَ تصديق وجود مثل هذا التناقض والتقلُّب، وكل ما هو سيِّئ في العالم؟

- آمل أن تكون معلوماتكِ خاطئة، فيما يتعلَّق بشقيقي. أتمنَّى ألَّا يكون له أي دورٍ فعليٍّ في التسبُّب في خيبة أمل شقيقكِ. من غير المحتمل زواجه من الآنسة ثورب. أعتقد أنكِ مخطِئة حتى الآن. أشعر

بالأسف البالغ حيال السيد مورلاند، وبالأسى لتعاسة أي شخصٍ تحبينه، إلا أنني سأندهش في حال ما إذا تزوجها فريدريك، أكثر من اندهاشي لأي جزءٍ آخر من الحكاية.

- لكن هذا صحيحٌ بالفعل، وعليكَ أن تقرأ رسالة جيمز بنفسِك. انتظر... هناك جزء فيها...

تذكرتْ السطر الأخير، فتضرج وجهها بالحمرة.

- هلا تجشَّمتِ عناء أن تقرئي علينا تلك الأجزاء التي تخصُّ شقيقنا؟

صاحت كاثرين قائلة، بعد أن أعادت التفكير بوضوحٍ أكبر:

- لا، فلتقرأها بنفسِكَ. لا أدري ما الذي كنتُ أفكرُ فيه. لا يقصد جيمز شيئًا سوى إسدائي نصيحة جيدة.

وتخضَّب وجهُها مرة أخرى لكونه تضرَّج حمرة قبلها.

تناول منها هنري الرسالة بسرورٍ، وبعد قراءتِها بعناية، أعادها إليها قائلًا:

- حسنًا، لو كان ذلك صحيحًا، لا يسعني القول سوى إنني آسفٌ لذلك. لن يكون فريدريك هو أول رجل يختار زوجة بتعقُّلٍ أقل مما تتوقَّعه منه أسرته. لا أحسده على موقفِه، سواء كحبيبٍ أو ابنٍ.

قرأت الآنسة تيلني أيضًا الرسالة، بناء على دعوة كاثرين. وبعد أن عبَّرت عن قلقِها ودهشتِها هي الأخرى، بدأت تسأل عن أسرة الآنسة تيلني وثروتها. أجابتها كاثرين:

- إنَّ والدتَها امرأة طيبة للغاية.

- وماذا كان يعمل والدها؟

- كان يعمل كمحامٍ، على ما أعتقد. إنهم يعيشون في بوتني.

- هل هم عائلة ثرية؟

- ليس بدرجة كبيرة. لا أعتقد أنَّ إيزابيلا لديها أي ثروة على الإطلاق. إلَّا أنَّ ذلك لا يعني شيئًا في أسرتِكم. إنَّ والدكما كريمٌ للغاية! لقد أخبرني منذ عدة أيامٍ أنَّه لا يهتم بالمال، إلا بالقدر الذي يساعده على تعزيز سعادة أبنائه.

نظر كلٌّ من الأخ وأخته بعضهما إلى بعضٍ، قالت إليانور بعد فترة قصيرة من الصمت:

- لكن هل سيكون تمكينه من الزواج بمثل هذه الفتاة تعزيزًا لسعادته؟ لا بُدَّ وأن تكون من دون أي مبادئ، وإلَّا لِمَا استغلَّت شقيقكِ على هذا النحو. وكم هو غريبٌ هذا الافتتان من جانب فريدريك! فتاة انتهكت أمام عينيه الخطوبة التي ارتبطتْ بها طواعية مع رجلٍ آخر! أليس هذا من غير المعقول، يا هنري؟ فريدريك، الذي لطالما حافظ على قلبِه بكلِّ فخرٍ! الذي لم يجد أي امرأة تليق بما يكفي لأن يحبها!

- هذا ظرفٌ غيرُ واعدٍ على الإطلاق، وهو أقوى حكم ضده. عندما أفكر في تصريحاته السابقة، أعده في عداد المفقودين. علاوة على ذلك، أعتقد أنَّ الآنسة ثورب تتمتَّع بقدرٍ من الحكمة، بما يكفي لأن أفترض أنَّها لن تهجر رجلًا قبل أن تضمن الآخر. لقد انتهى أمرُ فريدريك بالفعل! إنَّه في عداد الأموات، وقد فقد عقله تمامًا. استعدي لاستقبال كنتكِ، يا إليانور، ولا بُدَّ وأن تسعدي بكنة مثلها! فهي صريحة وكريمة، وبريئة وصادقة، تتمتع بعواطف قوية لكنها بسيطة، ولا تعرف الادعاء ولا التلون.

قالت إليانور بابتسامة:

- سأسعد بمثل هذه الكنة، يا هنري.

قالت كاثرين:

- لكن ربما تُحسِن التصرف مع أسرتكم، على الرغم من تصرفها على هذا النحو السيِّئ مع أسرتنا. قد تظل مخلصة الآن، بعد أن حصلت على الرجل الذي تحبه بالفعل.

أجاب هنري قائلًا:

- أخشى أنها قد تفعل بالفعل. أخشى أنها ستظل في غاية الإخلاص، ما لم يعترض طريقها بارونيت، هذه هي فرصة فريدريك الوحيدة للنجاة. سأحضر صحيفة باث، وألقي نظرة على الوافدين.

- هل تعتقد أنَّ كلَّ ذلك بدافعٍ من الطمع إذن؟ أقسم بشرفي إن هناك بعض الجوانب التي تجعل الأمر يبدو هكذا بالفعل. لا أستطيعُ أن أنسى أنها عندما علِمتْ في البداية بما سيقدمه لهما والدي، بدت عليها خيبة الأمل لأنها لن تنال ما هو أكثر من ذلك. لم يسبق وأن خُدعتُ في شخصية أحد لهذه الدرجة من قبل طوال حياتي.

- من بين كل التنوع الكبير الذي عرفتِه ودرستِه.

- إن خسارتي وخيبة أملي بها عظيمة للغاية، أما بالنسبة إلى المسكين جيمز، فلا أعتقد أنه سيتخطى ذلك الأمر أبدًا.

- من المؤكد أن شقيقكِ يستحق الشفقة بدرجة كبيرة الآن. لكن لا ينبغي لنا في خضم قلقِنا على آلامه، أن نقلل من ألمك أنتِ. أعتقدُ أنكِ تشعرين بأنكِ فقدتِ نصف ذاتكِ، بفقدانكِ لإيزابيلا، وتحسين في قلبك بفراغٍ لا يمكن أن يشغله شيءٌ آخر. تبدو صحبة الآخرين مزعجة، وأما بالنسبة إلى وسائل التسلية التي اعتدتِ مشاركتها إياها في باث، فإن مجرد التفكير فيها من دونها أمرٌ كريهٌ. على سبيل المثال، لن ترغبي في الذهاب لحفلٍ راقصٍ الآن، ولو مقابل أي شيء في العالم. تشعرين بأنكِ لم يعد لديكِ صديقة بوسعكِ الحديث معها من دون تحفُّظٍ، ويمكنك الاعتماد على مراعاتها لكِ، إلى جانب الاعتماد على مشورتها في أي مصاعب. هل تشعرين بكل هذا؟

قالت كاثرين بعد بضع لحظاتٍ من التفكير:

- لا، لا أشعر بهذا. أيتوجب عليَّ ذلك؟ لأصدقكَ القول، فعلى الرغم من كوني مجروحة وحزينة لأنني لا أستطيع الاستمرار في حبها، ولن أسمع منها أبدًا، وربما لن أراها مرة ثانية على الإطلاق،

إلا أنني لا أشعر بالبؤس الشديد بالقدر الذي قد يتوقعه المرء.

- دومًا ما تشعرين بكل ما يجسد أفضل ما في الطبيعة البشرية. لا بُدَّ وأن يستكشف المرء مشاعرَه تلك، كي يفهمها على نحوٍ أفضل.

بطريقة أو بأخرى، وجدت كاثرين نفسها قد أحسَّت بارتياحٍ بالغ لهذه المحادثة، فلم تندم لانسياقها إليها، وإن كان ذلك على هذا النحو الغريب، ولا لذكرها للظروف ألتي قادت لتلك المحادثة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ ذلك الحين، صار الموضوع يخضع للنقاش كثيرًا بين الشباب الثلاثة، وفوجئت كاثرين إلى حدٍّ ما عندما وجدت أنَّ صديقيها الشابين اتَّفقا تمامًا أنَّ افتقار إيزابيلا للمكانة الاجتماعية والثروة غالبًا ما سيلقيان بصعوباتٍ كبيرة في طريق زواجِها بشقيقهما. جعلتها قناعتهما بأنَّ الجنرال سيعارض ذلك الارتباط، بناء على هذا الأساس وحده، وبصرف النظر عن أي اعتراضاتٍ قد تُثار ضد شخصيتها، تفكر في وضعِها هي ببعض الاضطراب. كانت تفتقر للمكانة الاجتماعية هي الأخرى، وربما تفتقر لدوطة مناسبة أيضًا مثل إيزابيلا. ولو لم يكن وريث أملاك آل تيلني لديه في حدِّ ذاتِه ما يكفيه من المكانة والثروة، فعند أي حدٍّ ستنتهي المطالب المتعلقة بشقيقه الأصغر إذن؟([22]) لم تتبدَّد التأمُّلات المؤلمة للغاية التي قادها إليها تفكيرها هذا، إلا من خلال اعتمادها على تأثير تلك المحاباة الخاصة التي أدركت -عبر كلمات الجنرال وأفعاله- أنَّها كانت محظوظة بما يكفي لتفوز بها منه منذ البداية، إلى جانب تذكُّرها لبعض أكثر العبارات كرمًا وسخاءً والمتعلقة بالمال، التي سمعته يتفوَّه بها أكثر من مرة، مما دفعها للاعتقاد بأنَّ ابنه وابنته أساءا تفسير ميله فيما يتعلَّق بهذه الأمور. إلَّا أنَّهما كانا مقتنعين تمامًا أنَّ شقيقهما لن تواتيه الجرأة لطلب موافقة والده شخصيًّا، لذا أكدا لها مِرارًا وتكرارًا أنَّه لم يكن هناك احتمال أقل لحضوره إلى نورثانجر طوال حياته من قبل، مثلما كان الآن، فارتاح بالها فيما يتعلَّق باحتمال أن تضطرَّ هي إلى الرحيل فجأة في أي وقتٍ. لكن حيث إنه لم يكن من المتوقع أن الكابتن تيلني سيعطي والده أيَّ صورة حقيقية عن سلوك إيزابيلا عندما يتقدَّم إليه بطلبه، طرأ لها أنَّه من الملائم للغاية أن يوضح له هنري الأمرَ برمته كما كان في الحقيقة، وبذلك يُمكِّن الجنرال من تكوين رأيٍ هادئ ومحايدٍ، ومن إعداد اعتراضاته على أساس أكثر إنصافًا من عدم تكافؤ المكانة الاجتماعية. لذا اقترحت عليه الأمر، إلَّا أنَّه لم يتمسَّك بالاقتراح بحماسٍ كما كانت تتوقع. قال:

- لا، فإنَّ والدي ليس بحاجة لمن يساعده على تقوية موقفه، كما أنه لا ينبغي إحباط اعتراف فريدريك بحماقته، بل عليه أن يروي حكايته بنفسه.

- لكنَّه لن يحكي سوى نصفها فقط.

- سيكون ربعها كافيًا.

مرَّ يومٌ أو يومان من دون أي أخبارٍ عن الكابتن تيلني؛ أحسَّ شقيقه وشقيقته بالحيرة. بدا لهما في بعض الأحيان كما لو أنَّ صمته هذا هو النتيجة الطبيعية للخِطبة المشتبه فيها، بينما في أحيانٍ أخرى بدا الأمر كأنَّه متعارضٌ مع ذلك تمامًا. في تلك الأثناء، وعلى الرغم من استياء الجنرال كلَّ صباحٍ بسبب تقصير فريدريك في كتابة الرسائل، إلَّا أنَّه لم يكن يحمل أيَّ همٍّ حقيقي بشأنه، ولم يكن لديه ما هو أكثر إلحاحًا من اهتمامه بجعل الوقت الذي تمضيه الآنسة مورلاند في نورثانجر يمرُّ على نحوٍ ممتعٍ. كثيرًا ما عبَّر عن قلقه بهذا الشأن، وخشيته من أن تشابُه الصحبة والمهام اليومية سيثير ضجرها من المكان، وتمنى لو أنَّ سيدات آل فريزر كنَّ في المقاطعة. كما تحدَّث بين حينٍ وآخر عن إقامة مأدبة عشاء كبيرة، وأخذ في مرة أو مرتين حتى يحسب عددَ الشباب في الحي ممن يمكنهم الرقص. لكن كان ذلك الوقت من العام ميتًا تمامًا، بلا طيورٍ برية ولا طرائد يمكن صيدها، كما لم

تكن سيدات آل فريزر في المقاطعة. أخيرًا، انتهى الأمر بأن أخبر هنري ذات صباحٍ أنّه عندما يذهب إلى وودستون في المرة القادمة، فسوف يفاجئونه هناك في يوم أو آخر، ليتناولوا معه العشاء. سُرَّ هنري أيما سرور، وعدَّ ذلك شرفًا بالغًا، كما سعدت كاثرين للغايةً بتلك الخطة.

- ومتى يمكنني التطلُّع لهذه المتعة، على حدِّ توقعكَ يا سيدي؟ يجب أن أكون في وودستون في يوم الاثنين، لحضور اجتماع الأبرشية. وسأضطر إلى البقاء ليومين أو ثلاثة في الغالب.

- حسنًا، سننتهز الفرصة في أحد تلك الأيام. لا داعي لتحديد يوم. لا حاجة بكَ لأن تتجشَّم أي عناءٍ على الإطلاق. أيًّا ما كان متوافرًا لديكَ في المنزل سيكون كافيًا. أعتقد أنَّ بوسعي الحديث نيابة عن الشابتين، والقول بأنهما ستتفهمان أنها مجرد مائدة شابٍّ أعزب. دعني أرى، سيكون الاثنين يومًا حافلًا بالنسبة إليكَ، لذا فلن نأتي يوم الاثنين. وسأكون أنا مشغولًا يوم الثلاثاء. فأنا أتوقع حضور مسَّاح الأراضي الخاص بي من بروكهام بتقريره في الصباح. ولا يمكنني خرق قواعد اللياقة والتغيُّب عن الحضور في النادي بعدها. لن أتمكَّن من مواجهة معارفي لو أنني غبتُ الآن، لأنه من المعروف أنني موجودٌ في المقاطعة الآن، وسوف يسوؤهم ذلك للغاية. ومن القواعد التي ألتزم بها، يا آنسة مورلاند، هي عدم إثارة استياء أيٍّ من جيراني، طالما كان من الممكن تفادي ذلك بتقديم تضحية بسيطة بالوقت أو الاهتمام. هذه مجموعة من الرجال الأفاضل، أمنحهم أنا لحم نصف غزال من أراضي نورثانجر في كل عام، وأتناول العشاء بصحبتهم متى استطعتُ ذلك. لذا بوسعنا القول إن الثلاثاء غير مطروحٍ للنقاش. لكن أعتقد أن بوسعكَ توقُّع حضورنا يوم الأربعاء، يا هنري. وسنأتي في وقتٍ مبكرٍ، حتى يتسنَّى لنا الوقت الكافي لمشاهدة المكان. سيستغرق الطريق إلى وودستون ثلاث ساعات إلا ربعٍ، على ما أظن. سنستقل العربة في الساعة العاشرة، لذا يمكنكَ توقُّع قدومنا يوم الأربعاء، في الساعة الواحدة إلا الربع.

لم تكن كاثرين لترحِّب بحفلٍ راقصٍ، أكثر من ترحيبها بهذه الرحلة الصغيرة. لهذه الدرجة كانت رغبتها قوية في التعرُّف على وودستون، وكان قلبُها لا يزال يتواثب فرحًا، عندما أتى هنري بعدها بساعة مرتديًا حذاءه ومعطفه الطويل، ودخل الغرفة التي تجلس بها هي وإليانور، وقال:

- لقد أتيتُ، أيتها الشابتان، بمزاجٍ يميل إلى الوعظ، لأنبِّهكما إلى أنَّه يتوجَّب علينا دومًا دفع ثمن ملذاتنا في هذا العالم، وأنَّنا عادة ماً نشتري سعادتنا هذه بخسارة كبيرة، بأن نتنازل عن سعادتنا الفعلية الحاضرة، مقابل سعادة مستقبلية قد لا تتحقق. فلتنظرا إليَّ في هذه الساعة، بما أنني آمل في الاستمتاع برؤيتكما يوم الأربعاء، وهو الأمر الذي قد يحول دونه الطقس السيِّئ، أو عشرون سببًا آخر، إلَّا أنَّه يتعيَّن عليَّ الذهاب على الفور، قبل يومين من الموعد الذي كنت أنتوي فيه الرحيل.

قالت كاثرين بوجهٍ غلبت على ملامحه الحزن:

- ترحل! لماذا؟

- لماذا؟ كيف يمكنكِ طرح هذا السؤال؟ لأنَّه لا يوجد وقتٌ لأضيعه في إخافة مدبِّرة منزلي العجوز، ولأنَّه يجب عليَّ الذهاب للإعداد من أجل العشاء معكم بكلِّ تأكيدٍ.

- أوه! لا يمكن أن تكون جادًّا في حديثكَ!

- أجل، للأسف، إذ إنّني أفضِّل البقاءَ.

- لكن كيف يمكنكَ التفكير في مثل ذلك الشيء، بعد ما قاله الجنرال؟ وبعد أن أعرب بوضوحٍ عن رغبته في ألا تجشِّم نفسك أي عناء، وأنَّ أي شيء سيفي بالغرض؟

ابتسم هنري فحسب. واصلت كاثرين قائلة:

- أنا على يقينٍ من أنَّه لا ضرورة لذلك على الإطلاق، سواء من أجل شقيقتكَ أو من أجلي.

لا بُدَّ وأنكَ تعرف أنَّ هذا صحيحٌ، وقد أكَّد الجنرال على أنه لا يريدكَ أن تقدم شيئًا غير اعتيادي. علاوة على ذلك، حتى لو لم يكن قد ذكر نصف ما قاله، فهو دومًا ما يتناول عشاءً ممتازًا في المنزل، بحيث لن يؤثِّر جلوسه لتناول عشاء عادي ليومٍ واحدٍ فحسب.

- أتمنى لو كان بوسعي التفكير في الأمر مثلكِ، من أجله هو ومن أجلي أيضًا. الوداع. وبما أنَّ الغد هو يوم الأحد، يا إليانور، فلن أعود.

رحل بعدها، وبما أنَّه كان من الأسهل كثيرًا في أي وقتٍ بالنسبة إلى كاثرين أن تشك في حكمها الخاص عوضًا عن الشك في حكم هنري، لذا فسرعان ما اضطرَّت إلى الاعتراف بكونه محقًّا، مهما كرهت رحيله. إلَّا أنَّها انشغلتْ كثيرًا بالتفكير في مدى صعوبة تفسير سلوك الجنرال. كانت قد اكتشفتْ بالفعل من خلال ملاحظتها الخاصة أنه بالغ الاهتمام بطعامه، لكن لم يكن هناك تفسيرٌ للسبب الذي قد يدفعه للتأكيد بشدة على شيء في حديثِه، بينما هو يعني شيئًا آخر طوال الوقت! كيف يمكن فهم ما يعنيه الناس على هذه النحو؟ ومن سوى هنري كان سيتمكَّن من فَهْم ما يعنيه والده؟

هكذا كانوا سيصبحون من دون هنري من يوم السبت حتى الأربعاء. كانت هذه هي النهاية الحزينة لكلِّ فكرة من أفكارها. ومن المؤكد أنَّ رسالة الكابتن تيلني سوف تصل خلال غيابه، بينما كانت على يقينٍ من أنَّ يوم الأربعاء سيكون ممطرًا. بدا الماضي والحاضر والمستقبل متساوين في الكآبة. كان شقيقها بالغ التعاسة، وخسارتها لإيزابيلا عظيمة جدًّا، كما كانت معنويات إليانور متأثرة على الدوام لغياب هنري! ما الذي كان يمكن أن يثير اهتمامها أو يسليها؟ سئمت الغابات والبساتين، التي كانت منبسطة وجافة للغاية على الدوام، في حين لم يعد الدير في حدِّ ذاتِه يمثِّل لها أكثر مما يمثِّله أي منزل آخر. كانت الذكرى المؤلمة لتلك الحماقة التي ساعد على تغذيتها وتضخيمها، هي الشعور الوحيد الذي قد ينبع من تأمُّل المبنى. يا لها من ثورة في تفكيرها! هي التي كانت تتوق بشدة لأن تتواجد داخل دير! لم يعُد الآن ما هو أكثر سحرًا في خيالها من منزل كاهنٍ منظم ومريحٍ في بساطته. شيء ما مثل فولِّرتون، لكن أفضل. كان لمنزل فولرتون عيوبه، لكن على الأرجح لم يكن لوودستون أي عيوب. لو أن يوم الأربعاء يأتي!

أتى بالفعل، في وقتِه الملائم تمامًا. أتى، وكان صحوًا، وانتشت كاثرين سعادة. بحلول الساعة العاشرة، نقلت العربة التي يجرُّها أربعة خيول ثلاثتهم من الدير، وبعد رحلة مريحة بلغت ما يقرب من عشرين ميلًا تقريبًا، دخلوا وودستون، قرية كبيرة مكتظَّة بالسكان، في موقعٍ لطيفٍ. أحسَّت كاثرين بالخجل من الاعتراف بمدى إعجابها بالقرية، إذ بدا الجنرال كأنه يعتقد أنه من الضروري الاعتذار لرتابة الريف، ولحجم القرية. لكن في قلبها، كانت تفضِّلها عن أي مكانٍ آخر زارته على

الإطلاق، ونظرت بإعجابٍ شديدٍ لكل منزلٍ أنيقٍ أعلى مرتبة من كونه كوخًا، ولكل المتاجر الصغيرة التي مرُّوا بها، التي تبيع اللوازم المنزلية. في الطرف الآخر من القرية، بعيدًا عن بقيتها، كان منزل الكاهن. كان منزلًا حجريًّا كبيرًا، بُني حديثًا، له ممرٌّ شبه دائري يؤدي إليه، وبوابات خضراء. وعندما اقتربت بهم العربة من الباب، وقف هنري مع أصدقاء وحدته: جرو كبير من فصيلة نيوفاوندلاند، وكلبين أو ثلاثة من فصيلة الترير، لاستقبالهم والترحيب بهم بحرارة.

كان عقل كاثرين منشغلًا للغاية عندما ولِجت المنزل، بدرجة منعتها من أن تلاحظ أو تقول الكثيرَ، ولم تكن لديها أدنى فكرة عن الغرفة التي تجلس بها، إلى أن طلب منها الجنرال إبداء رأيها في المنزل. عندما تلفَّتت حولها، أدركت في لحظة أنها أكثر غرفة مريحة في العالم، لكنها كانت أكثر حذرًا من أن تصرح بذلك، فأصابه الفتور الذي عبَّرت به عن ثنائها بخيبة الأمل.

قال:

- نحن لا ندَّعي أنه منزلٌ جيدٌ، ولا نقارنه بفولرتون أو نورثانجر، بل نعِدُّه مجرد منزل كاهن، نعترف أنه صغيرٌ ومحدودٌ، لكنَّه لائقٌ وصالح للسكنى، ولا يقل في المجمل عن عامة المنازل التي تشبهه. أو بعبارة أخرى، أعتقد أنه يوجد عددٌ قليلٌ للغاية من منازل الكهنة في إنجلترا تضاهي نصفه. مع ذلك، قد أقرُّ أنَّه بحاجة لبعض التحسينات. حاشا أن أدَّعي خلاف ذلك. أي شيء في حدود المعقول... ربما نافذة مقوَّسة تبرز للخارج. مع ذلك، بيني وبينكِ، فلو كان هناك ما أكرهه أكثر من أي شيء سواه، فهو منظر نافذة مقوسة تمَّت إضافتها بحيث يبدو المنزل كأنَّه صار مرقَّعًا.

لم تسمع كاثرين ما يكفي من حديثه هذا لتفهمه أو تتألم منه. تعمَّد هنري إثارة موضوعات أخرى، في نفس الوقت الذي دخلت فيه خادمته بصينية مليئة بالمرطبات، فسرعان ما عاد الجنرال إلى الشعور بالرضا، كما عادت كاثرين للشعور بالارتياح.

كانت الغرفة المعنية واسعة ذات حجم متناسبٍ، ومجهَّزة على نحوٍ رائعٍ لتكون غرفة لتناول الطعام. بعد أن غادروها للتجول في الأراضي المحيطة، اُقتيدت أولًا إلى غرفة أصغر تخص سيد المنزل وحده، وقد رُتِّبت الغرفة على نحوٍ غير اعتيادي خصيصًا لأجل هذه المناسبة، وبعدها دخلت ما كان سيصبح غرفة الاستقبال، التي على الرغم من كونها غير مؤثَّثة بعد، أثارت إعجاب كاثرين بدرجة أرضتْ الجنرال. كانت غرفة ذات شكلٍ لطيفٍ، ولها نوافذ تصل حتى الأرض، يبدو المنظر منها جميلًا، على الرغم من أنها كانت تطل على مروجٍ خضراء فحسب. أعربت عن إعجابها في تلك اللحظة، بكلِّ مشاعر الصدق والبساطة التي أحسَّتها.

- أوه! لمَ لا تؤثَّث هذه الغرفة، يا سيد تيلني؟ يا له من أمرٍ مؤسفٍ تركها من دون أثاث! إنَّها أجمل غرفة رأيتها على الإطلاق... بل إنها أجمل غرفة في العالم!

قال الجنرال بابتسامة رضا واسعة:

- أنا على يقينٍ من أنها سرعان ما سوف يتم تأثيثها. إنها في انتظار ذوق سيدة فحسب!

- حسنًا، لو كان هذا منزلي، لما جلستُ في أي مكانٍ آخر. أوه! يا له من كوخٍ صغيرٍ جميلٍ، هناك وسط الأشجار. إنها أشجار تفاح أيضًا! هذا أجمل كوخٍ على الإطلاق!

- إنّه يعجبكِ، وتستحسنين منظره. هذا سبب كافٍ. هنَري، تذكر أن تتحدث مع روبنسون بخصوص هذا الأمر. لن تتم إزالة الكوخ.

جعلت هذه المجاملة كاثرين تشعر بالخجل مرة أخرى، وصمتت على الفور. وعلى الرغم من أنَّ الجنرال طلب بوضوح معرفة رأيها فيما يتعلَّق باختيار ألوان ورق الحائط والستائر، إلَّا أنَّه لم يتمكَّن من استخلاص أي رأيٍ منها بخصوص الموضوع. ومع ذلك، كان لتأثير الأشياء الجديدة والهواء النقي فائدة عظمى في تبديد هذه الإيحاءات المثيرة للحرج. وبعد وصولهم للجزء غير الوظيفي في المكان، والمؤلَّف من ممشى يحيط بجانبي مرجٍ أخضر، بدأ هنري العمل فيه بموهبته منذ قرابة نصف عام، كانت قد عادت لطبيعتها بما يكفي للإعراب عن اعتقادها بأنه أجمل من أي متنزه شاهدته من قبل، على الرغم من عدم وجود شجيرة فيه يزيد ارتفاعها عن المقعد الأخضر الكائن في الزاوية.

تنزَّهوا في المروج الأخرى، وعبر جزءٍ من القرية، مع زيارة للإسطبلات لتفحُّص بعض التعديلات هناك، ولعبوا مع مجموعة من الجراء تعلَّمت المشي بالكاد، حتى حلَّت الساعة الرابعة، في حين كانت كاثرين تعتقد أنها لم تصل الثالثة بعد. كانوا سيتناولون العشاء في الرابعة، وفي السادسة ينطلقون للعودة في طريقهم. لم يسبق وأن مرَّ يومٌ بمثل هذه السرعة من قبل!

لم تستطع إلَّا أن تلحظ أنَّ وفرة العشاء لم تثِر أدنى قدرٍ من الدهشة في الجنرال، حتى إنَّه ظلَّ ينظر نحو المائدة الجانبية، بحثًا عن اللحوم الباردة التي لم تكن هناك. كانت ملاحظات ابنه وابنته من نوعٍ مختلفٍ، نادرًا ما شاهداه يأكل بشهية على هذا النحو، على أي مائدة بخلاف مائدته هو، كما لم يسبق وأن شاهداه وهو يبدو غير مكترثٍ بأنَّ صلصة الزبد صارت دهنية بدرجة زائدة.

في الساعة السادسة، بعد أن تناول الجنرال قهوته، استقلُّوا العربة ثانية. كان مغزى سلوكه طوال الرحلة يبعث على السرور البالغ. كانت كاثرين على يقينٍ تامٍّ من توقعاته، ولو أنَّها تمكَّنت من الشعور بالثقة في رغبات ابنه، لغادرت وودستون من دون أن يساورها القلق حول كيف ومتى ستعود هناك مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 12 -

في صباح اليوم التالي، وصلت رسالة غير متوقعة على الإطلاق من إيزابيلا.

باث، إبريل.

عزيزتي كاثرين،

تلقيتُ رسالتيكِ الكريمتين بسرور بالغ، وأدينُ لكِ بألف اعتذار لعدم الرد العاجل. أنا حقًّا أشعر بالخزي من تباطؤي، لكن المرء لا يستطيع أن يجد الوقت للقيام بأي شيء في هذا المكان البشع. لقد أمسكتُ بقلمي في يدي وأنا أنتوي كتابة رسالة لكِ في كل يوم تقريبًا، منذ رحيلكِ عن باث، لكن في كل مرة كان يمنعني عارضٌ سخيفٌ أو آخر. أرجو أن تكتبي لي قريبًا، على عنوان منزلي مباشرة. حمدًا للرب! سنغادر هذا المكان الحقير غدًا. منذ رحيلكِ، لم أستمتع به قطّ. إنَّ الغبار هنا يفوق كلَّ الحدود، وكل من أكترث لشأنِهم رحلوا. أعتقد أنني لو تمكنتُ من رؤيتكِ، فلن أكترث بأي شيء آخر، إذ إنَّكِ أعزُّ عليَّ بدرجة أكبر مما يمكن أن يتصور أي شخص. أشعر بقلقٍ بالغ حيال شقيقكِ العزيز، فلم يصلني منه أي شيء منذ ذهابه إلى أوكسفورد، وأخشى أن يكون هناك سوء تفاهُم ما. ستجعل مساعدتكِ الكريمة كلَّ شيء على ما يرام. إنَّه الرجل الوحيد الذي أحببته، أو الذي أستطيع أن أحبه، وأنا على يقينٍ من أنكِ ستقنعينه بذلك. لقد ازدادت أزياء الربيع طولًا بعض الشيء، والقبعات أقبح مما يمكنكِ أن تتخيلي. أتمنَّى أن تكوني مستمتعة بوقتكِ، لكنني أخشى أنكِ لا تفكرين بي أبدًا. لن أقول كلَّ ما بوسعي قوله بخصوص الأسرة التي تقيمين معها، لأنني لا أريد أن أكون غير كريمة، أو أحرضكِ ضد أولئك الذين يحظون بتقديركِ، لكن من الصعب للغاية معرفة من يمكنكِ الثقة به، كما أنَّ الشبابَ لا يستقرُّون على رأي أبدًا، ولو ليومين فحسب. يسعدني القول إنَّ ذلك الشاب، الذي أكرهه على وجه الخصوص من بين جميع الآخرين، رحل عن باث. ستعرفين من هذا الوصف أنني لا بُدَّ وأن أعني الكابتن تيلني، الذي كان كما قد تتذكرين، يميل بدرجة فظيعة إلى تتبُّعي ومضايقتي، قبل رحيلكِ. ازداد الأمر سوءًا بعدها، وأصبح كظلي تمامًا. كان من الممكن أن تنخدع فيه عديدٌ من الفتيات، إذ لم يسبق وأن أبدى أحدٌ مثل هذا القدر من الاهتمام من قبل، لكنني أعرف ذلك الجنس المتقلِّب جيدًا. عاد إلى كتيبته منذ يومين، وأنا على يقينٍ من أنَّني لن أبتلى به مرة أخرى. إنَّه أحمق من رأيت في حياتي، ومزعجٌ بدرجة فظيعة. ظلَّ ملازمًا لشارلوت ديفيز طوال اليومين الأخيرين. أشفقتُ عليه لذوقه هذا، لكنني لم ألقِ له بالًا. آخر مرة التقينا، كان في شارع باث، وانعطفتُ لأدخل أحد المتاجر، كي لا يتمكَّن من الحديث معي، ورفضتُ حتى النظر إليه. توجَّه هو إلى قاعة المضخات بعدها، لكنني لم أكن لأتبعه مقابل أي شيء في العالم. يا للتناقض بينه وبين شقيقكِ! أرجو أن ترسلي لي بعض أخبار ذلك الأخير؛ أنا قلقة بشأنه للغاية، إذ إنَّه بدا منزعجًا لأقصى حدٍّ عند رحيله، كأنَّه يعاني الإصابة بالبرد، أو شيء ما أثَّر على حالته المزاجية. كنت سأكتبُ له بنفسي، لولا أنني أضعت عنوانه، وكما أشرتُ أعلاه، فأنا أخشى أن يكون أساء تفسير شيء في سلوكي. أرجو أن توضحي له كلَّ شيء، أو إذا كانت لا تزال لديه أي شكوك، يمكنه أن يرسل إليَّ رسالة، أو يزورنا في بوتني عند وجوده في لندن المرة القادمة، لإعادة الأمور إلى نصابها. لم أذهب إلى قاعات الحفلات ولا لحضور مسرحية منذ دهرٍ بأكمله، إلا أنني ذهبتُ الليلة الماضية بصحبة آل هودجز، على سبيل المزاح. ظلُّوا

يشاكسونني حتى ذهبت، إذ كانت بنصف الثمن. كما كنت عازمة على ألا يُقال إنني حبستَ نفسي بسبب رحيل تيلني. تصادف أننا جلسنا بجوار آل ميتشيل، وتظاهروا بأنهم فوجئوا بشدة عندما رأوا أنني خرجتُ، كنت أعرف حقدهم هذا. فيما مضى لم يكن يهمهم معاملتي بلطفٍ، لكنهم صاروا ودودين للغاية الآن، لكنني لستُ حمقاء حتى أنخدع فيهم. أنتِ تعرفين أنني أتمتَّع بروح التحدي. حاولتْ آن ميتشيل ارتداء عمامة مثل تلك التي ارتديتُها أنا منذ أسبوع في الحفل الموسيقي، لكنها لم تلائمها على الإطلاق. كانت تليق بشكل وجهي أنا على ما أعتقد، على الأقل هذا هو ما أخبرني به تيلني حينها، وقال إنَّ جميع الأعين مركزة عليَّ، لكنَّه آخر رجلٍ أثق بكلمته. لا أرتدي شيئًا سوى اللون الأرجواني الآن، وأعلم أنني أبدو بشعة به، لكن ذلك لا يهم، فهو اللون المفضل لشقيقكِ العزيز. لا تضيعي أيَّ وقتٍ، يا عزيزتي كاثرين، حتى تكتبي إليه، وإليَّ.

المخلصة لكِ للأبد.

لم يكن من الممكن أن تنطلي مثل هذه الحيلة الساذجة حتى على كاثرين، إذ أدركتْ التناقضات والتعارُض والأكاذيب بها منذ البداية. أحسَّت بالخجل من إيزابيلا، وبالخزي من أنَّها أحبَّتها على الإطلاق. باتت ادعاءاتها بالتعلُّق بها الآن مقززة، بقدر ما كانت أعذارها فارغة، ومطالبها وقحة. تكتب لجيمز نيابة عنها! لا، لن يسمعها جيمز تذكر اسم إيزابيلا مرة أخرى أبدًا.

عند وصول هنري من وودستون، أبلغته هو وإليانور بسلامة شقيقهما، وهنَّأتهما على ذلك بإخلاصٍ، كما قرأت لهما بصوتٍ مرتفعٍ الأجزاء الجوهرية من الرسالة بنبرة سخطٍ شديدٍ. عندما انتهت منها، صاحت قائلة:

- إنَّ إيزابيلا لا تستحق! ولا كل علاقتنا المقربة تستحق! لا بُدَّ وأنَّها تعتقد أنني حمقاء، وإلا لما كتبتْ هذا. لكن ربما يكون هذا ساعدني لأعرف طبيعة شخصيتها، أكثر مما تعرف هي طبيعتي أنا. أرى ما كانت تحاول فعله. إنها لعوبٍ عابثة، ولم تفلح حيلها. لا أعتقد أنَّها كانت تُكنُّ أي شعور لي أو لجيمز، وأتمنى لو أنني لم أعرفها قطُّ.

قال هنري:

- سرعان ما سيصبح الأمر كما لو أنكِ لم تعرفيها قطٌّ بالفعل.

- هناك شيءٌ واحدٌ فقط لا أستطيع أن أفهمه. أرى أنها كانت لديها مخططاتٌ بخصوص الكابتن تيلني، ولم تفلح فيها. لكنني لا أفهم ما الذي كان يقصده الكابتن تيلني طيلة هذه الفترة، ما الذي جعله يوليها كلَّ هذا الاهتمام حتى أثار الخلاف بينها وبين أخي، ثم يهرب؟

- ليس لديَّ الكثيرُ لأقوله بخصوص دوافع فريدريك، وما اعتقده عنها. لديه غروره هو الآخر، مثل الآنسة ثورب، والفارق الرئيس هو أنَّه يفوقها ذكاء، فلم يتأذَّى بعد من غروره هذا. لو كانت آثار سلوكه هذا لا تزكيه عندكِ، فمن الأفضل ألا نسعى وراء السبب.

- إذن فأنت تعتقد أنه لم يهتم بها حقًّا قطٌّ؟

- أنا على يقينٍ من أنَّه لم يفعل قطٌّ.

- وتظاهر بذلك فحسب لإثارة المتاعب؟

أومأ هنري ليبدي موافقته.

- حسنًا إذن، عليَّ القول بأنني لا أحبه على الإطلاق. على الرغم من أنَّ كلَّ شيء صار على ما يرام بالنسبة إلينا في نهاية الأمر، إلا أنني لا أحبه على الإطلاق. تصادف أنه لم يقع ضررٌ كبيرٌ، لأنني لا أعتقد أن إيزابيلا لديها أي قلب لتخسره. لكن لنفترض أنه جعلها تقع في حبِّه بشدة؟

- لكن علينا أن نفترض أولًا أنَّ إيزابيلا لديها قلبٌ لتخسره، وساعتها كانت ستصبح إنسانة مختلفة تمامًا، وبالتالي كانت ستلقى معاملة مختلفة تمامًا.

- من الصواب أن تقفَ في صف أخيكَ.

- ولو وقفتِ أنتِ في صف أخيكِ، لِمَا انزعجتِ لهذا الحد بسبب خيبة أمل الآنسة ثورب. لكن تفكيركِ متأثرٌ بدافعٍ من مبدأ فطري بالنزاهة العامة، بالتالي يصعب عليه التأثُّر بالمنطق الهادئ للتحيُّز الأسري، أو الرغبة في الانتقام.

أودت المجاملة بشعور كاثرين بالمرارة، ولم يعد من الممكن أن يبدو فريدريك مذنبًا من دون أي عذر، بينما هنري يتصرَّف بكل هذا اللطف. قررت عدم الرد على رسالة إيزابيلا، وحاولت ألا تنشغل بالتفكير فيها أكثر من ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 13 -

بعد ذلك بفترة قليلة، وجد الجنرال تيلني نفسه مضطرًّا للذهاب إلى لندن لمدة أسبوع، وغادر نورثانجر آسفًا بشدة لأي ضرورة ستحرمه ولو لساعة من صحبة الآنسة مورلاند، وأوصى ابنه وابنته بشدة أن تكون راحتها وتسليتها هي هدفهما الرئيس خلال غيابه. أعطى رحيله كاثرين أول قناعة مشتقة عن تجربة، بأنَّ الخسارة قد تكون ربحًا في بعض الأحيان. جعلتها السعادة التي مرَّت بها أوقاتهم الآن وكل عملٍ قاموا به طواعية، وكل ضحكة انغمسوا بها، وكل وجبة نعموا بها في راحة ومرحٍ، والتنزُّه حيث يشاؤون متى شاؤوا ذلك، وأوقاتهم وملذاتهم وتعبهم بإرادتهم، جعلها كل ذلك تعي بوضوحٍ القيودَ التي كان يفرضها وجود الجنرال، وكانت شاكرة للغاية لشعورها بالانعتاق منها في الوقت الحالي. دفعتها هذه الراحة وهذه المباهج لأن تزداد حبًّا للمكانِ وللأشخاص يومًا بعد يوم. ولولا تخوفها من اضطرارها عمَّا قريبٍ إلى الرحيل عن أولهما، ومن ألَّا تكون محبوبة بنفس القدرً من آخرهما، لنعمت بسعادة تامة في كلِ لحظة من اللحظات وفي كل يومِ من الأيام. إلَّا أنَّها كانت في الأسبوع الرابع من زيارتها الآن، وقبل عودة الجنرال إلى المنزل، سيكون الأسبوع الرابع قد انقضى، وربما يبدو تطفُّلًا منها في حال ما إذا بقيت لأكثر من ذلك. بدا التفكير في الموضوع مؤلمًا كلما أقدمت على ذلك، وأرادت هي التخلُّص من ذلك الأمر الذي يثقل ذهنها، فسرعان ما قررت التحدث إلى إليانور على الفور لتقترح رحيلها، كي تسترشد في سلوكها بالطريقة التي سيُقابل بها اقتراحها ذاك.

أدركت أنها إذا منحت نفسها الكثيرَ من الوقت، فقد تشعر بصعوبة في إثارة مثل ذلك الموضوع المزعج، فانتهزت أول فرصة عندما انفردت مع إليانور فجأة، بينما كانت إليانور في منتصف خطاب حول موضوع مختلف تمامًا، وشرعت هي في الحديث عن اضطرارها إلى الرحيل قريبًا. نظرت إليها إليانور وأبدت قلقَها البالغ. كانت تأمل في الاستمتاع بصحبتها لفترة أطول كثيرًا، وربما أساءت الفهم (بدافعٍ من أمنياتها) ودفعها ذلك للاعتقاد بأنَّ كاثرين وعدت بزيارة أطول كثيرًا. ولم يسعها سوى الاعتقاد بأنَّ السيد والسيدة مورلاند لو أدركا المتعةَ التي تستمدها إليانور من وجود كاثرين، لمنعهما كرمهما من تعجُّل عودتها. أوضحت لها إليانور كلَّ ذلك، فقالت كاثرين:

- أوه! فيما يتعلَّق بذلك، فإنَّ أمي وأبي ليسا في أي عجلة على الإطلاق. طالما كنتُ أنا سعيدة، سيشعران بالرضا على الدوام.

- لمَ إذن، إذا سمحتِ لي بالسؤال، ترغبين أنتِ في الرحيل بهذه السرعة؟

- أوه! لأنني بقيتُ هنا لفترة طويلة للغاية.

- لا، طالما بوسعكِ استخدام مثل هذه الكلمة، فلا أستطيع أن أحثكِ أكثر من ذلك. ما دمتِ تعتقدين أنها فترة طويلة للغاية...

- أوه! لا! لا أعتقد ذلك حقًّا. يسعدني أن أمدَّ إقامتي معكم لفترة تضاهي هذه الماضية.

فاتفقتا على الفور أنهما لن تفكرا حتى في رحيلها مرة ثانية، حتى تفعل. بعد أن تخلصت على هذا النحو اللطيف من سبب قلقها ذاك، ضعفت أيضًا قوة سبب قلقها الآخر. كان لطف وكرم إيزابيلا في أسلوبها الذي ألحَّت به على كاثرين بالبقاء، ونظرة هنري الممتنة عند إخباره أنَّ موضوع إقامتها قد تحدد، براهين لطيفة على أهميتها لديهما، ولم تخلف لديها همًّا سوى القدر المعتاد الذي لا يمكن للعقل البشري التخلص منه أبدًا. كانت على قناعة، في معظم الوقت تقريبًا، بأن هنري يحبها، وتؤمن دومًا بأن والده وشقيقته يحبانها، بل وأنهما يريدانها أن تصير واحدة منهم. وبسبب اعتقادها هذا، لم تعد شكوكها ومخاوفها سوى مجرد هواجس تافهة.

لم يستطع هنري الانصياع لأوامر والده بالبقاء طوال الوقت في نورثانجر للعناية بالسيدتين خلال غيابه في لندن، إذ اضطرته ارتباطاته ككاهنٍ في وودستون إلى تركهما في يوم السبت، لمدة يومين. لم تكن خسارته الآن مثلما كان الأمر في وجود الجنرال، حيث قلَّل رحيله من فرحتِهما، لكنَّه لم ينتقص من راحتهما. وبما أن الفتاتين كانتا متوافقتين في الاهتمامات، وازداد تقاربهما، فقد وجدتا نفسيهما قانعتين بالبقاء وحدهما في الوقت الحالي، حتى إنَّ الساعة دقَّت الحادية عشرة، وهو وقتٌ متأخرٌ إلى حدٍّ ما في الدير، قبل أن تغادرا الغرفة التي تناولتا فيها العشاء في يوم رحيل هنري. كانتا قد وصلتا للتوِّ لقمة الدرج، عندما بدا لهما، بقدر ما سمحت لهما الجدران السميكة بالتمييز، أنَّ هناك عربة تقترب من الباب. وقد تأكد ذلك في اللحظة التالية، عندما علا صوت جرس المنزل. بعد أن زال اضطرابهما الأول الناتج عن المفاجأة، الذي دفعهما للتعجُّب: «يا إلهي! ترى ما الأمر؟»، سرعان ما قررت إليانور أنه لا بُدَّ وأن يكون شقيقها الأكبر، الذي كان عادة ما يصل في أوقاتٍ مفاجئة، وإن لم تكن غير ملائمة على هذا النحو. بناء على ذلك، أسرعت للنزول والترحيب به.

توجَّهت كاثرين إلى غرفتِها، وعزمت بقدر استطاعتها على التعرُّف بشكلٍ أفضل على الكابتن تيلني، وهي تواسي نفسها بأنَّه في ظل الانطباع السيئ الذي خلَّفه لديها سلوكه، وقناعتها بأنه سيدٌ له ذوقٌ يصعب إرضاءه لدرجة لن تحوز معها بقبوله، إلا أنهما على الأقل لن يلتقيا في ظروفٍ تجعل مقابلتهما مؤلمة بشكلٍ ملموس. كانت على ثقة من أنه لن يأتي على ذكر الآنسة ثورب. بل في الواقع، حيث لا بُدَّ وأنَّه صار يشعر بالخجل من الدور الذي لعبه، فلا يمكن أن يكون هناك أيُّ خطرٍ من ذلك، وطالما التزما بتجنُّب ذكر أي شيء عن باث، اعتقدتْ أنها بوسعها التصرُّف معه على نحوٍ لائقٍ للغاية. مرَّ الوقت وهي منشغلة بأفكارها هذه، وبالتأكيد كان في صالحه أنَّ إليانور بدت سعيدة للقائه لهذه الدرجة، وأنها كان لديها كل هذا القدر من الحديث لتخبره به، إذ إنَّ نصف ساعة تقريبًا انقضت منذ وصوله، من دون أن تأتي إليانور بعد.

في تلك اللحظة، ظنَّت كاثرين أنها سمعت وقعَ خطواتها في الرواق، وأصاخت السمع لتتابعها، إلَّا أنَّ السكون عمَّ كلَّ شيء. مع ذلك، ما كادت تقتنع بخطأ تخيلاتها، حتى جفلت بفعل صوت شيء يتحرك عند الباب. بدا كأنَّ أحدَهم يلمس مدخل الباب نفسه، وخلال لحظة أخرى، أثبتت حركة المقبض البسيطة أنه لا بُدَّ وأن تكون هناك يدٌ تعلوه. ارتعدت بعض الشيء من فكرة اقتراب أي شخص بهذا الحذر الشديد، لكنها عقدتْ العزم على ألا تسمح للمظاهر التافهة الباعثة على الاضطراب بالتغلُّب عليها مرة أخرى، وعلى عدم الانسياق وراء الخيالات. تقدَّمت للأمام بهدوءٍ، وفتحت الباب. كانت إليانور فحسب واقفة هناك. مع ذلك، لم تهدأ كاثرين سوى للحظة، إذ كانت وجنتا إليانور شاحبتين،

وسلوكها يغلب عليه الاضطراب الشديد. وعلى الرغم من أنه بدا من الواضح أنها تنتوي الدخول، إلا أنَّها بدت كأنَّها تواجه صعوبة في ولوج الغرفة، وصعوبة أكبر في الحديث بعد أن ولجتها. افترضت كاثرين أنَّ هناك شيئًا من الانزعاج بسبب الكابتن تيلني، ولم تستطع التعبير عن قلقِها سوى من خلال الانتباه الصامت. أجبرت إليانور على الجلوس، ودلَّكت لها صدغيها بماء اللافندر، ووقفت بجوارها بقلقٍ ومحبة. كانت الكلمات الأولى المترابطة التي نطقت بها إليانور هي:

- يا عزيزتي كاثرين، لا يجب عليكِ هذا. لا يجب عليكِ هذا بالفعل. أنا بخيرٍ تمامًا. لطفكِ هذا يشتتني. لا أستطيع تحمُّله، وقد جئتُ إليكِ في مثل هذه المهمة!

- مهمة! لي أنا!

- كيف أخبركِ بالأمر! أوه، كيف أخبركِ بالأمر!

حينها انبثقت فكرة جديدة في ذهن كاثرين، وشحبت فجأة مثل صديقتها، وهي تقول:

- إنه رسولٌ من وودستون!

أجابتها إليانور، وهي تنظر إليها بشفقة بالغة:

- أنتِ مخطئة بالفعل، لم يصل أحدٌ من وودستون. إنَّه والدي بنفسِه.

تلعثم صوتُها، وخفضت عينيها نحو الأرض حين ذكرت اسمه. كانت عودته غير المتوقعة كافية في حدِّ ذاتها لتجعل قلب كاثرين يمتلئ بخيبة الأمل. ولبضع لحظات، لم تتخيل أنه يمكن أن يُقال ما هو أسوأ من ذلك. لم تقل شيئًا، وحاولت إليانور أن تتمالك نفسها وتتكلم بثباتٍ، لكن كانت عيناها لا تزالان ثابتتين نحو الأسفل عندما واصلت حديثَها بعد قليل.

- أنا على يقين من أنكِ ألطف كثيرًا من أن تسيئي الظن بي، للدور الذي أجدني مضطرة لأدائه. أنا حقًّا رسولٌ كارهٌ لمهمته. بعد كل ما حدث مؤخرًا، وكل ما اتفقنا عليه مؤخرًا -وكم سعدتُ لذلك وشعرتُ بالامتنان له!- بشأن بقائكِ معنا كما تمنيتُ، لأسابيع كثيرة، كيف يسعني إخباركِ أنني لا أستطيع قبول كرمكِ، وأن السعادة التي منحتِها لنا بصحبتكِ السابقة سيقابلها... لكن لا يجب أن أدع نفسي أنجر في الحديث. يا عزيزتي كاثرين، سنضطر أن نفترق. لقد تذكر والدي ارتباطًا يستدعي غيابَ أسرتنا بأكملها في يوم الاثنين. سنذهب إلى لورد لونجتاون، بالقرب من هيرفورد، لمدة أسبوعين. التفسير والاعتذار مستحيلان بنفس القدر. لا يمكنني أن أحاول تقديم أي منهما.

صاحت كاثرين وهي تكتم مشاعرها قدر استطاعتها:

- يا عزيزتي إليانور، لا تنزعجي لهذا الحد. لا بُدَّ وأن يفسح الارتباط الثاني المجال للالتزام بالارتباط السابق له. أنا آسفة جدًّا جدًّا لأننا سنفترق سريعًا هكذا، وعلى هذا النحو المفاجئ أيضًا. لكنني لستُ مستاءة، حقًّا لستُ مستاءة. يمكنني استكمال زيارتي هنا في أي وقتٍ، كما تعلمين، أو آمل أن تأتي أنتِ لزيارتي. هل يمكنكِ القدوم إلى فولرتون، بعد عودتكِ من زيارة هذا اللورد؟

- لن يكون بوسعي ذلك، يا كاثرين.

- إذن فلتأتِ عندما تستطيعين.

لم تحر إليانور جوابًا، وما لبثت أفكار كاثرين أن انشغلت بشيء أهم، فأضافت قائلة وهي تفكر بصوتٍ مرتفعٍ:

- الاثنين. إذن بحلول الاثنين، ستذهبون جميعًا. حسنًا، أنا على يقين من... سأتمكن من توديعكم على أي حالٍ. لا حاجة بي للرحيل إلَّا قبيل رحيلكم أنتم مباشرة. لا تحزني يا إليانور، يمكنني الرحيل في يوم الاثنين. لا يهم لو لم يعرف والدي ووالدتي بوصولي قبلها بفترة كافية. أعتقد أنَّ الجنرال سوف يرسل معي خادمة حتى منتصف الطريق، وبعدها سرعان ما سأصل إلى سالزبوري، حيث سأكون على بُعد تسعة أميال فحسب من المنزل.

- آه، يا كاثرين! لو أنَّ الأمور تمَّت تسويتها على هذا النحو، لصار الأمر أكثر احتمالًا إلى حدٍّ ما، على الرغم من أنكِ لو حصلتِ على مثل ذلك الاهتمام العادي، لنلتِ أقل حتى من نصف ما تستحقينه. لكن... كيف يمكنني إخباركِ؟ لقد تحدد موعد مغادرتكِ في صباح الغد، ولم يُترك لكِ حتى اختيار الوقت، وقد تم طلب عربة، ستصل هنا في السابعة، ولن ترافقكِ خادمة.

جلست كاثرين لاهثة، عاجزة عن الحديث. واصلت إليانور قائلة:

- لم أكد أصدق حواسي عندما سمعتُ الأمر. ولا يمكن أن يكون أي قدر من الاستياء أو الغضب الذي تشعرين به هذه اللحظة، مهما تعاظم، يضاهي قدرَ ما أستشعره أنا. لكن لا يجب عليَّ الحديث عن مشاعري أنا. أوه! لو كان بوسعي فحسب قول أي شيء للتخفيف من الأمر. يا إلهي! ما الذي سيقوله والدكِ ووالدتكِ! بعد أن تودَّدنا إليكِ حتى أتينا بكِ من حماية الأصدقاء الحقيقيين إلى هذا المكان، الذي يبعد ضعف المسافة تقريبًا عن منزلكِ، لينتهي الأمر بطردكِ من المنزل، من دون مراعاة حتى لاعتبارات الكياسة واللياقة! يا عزيزتي كاثرين، نظرًا لكوني حاملة مثل هذه الرسالة، لذا فإنني أبدو كأنني أنا الأخرى مذنبة بتوجيه كل الإهانة التي تنطوي عليها، ومع ذلك، فأنا على ثقة بأنكِ ستبرئين ساحتي، فلا بُدَّ وأنكِ قضيتِ في هذا المنزل ما يكفي من الوقت لتعلمي أنني لستُ سيدته سوى بالاسم فحسب، وأنني لا أتمتع بأي سلطة فعلية.

قالت كاثرين بصوتٍ متلعثمٍ:

- هل أثرتُ استياء الجنرال؟

- وا أسفاه! مراعاة لشعوري كابنة، فإن كل ما أعرفه، وكل ما أستطيع أن أجيبكِ به، هو أنكِ لا يمكن وأن تكوني قد منحتِه سببًا يبرر شعوره بالاستياء. إنَّه منزعجٌ بشدة، أيما انزعاج. نادرًا ما رأيته في حالة كهذه. مزاجه متعكر، وقد حدث شيءٌ ما أثاره بدرجة غير عادية. خيبة أمل أو ضيق ما، يبدو أنَّ له أهمية في هذه اللحظة، لكنني بالكاد أستطيع افتراض أن لكِ أي شأن بالأمر، إذ كيف يمكن أن يكون ذلك؟

تمكَّنت كاثرين من الحديث بصعوبة لفرط شعورها بالألم، لكنها حاولت من أجل إليانور فحسب. قالت:

- أنا آسفة جدًّا، بكل تأكيدٍ، لو كنتَ قد أثرتَ استياءه. هذا هو آخر شيء يمكنني الإقدام عليه عامدة. لكن لا تحزني، يا إليانور. لا بُدَّ من الحفاظ على ذلك الارتباط المسبق الذي تعلمينه. لا يؤسفني سوى أنه لم يتم تذكره في وقتٍ سابقٍ، كي أتمكَّن من إرسال رسالة لأسرتي. لكن الأمر لا يهم كثيرًا.

- آمل بإخلاصٍ ألَّا يهم فيما يتعلَّق بسلامتكِ الفعلية، لكنه يهم كثيرًا للغاية، فيما يتعلَّق بكلِّ شيءٍ آخر: براحتكِ، ومظهركِ، وباللياقة، وبأسرتكِ، وبالعالم بأسره. في حال ما إذا كان أصدقاؤكِ، آل ألين، لا يزالان في باث، لأمكن حينها أن تذهبي إليهما بسهولة نسبية، إذ يمكنكِ الوصول هناك خلال بضع ساعات. لكن أن تذهبي في رحلة طولها سبعون ميلًا، تبدِّلين خلالها العربة التي تستقلينها عدة مرات في عديدٍ من النزل، في سنكِ هذا، بمفردك، من دون وجود من يرافقكِ!

- أوه، إنَّ الرحلة لا تمثِّل شيئًا ذا بال. لا تنشغلي بالتفكير في ذلك. وطالما أننا سنفترق، فإن بضع ساعاتٍ تزيد أو تنقص، لا تشكِّل أيَّ فارق كما تعلمين. يمكنني أن أكون جاهزة بحلول الساعة السابعة. ليستدعيني أحدهم في الوقت المناسب.

رأت إليانور أنها تريد الانفراد بنفسها، وكانت تعتقد أنه من الأفضل لكليهما تجنب المزيد من الحديث، فغادرتها قائلة:

- سأراكِ في الصباح.

كان قلب كاثرين الذي يفيض بالمشاعر بحاجة للراحة. في وجود إليانور، أجبرتها كلٌّ من صداقتها لها وكرامتها بنفس القدر، على كبح دموعها. لكن ما إن رحلت إليانور، حتى انفجرت دموعها سيولًا. أن تُطرد من المنزل، وعلى هذا النحو! من دون أي سبب يبرر الموقف، أو أي اعتذار من شأنه أن يخفف من المفاجأة والفظاظة، بل حتى وقاحة الأمر! وكان هنري بعيدًا، ولن تتمكَّن حتى من أن تودعه. كل آمالها، وكل توقعاتها حياله، صارت معلَّقة على أقل تقدير، ومن بوسعه القول إلى متى؟ من بوسعه القول متى قد يلتقيان ثانية؟ وكل هذا بفعل رجلٍ مثل الجنرال تيلني، الذي كان لطيفًا للغاية ومهذبًا جدًّا، ويميل إليها بشدة في السابق! كان الأمرُ غيرَ مفهوم، بقدر ما كان مهينًا ومؤلمًا. كانت الأسباب التي ربما تكون كامنة وراء ذلك، والكيفية التي ستؤول إليها الأمور، كلها تساؤلات تتساوى في الارتباك والقلق الذي تبعث عليه. كما كانت الكيفية التي تمَّ بها الأمر فظَّة لأقصى حدٍّ: التعجيل برحيلِها من دون استشارتها إطلاقًا فيما يلائمها، أو حتى التظاهر بإتاحة أدنى قدرٍ من الاختيار لها فيما يتعلَّق بتوقيت وطريقة سفرها، كما تمَّ تحديد أقرب يوم من بين اليومين المتَاحين، إلى جانب اختيار أكثر وقت مبكرٍ في ذلك اليوم، كما لو كان عازمًا على رحيلها قبل استيقاظه هو في الصباح، كي لا يضطر حتى إلى رؤيتها. ما الذي يمكن أن يعنيه كل هذا، سوى أنه إهانة متعمدة؟ لا بُدَّ وأن تكون تعرَّضت لسوء الحظ الذي أدى بها لإثارة استيائه بطريقة أو بأخرى. أرادت إليانور أن تجنِّبها مثل هذا التفكير المؤلم، لكن كاثرين لم تقتنع أنه من الممكن أن تؤدي أي إساءة أو سوء حظٍّ لإثارة الغضب على هذا النحو حيال شخص ليست له علاقة بالأمر، أو على الأقل من المفترض ألا تكون له علاقة. مرَّت عليها ليلة ثقيلة، وكان النوم، أو الراحة التي يمكن أن يُطلق عليها مسمَّى النوم، أمرًا غير واردٍ. تلك الغرفة التي عذَّبها فيها خيالُها المضطرب عند وصولها لأول مرة، عادت لتصير مرة أخرى مشهدًا لروحها المكروبة ولسهادها. مع ذلك، لكَمْ يختلف مصدر قلقها الآن، عمَّا كان عليه

آنذاك، ولكم يفوقه على نحوٍ حزينٍ من ناحية الواقع والمضمون! كان لقلقها أساس في الواقع، ولمخاوفها أساس محتمل، ومع انشغال عقلها لهذا الحدِّ في تأمُّل الشرور الفعلية والطبيعية، فقد أحسَّت بوحدتِها وظلام غرفتها وقِدَم المبنى من دون أن يثير ذلك فيها أدنى عاطفة. وعلى الرغم من أن الريح كانت شديدة، وكثيرًا ما كانت تصدر أصواتًا غريبة مفاجئة تتردد خلال المنزل، إلا أنها سمعت كل ذلك وهي مستلقية ساعة وراء الأخرى، من دون فضولٍ أو خوفٍ.

بعدها بفترة وجيزة، ولِجت إليانور الغرفة، وهي حريصة على إظهار الاهتمام وتقديم العون حيثما أمكن، لكن لم يبقَ سوى القليل مما يتوجَّب إنجازه. لم تتلكأ كاثرين. كانت قد أوشكت على الانتهاء من ارتداء ملابسها، كما انتهت تقريبًا من حزم أمتعتها. خطر لها احتمال وجود رسالة من الجنرال لمصالحتها، عندما ظهرت ابنته. ألم يكن من الطبيعي أن ينقضي الغضب، ويستشعر المرء بعده الندم؟ أرادت أن تعرف فحسب إلى أي مدى -بعد كل ما حدث- يمكنها أن تتقبَّل الاعتذار على نحوٍ لائقٍ. لكن معرفتها تلك كانت ستصبح من دون جدوى هنا، فلم تحتاج إلى ذلك، ولم تخضع رأفتها ولا كرامتها للاختبار، إذ لم تجلب إليانور أيَّ رسالة. لم تتحدَّثا كثيرًا عند لقائهما. وجدت كلٌّ منهما ملاذها في الصمت، وكانت العبارات المتبادلة بينهما بالطابق العلوي قليلة وغير ذات أهمية. أكملت كاثرين ارتداء ملابسها بهمَّة واضطرابٍ، بينما عزمت إليانور بحسن نيَّة على حزم أمتعتها رغم قلة خبرتها في ذلك المجال. غادرتا الغرفة عند الانتهاء من كل شيء، وتخلَّفت كاثرين عن صديقتِها لنصف دقيقة فحسب، لتلقي بنظرة وداع على كل الأشياء العزيزة المألوفة، ثم نزلت إلى غرفة الطعام حيث كان الإفطار معدًّا. حاولت تناول الطعام، كي توفر على نفسها ألم حثِّ صديقتها لها، وكي تريح صديقتها، لكنها كانت تفتقر إلى الشهية، ولم تتمكَّن من ابتلاع الكثير. أثار فيها التناقض بين هذا الإفطار، والإفطار الأخير الذي تناولته في هذه الغرفة، الشعورَ بالبؤس من جديدٍ، وزاد من نفورها من كل ما أمامها من طعام. لم تنقضِ أربع وعشرون ساعة منذ لقائهما هنا لنفس الوجبة، لكن كم كانت الظروف مختلفة! كم كانت تشعر بالارتياح والبهجة، وكم كانت سعيدة وهي تنعم بالأمان، وإن كان زائفًا، وهي تتلفَّت حولها مستمتعة بكل ما حولها في الحاضر، ولا تخشى شيئًا من المستقبل، أكثر من رحيل هنري ليذهب إلى وودستون لمدة يوم! يا له من إفطارٍ سعيدٍ، بالغ السعادة! إذ كان هنري هناك، جالسًا بجوارها، يعاونها. استغرقت في هذه التأمُّلات لفترة طويلة، من دون أن يزعجها أي حديثٍ من رفيقتها، التي كانت مستغرقة في التفكير مثلها هي الأخرى. كان حضور العربة هو أول شيء فاجأهما، وأعادهما للحظة الراهنة. تخضَّب وجه كاثرين لمرآها، وطرأ على ذهنها في تلك اللحظة بقوة شديدة مدى الإهانة التي عوملت بها، مما جعلها لا تشعر بشيءٍ سوى الغضب لفترة وجيزة. بدت إليانور الآن مندفعة إلى التصرُّف والحديث.

صاحت قائلة:

- يجب أن تكتبي لي يا كاثرين. يجب أن أسمع منكِ في أقرب فرصة ممكنة. لن أنعم بلحظة راحة، حتى أعرف أنكِ بأمانٍ في منزلكِ. عليَّ أن أترجَّى منكِ رسالة واحدة، رغم جميع المجازفات والمخاطر. دعيني أشعر بالارتياح لمعرفة أنكِ في فولرتون، وأنكِ وجدتِ أسرتكِ بخيرٍ، وبعدها، إلى أن أتمكَّن من طلب مراسلتكِ كما ينبغي، لن أتوقع المزيد. أرسلي لي على عنوان اللورد لونجتاون، ويجب أن أطلب منكِ إرسالها تحت اسم أليس.

- لا، يا إليانور. إذا لم يكن مسموحًا لكِ بتلقي رسائل مني، فأنا على ثقة بأنّه من الأفضل ألا أكتب لكِ. لا يمكن أن يكون هناك شكٌّ في وصولي إلى المنزل سالمة.

أجابت إليانور قائلة:

- لا أستطيع أن أستغرب مشاعركِ هذه. لن ألحَّ عليكِ. سأضع ثقتي في كرم قلبكِ، عندما أصير بعيدة عنكِ.

كان حديثها هذا، مع نظرة الحزن المصاحبة له، كافيًا لإذابة كبرياء كاثرين في لحظة، وقالت على الفور:

- أوه، يا إليانور، بالطبع سوف أكتبُ لكِ.

كانت هناك نقطة أخرى، حرصت الآنسة تيلني على حلِّها، رغم أنَّها تحرَّجت إلى حدٍّ ما من الحديث في الموضوع. خطر ببالِها أنَّ كاثرين قد لا يكون بحوزتها المال الكافي لتغطية نفقات رحلتها، بعد غيابها عن المنزل لفترة طويلة لهذا الحدِّ. وبعد أن اقترحت عليها الأمر، مع العرض بمساعدتِها بأقصى درجات المودة، ثبت أنَّ ذلك صحيحٌ تمامًا. لم تفكر كاثرين بذلك الموضوع حتى هذه اللحظة، لكن عندما تفحَّصت حقيبتها، اقتنعت أنه لولا هذا اللطف الذي أبدته صديقتها، لكان من الممكن أن تُطرد من المنزل من دون أن يكون معها حتى ما يعينها على العودة إلى منزلها. امتلأ ذهن كلٍّ منهما بالكرب الذي كانت ستتعرَّض له حتمًا ساعتها، فلم تنطق أيٌّ منهما بكلمة تقريبًا خلال وقتهما الباقي معًا. مع ذلك، كان هذا الوقت قصيرًا، إذ سرعان ما أُعلِن جاهزية العربة للانطلاق. نهضت كاثرين على الفور، وحلَّ عناقٌ طويلٌ حنونٌ محلَّ اللغة في وداع بعضهما لبعضٍ. وعند دخولهما الردهة، لم تستطع مغادرة المنزل من دون ذكر ذلك الشخص الذي لم تنطق أيٌّ منهما باسمه حتى الآن، فصمتت للحظة، وبشفتين مرتعشتين أوضحت بالكاد أنها «تترك ألطف تحياتها لصديقها الغائب». لكن مع ذكره على هذا النحو، انتهت كلُّ قدرتها على كبح مشاعرها، فأخفت وجهها قدر استطاعتها بمنديلها، ثم اندفعت عبر الردهة، وقفزت إلى العربة، وفي لحظة ابتعدت عن الباب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 14 -

غلب على كاثرين الشعور بالبؤس، بدرجة أكبر من أن تشعر معها بالخوف. لم تكن الرحلة في حدٍّ ذاتها تحمل لها أيَّ مخاوف، وبدأتها من دون أن تخشى طولها ولا الشعور بالوحدة خلالها. استندت إلى الخلف في إحدى زوايا العربة، وانفجرت في نوبة عنيفة من الدموع، وابتعدت عدة أميال عن جدران الدير قبل أن ترفع رأسَها. كادت أعلى نقطة من الأراضي داخل المنتزه تختفي عن ناظريها، قبل أن تتمكَّن من توجيه عينيها نحوها. لسوء الحظ، كان الطريق الذي تسافر عبره الآن هو نفسه الذي قطعته منذ عشرة أيام فحسب بسعادة بالغة، في ذهابها وإيابها من وودستون. ولمسافة أربعة عشر ميلًا، صار كلُّ شعورٍ مريرٍ أكثر حدَّة عند رؤيتها لتلك الأشياء التي طالعتها لأول مرة بمشاعر مختلفة تمامًا. مع كل ميلٍ تقتربه من وودستون، كان عذابُها يزداد، وعندما صارت على بعد خمسة أميال منه، مرَّت بالمنعطف المؤدي إليه وفكَّرت في هنري، الذي كان قريبًا جدًّا، ومع ذلك لا يدري بأنَّ حزنَها واضطرابَها فائقان.

كان اليوم الذي قضته في ذلك المكان واحدًا من أسعد أيام حياتها. هناك، في ذلك اليوم، لجأ الجنرال لاستخدام تعبيراتٍ فيما يخصُّها هي وهنري، وتحدَّث وبدا كأنَّه يعطيها أقصى انطباعٍ إيجابيٍّ بأنَّه يرغب في زواجهما بالفعل. أجل، قبل عشرة أيام فحسب، أثار ابتهاجها باهتمامِه الواضح، بل إنه حتى أثار ارتباكَها بإشاراته المحددة للغاية! والآن، ما الذي فعلته، أو ما الذي أغفلت فعله، حتى تستحق مثل هذا التغيير؟

لم يكن من الممكن أن يصل إلى علمِه تلك الجريمة الوحيدة التي يمكنها اتهام نفسها بارتكابها ضده. كان قلبُها هي وهنري فقط على اطلاع بتلك الشكوك الصادمة التي راودتها من دون سببٍ، وكانت على قناعة أن سرَّها بمأمنٍ مع كليهما. لم يكن من الممكن أن يخونها هنري، على الأقل ليس عن عمدٍ. في الواقع، لو كان قد نما إلى علم والده، من خلال أي حادثٍ غريبٍ، ما تجرَّأت على التفكير فيه والبحث عنه، ولو علم بأوهامِها التي لا مبرر لها وأسئلتها الطاعنة به، فلم يكن لها أن تتعجب حينها من مقدار سخطه. لو علم أنَّها كانت تنظر إليه بوصفه قاتلًا، فلا يمكنها التعجُّب حتى من قيامه بطردِها من منزله. لكنها كانت على يقينٍ من أن هنري لم يكن في مقدوره الإقدام على مثل ذلك الفعل المليء بالعذاب لها.

على الرغم من قلقها بسبب كل تخميناتها بخصوص هذه النقطة، إلَّا أنَّها مع ذلك لم تكن النقطة التي ركزت عليها أكثر من غيرها، كانت هناك فكرة أقرب وأكثر إلحاحًا، وأكثر إثارة للقلق. كان السؤال الأقوى والأكثر إثارة للاهتمام، المتقدم عن أي سؤالٍ غيره، الذي تردَّد على نحوٍ لا ينقطع، يثير انزعاجها ويهدئها بالتناوب، هو ما الذي سيفكر فيه هنري، وكيف سيشعر؟ وكيف سيبدو عند عودته إلى نورثانجر في الغد، حينما يسمع عن رحيلها؟ أحيانًا كانت تفكر بخوفٍ أنه سوف يذعن في هدوءٍ، وفي أحيان أخرى كانت تجيب تساؤلاتها تلك بثقة عذبة في أسفِه واستيائِه. لن يجرؤ بالطبع على الحديث مع الجنرال، لكن مع إليانور... هل كان هناك ما لا يمكنه أن يقوله لإليانور عنها؟ وسط هذا التكرار المتواصل للشكوك والتساؤلات حول الموضوع الذي لم يستطع عقلُها أن يأخذ منه راحة لأكثر من لحظاتٍ، مرَّت الساعات، وتقدَّمت في رحلتها بأسرع مما كانت تطلَّع إليه. رغم قلق الأفكار

الملحَّة التي منعتها من ملاحظة أي شيء أمامها ما إن تجاوزت وودستون، إلا أنّها أنقذتها في نفس الوقت من مراقبة تقدُّم رحلتها، وعلى الرغم من عدم وجود أي شيء على الطريق يمكن أن يثير الاهتمام ولو للحظة، إلا أنها لم تجد أي مرحلة منه مثيرة للضجر. منعها سببٌ آخر أيضًا من مراقبة الطريق، وهو عدم شعورها بأي حماسٍ للوصول لنهاية رحلتها. إذ إنَّ عودتها بهذه الطريقة إلى فولرتون كانت تعني تقريبًا القضاء على متعة لقائها بمن تحب، حتى بعد غياب مثل غيابها هذا، لمدة أحد عشر أسبوعًا. ما الذي يمكنها قوله، بحيث لا تذل نفسها وتؤلم أسرتها، ولا تضاعف من شعورها هي بالحزن أثناء اعترافها، وتزيد من الاستياء الذي لا جدوى منه، وربما تتسبب في تورط الأبرياء مع المذنب في ضغينة لا تميز بين أحدٍ؟ لن تستطيع أبدًا أن تفي فضائل هنري وإليانور حقها، إذ أحسَّت أنَّها تفوق الكلمات، وفي حال ما إذا ثارت ضدهما أي كراهية، وإذا أسيء الظن بهما بسبب والدهما، فسيمزق ذلك نياط قلبها.

بهذه المشاعر، كانت تخشى اللمحات الأولى من ذلك البرج المدبب المعروف، الذي سيعني كونها باتت على بُعد عشرين ميلًا من منزلها، بدلًا من التطلُّع لرؤيته. كانت تعلم أن سالزبوري هي النقطة التي عليها أن تقصدها بعد رحيلها من نورثانجر، لكن بعد المرحلة الأولى، صارت مدينة لمديري مكاتب البريد ([23]) بأسماء الأماكن التي ستقودها إليها بعد ذلك، إذ كانت شديدة الجهل بمسار رحلتها. مع ذلك، لم يقابلها ما يزعجها أو يخيفها. نالت كلَّ الاهتمام الذي يمكن أن تحتاجه مسافرة مثلها، بسبب صغر سنها وسلوكها المهذب وكرمها المادي. لم تتوقف سوى لتبديل الخيول، وسافرت لمدة إحدى عشرة ساعة تقريبًا، من دون حادث أو ما يثير القلق، حتى وجدت نفسها تدخل فولرتون ما بين الساعة السادسة والسابعة مساء.

إنَّ عودة البطلة إلى مسقط رأسها، عند نهاية مسيرتها، مكلَّلة بالنصر بعد استعادة سمعتها، بكلِّ وقار الكونتيسة، وخلفها صفٌّ طويلٌ من أقاربها في عرباتِهم المفتوحة، وثلاث خادمات في عربة تجرُّها أربعة خيولٍ، لهو حادثٌ يسعد به قلم الكاتبة، ويضفي الفخرَ على كلِّ خاتمة، وعلى الكاتبة أن تنال نصيبَها من المجد الذي تمنحه بكرمٍ على هذا النحو. إلَّا أنَّ حكايتي أنا تختلف اختلافًا شاسعًا، إذ إنَّني أُعيد بطلتي إلى منزلها بمفردِها، يلفُّها الخزي، ولا توجد أيُّ بهجة تدفعني للخوض في التفاصيل. إنَّ بطلة تركب عربة بريد مؤجَّرة لهي بمثابة ضربة قاصمة للمشاعر، لا يمكن أن تصمد أمامها أيُّ محاولة لإضفاء المهابة أو إثارة الشفقة.

لكن أيًّا كان الألم الذي يعتصر ذهن كاثرين، بينما هي تتقدَّم من منزل الكاهن على هذا الحال، وبصرف النظر عن العار الذي تستشعره كاتبة سيرتها الذاتية وهي تروي هذه الأحداث، إلَّا أنَّها كانت تُعِدُّ متعة غير عادية لأولئك الذين عادت إليهم، بظهور عربتها أولًا، وبنفسها ثانيًا. بما أنَّ عربة المسافرين كانت مشهدًا نادرًا في فولرتون، سرعان ما صارت الأسرة بأكملِها تقف خلف النافذة، وكان توقُّفها عند بوابة المنزل مشهدًا يسرُّ كل عينٍ، ويسكن كل خيالٍ. كانت متعة لا يتوقعها أحدٌ، سوى أصغر طفلين، صبي وفتاة في السادسة والرابعة من العمر، كانا يتوقعان أخًا أو أختًا في أي عربة قادمة. ما أسعد العين التي ميَّزت كاثرين قبل غيرها! وما أسعد الصوت الذي أعلن ذلك الاكتشاف! لكن لم يتمكَّن أحدٌ أبدًا من تحديد ما إذا كانت هذه السعادة من حق جورج أم هارييت.

تجمَّع والدُها ووالدتها، وسارة وجورج وهارييت، جميعهم أمام الباب، ليرحبوا بها بحنانٍ وتلهُّفٍ، وقد أيقظ منظرهم في قلب كاثرين أجملَ المشاعر، وعندما ترجَّلت من العربة وعانقت كُلًّا منهم، وجدت ألمُها قد خفَّ بدرجة فاقت كل توقعاتها. أحاطوا بها وعانقوها، حتى إنها أحسَّت بالسعادة! في خضم بهجة الحب العائلي، خفت كلُّ شيء آخر لفترة وجيزة. لم تدع سعادتهم لرؤيتها في بادئ الأمر مجالًا للفضول، وجلس الجميع حول مائدة الشاي التي أعدَّتها السيدة مورلاند على عجلٍ من أجل راحة المسافرة المسكينة، والتي سرعان ما تنبَّهت لملامحها الشاحبة المنهكة، قبل توجيه أي أسئلة مباشرة لها تتطلَّب إجاباتٍ محددة.

على مضضٍ، وبتردُّدٍ بالغ، شرعت في تقديم ما يمكن أن يطلق عليه مستمعوها من باب المجاملة بعد نهاية نصف ساعة «تفسيرًا». لكنهم تمكَّنوا بالكاد خلال ذلك الوقت من فهم السبب أو الإلمام بالتفاصيل المتعلقة بعودتها المفاجئة. كانوا أبعد ما يكون عن كونهم أسرة سريعة الانفعال، وأبعد ما يكون عن سرعة التهيج، أو الشعور بالمرارة والاستياء من الإهانة. لكن بعد الكشف عن الأمر برمته، كانت هنا إهانة لا يمكن التغاضي عنها، وخلال نصف الساعة الأولى، لم يكن من الممكن العفو عنها بسهولة. من دون أن يعانوا أيَّ مخاوف رومانسية عند التفكير في رحلة ابنتهما الطويلة التي لفَّتها الوحدة، لم يستطع السيد والسيدة مورلاند إلا أن يشعرا أنَّ الأمر كان من الممكن أن يتسبَّب لها في الكثير من الإزعاج، وأنهما لم يكونا ليلجآ لهذا الاختيار طواعية، وأنَّ الجنرال تيلني، بإجبارها على مثل ذلك الخيار، لم يتصرَّف بنبلٍ ولا بإحساسٍ، سواء كرجلٍ نبيلٍ أو كولي أمر. لمَ فعل ذلك، وما الذي يمكن أن يكون قد دفعه لانتهاك قواعد حسن الضيافة، وأدَّى فجأة لتحول كلُّ اهتمامه المحبب بابنتهما إلى عداوة فعلية، كان أمرًا لم يفلحا في تكهن أسبابه، أكثر مما أفلحت كاثرين نفسها. إلا أنَّ الأمرَ لم يثقل عليهما لفترة طويلة بأي شكلٍ من الأشكال، إذ إنهما بعد فترة من التكهنات غير ذات الجدوى، اكتفيا في سخطهما وتعجبهما بالتوصل إلى أنَّ «الأمر برمته بالغ الغرابة، ولا بُدَّ وأنَّه رجلٌ غريبٌ جدًّا». إلَّا أنَّ سارة ظلَّت منغمسة في لذة الغموض، وهي تتكهن وتطلق صيحاتها بحماسٍ، حتى قالت والدتها في النهاية:

- يا عزيزتي، إنكِ تتسببين لنفسكِ في كثيرٍ من المتاعب التي لا داعي لها. فلتثقي في أنَّه أمرٌ لا يستحق الفهم على الإطلاق.

قالت سارة:

- يمكنني تفهُّم أنَّه أراد رحيل كاثرين عندما تذكر ارتباطه المسبق، لكن لمَ لمْ يفعل ذلك على نحوٍ مهذبٍ؟

أجابتها السيدة مورلاند قائلة:

- أشعر بالأسى حيال الشابين، لا بُدَّ وأنهما يشعران بالحزن لذلك. أما بالنسبة إلى أي شيء آخر، فلا يهم ذلك الآن. لقد عادت كاثرين إلى المنزل بسلامٍ، ولا نعتمد في راحتنا على الجنرال تيلني.

تنهَّدت كاثرين، وواصلت والدتها حديثها الفلسفي قائلة:

- حسنًا، أنا سعيدة لأنني لم أعرف بأمر رحلتكِ حينها، لكن الآن بعد انتهاء كل شيء، ربما لم يحدث أي ضررٍ يذكر. من الجيد دومًا أن يبذل الشبابُ بعضَ الجهد. وكما تعلمين، يا عزيزتي كاثرين، فلطالما كنتِ مخلوقًا بائسًا مشتت الذهن، لكن لا بُدَّ وأنكِ اضطررتِ ساعتها إلى التركيز مع كل هذا التبديل للعربات وما إلى ذلك، وأتمنى أن يظهر أنكِ لم تنسِ شيئًا في أي من تلك العربات.

كانت كاثرين تأمل ذلك هي الأخرى، وحاولت أن تشعر بالاهتمام بذلك التحسُّن الذي طرأ على شخصيتها، إلَّا أنَّ روحها كانت منهكة تمامًا، وسرعان ما صارت أمنيتها الوحيدة هي الجلوس بمفردِها في صمتٍ، فوافقت والدتها على الفور حين نصحتها بأن تأوي لفراشها مبكرًا. لم يرَ والداها شيئًا في ملامحها المعتلة واضطرابها، سوى كونهما نتيجة طبيعية لشعورها بالإهانة، وللجهد غير العادي والإرهاق بسبب مثل هذه الرحلة، وافترقا عنها من دون أي شك في أنَّ النوم سرعان ما سيزيل أثرَ كل ذلك. وعلى الرغم من أن تعافيها لم يكن بقدرٍ مساوٍ لآمالهما عندما التقوا جميعًا في صباح اليوم التالي، إلَّا أنَّهما كانا لا يزالان غير مرتابين على الإطلاق في وجود أي ألم أعمق من ذلك. لم يفكرا في قلبها، ولو لمرة، مما كان غريبًا للغاية بالنسبة إلى والدي فتاة شابة تبَلُغ السابعة عشرة من العمر، عادت للتوِّ من رحلتها الأولى بعيدًا عن المنزل!

بمجرد الانتهاء من تناول الإفطار، جلست كاثرين لتفي بوعدها للآنسة تيلني، التي كانت على حقٍّ في ثقتها في تأثير الوقت والمسافة على نفسية صديقتها، إذ كانت كاثرين تؤنِّب نفسَها بالفعل على افتراقها عن إليانور ببرودٍ، من دون إبداء تقديرها لمزاياها أو لطفها، ومن دون أن تواسيها أبدًا بما يكفي لما تركتها تتحمله بالأمس. إلا أن قوة هذه المشاعر كانت أبعد ما تكون عن إسداء يد العون لقلمها، ولم تواجه صعوبة في الكتابة من قبل قطُّ، مثل تلك التي واجهتها وهي تكتب لإليانور تيلني. كانت المهمة المطروحة على عاتقها كافية لإخافتها حتى تفقد القدرة على الكتابة: أن تكتب رسالة يمكنها في نفس الوقت التعبير بإنصافٍ عن مشاعرها وموقفها، وإبداء الامتنان من دون أي ندمٍ ذليلٍ، تلتزم فيها الحرص من دون برود، والصدق من دون استياء، رسالة لا تثير الألم في إليانور عندما تقرأها، وأهم من كل شيء، لا تجعلها هي تتخضب خجلًا لو تصادف وأن قرأها هنري. بعد التفكير المطول والكثير من الحيرة، كان كلُّ ما تمكَّنت من عقد العزم عليه بثقة وسلام هو الكتابة باختصارٍ شديدٍ. لذا وضعت المال الذي أقرضته لها إليانور في الرسالة، مع التعبير عن شكرها وامتنانها، وتمنياتها الطيبة من أعماق قلبها.

ما إن أنهت الرسالة حتى قالت السيدة مورلاند:

- كان هذا تعارفًا غريبًا. بدأ سريعًا، وانتهى سريعًا. يؤسفني حدوث ذلك، فقد كانت السيدة ألين تعتقد أنهما شابان في غاية اللطف. كما لم يحالفكِ الحظ مع إيزابيلا أيضًا. آه! يا لجيمز المسكين! حسنًا، علينا أن نعيش ونتعلَّم. وآمل أن يكون الأصدقاء الجدد الذين تتعرفين عليهم في المرة القادمة جديرين بالحفاظ على صداقتهم.

تضرَّج وجه كاثرين وأجابت بحرارة قائلة:

- لا توجد صديقة أجدر بالحفاظ عليها أكثر من إليانور.

- لو كان الأمر كذلك يا عزيزتي، أعتقد أنكما سوف تلتقيان ثانية، في وقتٍ ما أو آخر، لا تقلقي. غالبًا ما ستلتقيان ثانية في غضون بضع سنوات، وكم سيكون الأمر ممتعًا حينها!

لم تُوفَّق السيدة مورلاند في محاولتها لمواساة كاثرين. لم يفلح الأمل في اللقاء ثانية بعد عدة سنواتٍ سوى أن يضع في عقل كاثرين ما قد يحدث خلال ذلك الوقت، حتى يصير اللقاء مروعًا بالنسبة إليها. لن تتمكَّن أبدًا من نسيان هنري تيلني، ولا التفكير فيه بحنانٍ أقل مما كانت تستشعره في هذه اللحظة، لكن ربما ينساها هو، وحينها سيكون اللقاء... امتلأت عيناها بالدموع وهي تتصور معرفتهما تتجدَّد على ذلك النحو. وعندما أدركت والدتها أن ملاحظاتها وتشجيعها لا تؤتي مفعولها، اقترحت أن يذهبا لزيارة السيدة ألين، كوسيلة أخرى لرفع معنوياتها.

كان المنزلان يقعان على بُعد ربع ميل فحسب من بعضهما، وخلال سيرهما، عبَّرت السيدة مورلاند بسرعة عن كل ما تشعر به بخصوص خيبة أمل جيمز. قالت:

- نحن نشعر بالأسى حياله، لكن خلاف ذلك، لم يقع أيُّ ضررٍ من إلغاء الارتباط. إذ إنه ليس من المحبَّب خطبته لفتاة لا معرفة لنا بها على الإطلاق، ولا تمتلك أيَّ قدرٍ من الثروة. والآن، بعد سلوكها هذا، لا يمكننا أن نحسن الظنَّ بها بتاتًا. يبدو الأمر صعبًا على جيمز المسكين في الوقت الحالي فحسب، لكن ذلك لن يدوم إلى الأبد. وأعتقد أنه سيصير رجلًا حصيفًا لما تبقَّى من حياته، بسبب حماقة خياره الأول.

كان ذلك الموجز هو كل ما تحمَّلت كاثرين الاستماع إليه، لكن أي جملةٍ أخرى إضافية كانت ستهدد شعورها باللياقة، وتجعل ردَّها أقل عقلانية، وسرعان ما انشغل كلُّ تفكيرها بتأمُّل التغير في مشاعرها ومعنوياتها هي، منذ آخر مرة وطأت فيها قدمُها هذا الطريق المألوف.

لم تمر ثلاثة أشهرٍ، منذ كانت تركض جيئة وذهابًا إلى هناك، مفعمة بالتوقعات المبهجة، بقلبٍ خفيفٍ وسعيدٍ وحرٍّ، تتطلَّع لملذاتٍ جديدة لا تشوبها شائبة، وذهنها خالٍ من أي خوفٍ من الشرور أو من أي معرفة بها. كان هذا حالها منذ ثلاثة أشهر، والآن كم بدت كائنًا مختلفًا تمامًا وهي تعود مرة ثانية!

استقبلها آل ألين بكل اللطف الذي يمكن أن تستدعيه زيارتها غير المتوقعة لأناسٍ يكنُّون لها مودة طبيعية، وكانت دهشتهما عظيمة واستياؤهما شديدًا عند سماعهما كيفية معاملتها، على الرغم من أن السيدة مورلاند لم تبالغ في روايتها، ولم تكن حكايتها مدروسة لإثارة تعاطفهما. قالت:

- لقد فاجأتنا كاثرين مساء أمس. قطعت الطريق بأكملِه بمفردها، في عربات البريد، ولم تعرف شيئًا بخصوص قدومها حتى ليلة السبت. إذ يبدو أنَّ الجنرال تيلني انتابته نزوة غريبة أو ما شابه، وسئم وجودها هناك فجأة، وكاد أن يطردها من المنزل. هذا سلوكٌ غير وديٍّ، بكلِّ تأكيدٍ. لا بُدَّ وأنَّه رجلٌ غريبُ الأطوار. لكنَّنا سعداء للغاية لوجودها بيننا مرة أخرى! وإنه لمن دواعي الراحة الشديدة أن نعرف أنها ليست كائنًا مسكينًا عاجزًا، بل يمكنها أن تعتني بنفسها جيدًا.

أعرب السيد ألين عن شعوره حيال الأمر بالاستياء المعقول المتوقع من صديقٍ عاقلٍ، واعتقدت السيدة ألين أن تعبيراته جيدة بما يكفي لأن تستخدمها هي الأخرى على الفور. صارت كل التعبيرات الدالة على تعجبه وتكهناته وتفسيراته خاصة بها على التوالي، مع إضافة ملحوظة واحدة فحسب من

جانبها، لتملأ بها كل لحظة صمت عارضة: «في الواقع ليس لديَّ أيُّ صبرٍ على الجنرال». كرَّرت القول مرتين: «في الواقع ليس لديَّ أي صبر على الجنرال»، بعد أن غادرَ السيد ألين الغرفة، من دون أن يهدأ غضبها، أو تنحرف بتفكيرها في موضوعٍ آخر. وعندما كررت القول لثالث مرة، صاحب ذلك انحراف ملموس في تفكيرها بدرجة أكبر، وبعد أن أكملت القول للمرة الرابعة، أضافت قائلة على الفور:

- فلتفكري فحسب يا عزيزتي، أنني أصلحتُ بصورة رائعة ذلك التمزق الرهيب الذي حدث في أفضل ثيابي المزيَّنة بالدانتيلَّا، قبل أن نغادر باث، لدرجة أن المرء لا يرى مكان التمزق سوى بصعوبة. يجب أن أريكِ إياه في يومٍ أو آخر. لكن باث مكانٌ لطيفٌ رغم كل شيء، يا كاثرين. أؤكد لكِ أنني لم أرغب كثيرًا في الرحيلً. كان وجود السيدة ثورب هناك مصدرَ ارتياحٍ بالغٍ لنا، أليس كذلك؟ أنتِ تعرفين أننا كنَّا بائستين جدًّا في بادئ الأمر.

التمعت عينا كاثرين عندما تذكرت ما أضفى حيوية على وجودها هناك لأول مرة، وقالت:

- أجل، لكن ذلك لم يدم طويلًا.

- هذا صحيحٌ للغاية. سرعان ما التقينا بالسيدة ثورب، وبعدها لم نعد بحاجة لشيء. يا عزيزتي، هل تعتقدين أنَّ هذه القفازات الحريرية تبدو جيدة في اللبس؟ لقد ارتديتها للمرة الأولى عند ذهابنا إلى قاعة الحفلات الجنوبية، مثلما تعلمين، كما ارتديتها كثيرًا منذ ذلك الحين. هل تذكرين تلك الأمسية؟

- هل أذكرها! أوه! تمامًا.

- كانت لطيفة للغاية، أليس كذلك؟ تناول السيد تيلني الشاي معنا، ولطالما ظننتُ صحبته رائعة، فهو لطيفٌ جدًّا. أعتقد أنكِ رقصتِ معه، لكنني لست متأكدة. أذكر أنني كنتُ أرتدي ثوبي المفضل.

لم تستطع كاثرين الإجابة، وبعد أن جرَّبت الحديث حول موضوعات أخرى لفترة وجيزة، عادت السيدة ألين لتقول:

- في الحقيقة، ليس لدي أي صبرٍ على الجنرال! بدا كأنَّه رجلٌ لطيفٌ وفاضلٌ! لا أعتقد، يا سيدة مورلاند، أنكِ سبق وأن رأيتِ رجلًا يفوقه تهذيبًا في حياتكِ من قبل. تم تأجير مسكنه في اليوم التالي لرحيله مباشرة، يا كاثرين. لكن لا عجب في ذلك، فأنتِ تعرفين شارع ميلسوم.

بينما هما عائدتان في طريقهما مرة أخرى، حاولت السيدة مورلاند إقناع ابنتها بالسعادة التي ينعم بها المرء لكونه لديه أصدقاء مخلصون يتمنون له الخير مثل السيد والسيدة ألين، وأنها لا يجب عليها الاكتراث كثيرًا بالإهمال أو القسوة التي لاقتها من معارف غير وثيقي الصلة بهم مثل آل تيلني، في حين أنها تستطيع الحفاظ على احترام ومحبة أصدقائها القدامى. كان هناك قدرٌ كبيرٌ من الحكمة في حديثها هذا، لكن هناك بعض المواقف التي يمر بها العقل البشري، لا يكون فيها للحكمة تأثيرٌ يذكر. وكانت مشاعر كاثرين تناقض كل تأكيدات والدتها تقريبًا. كانت كل سعادتها الحالية تعتمد على سلوك أولئك المعارف الذين لم يكونوا وثيقي الصلة بهم. وفي حين انشغلت السيدة مورلاند بتأكيد صحة آرائها من خلال الجدل الذي قدمته، كانت كاثرين تفكر في صمتٍ أنَّ هنري لا بُدَّ وأن يكون وصل

إلى نورثانجر الآن، وأنه لا بُدّ وأن يكون قد عرف برحيلها، وربما كانوا جميعًا الآن متوجهين في طريقهم إلى هيرفورد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 15 -

لم تكن كاثرين بطبيعتها تميل إلى الجلوس، كما لم تكن مجتهدة بحكم العادة، لكن بصرف النظر عن عيوبها هذه في السابق، إلا أن والدتها لم تستطع إلا أن تلحظ أنها تزايدت بدرجة كبيرة الآن. لم تكن تستطيع الجلوس في سكونٍ، ولا العمل لعشر دقائق، بل ظلَّت تتجوَّل في الحديقة والبستان مرارًا وتكرارًا، كأنَّها لا تستطيع فعلَ أي شيء طواعية سوى الحركة. كما بدا كأنَّها يمكنها التجول في أرجاء المنزل، بدلًا من الجلوس ساكنة لأي وقتٍ في غرفة الاستقبال. وكان تدني معنوياتها بمثابة تغيُّر آخر أكبر. ربما كانت في تجوالها وكسلها ذاك مجرد صورة كاريكاتورية من شخصيتها السابقة، إلا أنها في حزنِها وصمتِها بدت على النقيض تمامًا من كل ما كانت عليه من قبل.

لمدة يومين كاملين، سمحت السيدة مورلاند بأن يمر الأمرُ من دون إشارة منها حتى، لكن بعد مرور ليلة ثالثة من دون أن تستعيد بهجتها، أو يزداد نشاطها المفيد، أو تشعر بميلٍ أكبر لأشغال الإبرة، لم تستطع الامتناع عن توبيخها بلطفٍ قائلة:

- يا عزيزتي كاثرين، أخشى أنكِ صرتِ كأنَّكِ سيدة من علية القوم. لا أعرف إن كان العمل على ربطات عنق المسكين ريتشارد سينتهي، لو لم يكن لديه من يصنعها له سواكِ. إن عقلكِ منشغلٌ بالتفكير في باث بدرجة زائدة عن الحد، لكنَّ هناك وقتًا لكل شيء. هناك وقتٌ للحفلات الراقصة والمسرحيات، ووقتٌ للعمل. لقد تمتعتِ بوقتٍ طويلٍ من التسلية، والآن عليكِ أن تحاولي أن تكوني مفيدة.

باشرت كاثرين عملَها على الفور، وقالت بنبرة حزينة إنَّ عقلها ليس منشغلًا بالتفكير في باث بدرجة زائدة.

- إذن فأنتِ قلقة بشأن الجنرال تيلني، وهذه حماقة بالغة منكِ، إذ إنكِ في الغالب لن تريه مرة أخرى على الإطلاق. يجب ألا تقلقي أبدًا بشأن الأشياء التافهة.

واصلت الحديث بعد فترة من الصمت، وقالت:

- آمل، يا كاثرين، ألا تكوني مستاءة من المنزل لأنه ليس بفخامة نورثانجر. هذا من شأنه أن يجعل زيارتكِ لهم شرًّا بالفعل. يجب أن تشعري بالرضا دومًا، أينما كنتِ، وفي المنزل على وجه الخصوص، حيث يتعيَّن عليكِ قضاء معظم وقتكِ هناك. لم يعجبني تمامًا حديثكِ وقت الإفطار، عن الخبز الفرنسي في نورثانجر.

- أنا على يقين من أنني لا أكترث لأمر الخبز. كل ما أتناوله سيان بالنسبة إليَّ.

- هناك مقالٌ ذكيٌّ للغاية يدور حول ذلك الموضوع، في إحدى الكتب بالطابق العلوي، عن الفتيات الشابات اللاتي أفسدتهن معرفة أصحاب المكانة المرموقة حتى كرهن منازلهن. كان في «ذا ميرور»، على ما أعتقد. سأبحث لكِ عنه في يومٍ أو آخر، لأنني متأكدة أنه سيفيدكِ.

لم تقل كاثرين المزيدَ، وسعت لفعل الصواب، فانكبَّت على عملها، إلا أنها عادت لتغرق في الكسل والفتور بعد بضع دقائق، من دون أن تدرك ذلك، وتململت في مقعدها من الضيق والتعب، أكثر كثيرًا مما حركت إبرتها. شاهدت السيدة مورلاند تطور هذا الانتكاس، ورأت في نظرة ابنتها الشاردة غير الراضية هذه دليلًا تامًّا على تلك الروح المتبرمة التي بدأت تعزو لها الآن افتقارها إلى البهجة، فغادرت الغرفة على عجلٍ لإحضار الكتاب المعني، وهي حريصة على عدم إضاعة أي وقتٍ حتى تهاجم هذا المرض الرهيب. مرَّ بعضُ الوقت قبل أن تتمكَّن من العثور على ما تبحث عنه، كما وقعت بعض الأمور العائلية الأخرى التي عطلتها، فانقضت ربع ساعة قبل عودتها إلى الطابق السفلي وبحوزتها المجلد الذي علَّقت عليه آمالًا كبيرة. في أثناء انشغالها بالأعلى، لم تسمع أي أصوات أخرى بخلاف تلك التي أصدرتها هي، ولم تكن تعلم أنَّ زائرًا وصل خلال الدقائق الأخيرة، إلى أن دخلت الغرفة فكان أول ما رأته هو شابٌّ لم تقع عيناها عليه من قبل. نهض على الفور بنظرة احترامٍ بالغ، وبعد أن قدَّمته إليها ابنتها التي غلب عليها الخجل باسم «السيد تيلني»، شرع يعتذر بإحراجٍ وحساسية شديدة لقدومه هناك، واعترف أنه بعد ما حدث، لم يكن لديه الحق في أن يتوقع الترحيب به في فولرتون، وأعلن أنَّ السبب وراء تطفُّله هذا هو نفاد صبره للاطمئنان أنَّ الآنسة مورلاند وصلت منزلَها في أمانٍ. لم يكن يخاطب قاضيًا متحيزًا ضده، أو قلبًا ساخطًا. لم تؤاخذه السيدة مورلاند لا هو ولا شقيقته لسوء سلوك والدهما، بل لطالما كانت تشعر بميلٍ إليهما، وأعجبت بمظهره على الفور، فاستقبلته بعباراتٍ بسيطةٍ من اللطف الصادق، وشكرته على هذا الاهتمام بابنتها، وأكدت له أنَّ أصدقاء أبنائها دومًا محلُّ ترحيب هناك، كما ناشدته ألا يذكر ولو كلمة أخرى عن الماضي.

لم يكن لديه مانعٌ من الانصياع لمطلبها هذا، فعلى الرغم من الارتياح الشديد الذي أحسَّ به قلبُه لمثل هذا اللطف غير المتوقع، إلَّا أنَّه لم يكن بوسعه قول أي شيء بخصوص الموضوع في اللحظة الراهنة. لذا عاد إلى مقعدِه في صمتٍ، وظلَّ لبضع دقائق يتجاوب بلطفٍ مع كل التعليقات العادية للسيدة مورلاند حول الطقس والطرق. في هذه الأثناء، لم تنطق كاثرين -القلقة، المضطربة، السعيدة، المحمومة- ولو بكلمة واحدة. لكنَّ وجنتيها المتوردتين وعينيها المتألقتين جعلا والدتها على ثقة بأنَّ هذه الزيارة الطيبة ستريح قلبها لبعض الوقت على الأقل، فنحت المجلد الأول من «ذا ميرور» جانبًا بكلِّ سرورٍ، وتركته لوقتٍ آخر في المستقبل.

كانت السيدة مورلاند قد أرسلت أحد أبنائها لينادي السيد مورلاند منذ وقتٍ مبكرٍ، إذ كانت بحاجة لمساعدته في التشجيع وأيضًا في العثور على موضوعات للحديث للضيف، الذي أشفقت عليه بشدة لحرجه بسبب ما فعله والده. إلَّا أنَّ السيد مورلاند لم يكن متواجدًا في المنزل. ونظرًا لافتقادها أي دعم على هذا النحو، لم يعد لديها ما تقوله بعد انقضاء ربع ساعة. بعد دقيقتين من الصمت المستمر، استدار هنري نحو كاثرين لأول مرة منذ دخول والدتها، وسألها بحماسة مفاجئة ما إذا كان السيد والسيدة ألين في فولرتون الآن. وبعد أن ميَّز من بين كل كلماتها المرتبكة التي أجابته بها المعنى المقصود، الذي كانت ستكفي كلمة واحدة قصيرة للتعبير عنه، أعرب على الفور عن نيتِه زيارتهما لتقديم تحياته، وتخضَّب وجهُه وهو يسألها إذا كان بوسعِها التكرُّم لتريه الطريق. قالت سارة:

- بوسعكَ رؤية المنزل من هذه النافذة، يا سيدي.

مما دفع السيد للانحناء على سبيل الشكر، وجعل والدتها تومئ لها كي تلتزم الصمت. كانت السيدة مورلاند تعتقد أنَّه قد يكون لديه سببٌ آخر يريد من أجله زيارة جيرانهم الأفاضل، وهو أنه ربما يكون لديه تفسيرٌ ما بخصوص سلوك والده، يرغب في تقديمه، وسيكون من الأسهل بالنسبة إليه شرحه لكاثرين فقط، لذا لم تكن لتمنعها من مرافقته بأي حال من الأحوال. شرعا يسيران، ولم تكن السيدة مورلاند مخطئة تمامًا في تخمينها للسبب الذي أراد من أجله ذلك. كان عليه تقديم بعض التوضيح المتعلق بوالده، لكن هدفه الأول كان توضيح موقفه هو. وقبل وصولهما لأرض السيد ألين، فعل ذلك بصورة جيدة للغاية، لم تظن كاثرين أنه من الممكن تكرارها. تأكدتْ من مشاعره، وطلب هو في المقابل قلبها، الذي كان كلاهما يعرفان جيدًا أنه ملكه بالكامل بالفعل. فعلى الرغم من أنَّ هنري صار متعلِّقًا بها بصدقٍ الآن، وعلى الرغم من علمه بكل مميزات شخصيتها وسعادته بها، واستمتاعه الحقيقي بصحبتها، إلا أنه عليَّ الاعتراف بأن محبته لها لم تنبع مما هو أكثر من مجرد الشعور بالامتنان فحسب، أو بعبارة أخرى، أن قناعته بحبها له هو السبب الوحيد الذي دفعه للتفكير فيها بجدية. أعترفُ بأن هذه حالة جديدة في الرومانسية، وبأنها مهينة لكرامة البطلة بشكلٍ رهيبٍ، لكن لو كانت هذه الحالة جديدة على الحياة الواقعية أيضًا، فعلى الأقل سيكون لي الفضل في هذا الخيال الجامح.

قاما بزيارة قصيرة جدًّا للسيدة ألين، تحدث خلالها هنري على نحوٍ عشوائيٍّ، من دون أن يكون لحديثه مغزى أو رابط. استغرقت كاثرين في تأمُّل سعادتها التي لا توصف، فلم تنبس ببنت شفة، وتركتهما يستمتعان بمحادثتهما الخاصة. وقبل انتهاء حديثهما، تمكَّنت من معرفة إلى أي مدى يحوز موافقة والده على طلبه الحالي. عند عودته من وودستون قبل يومين، قابله والده بالقرب من الدير بنفاد صبرٍ، وأبلغه على عجلٍ بعبارات غاضبة برحيل الآنسة مورلاند، وأمره بعدم التفكير فيها بعد ذلك.

كان هذا هو الإذن الذي ناله، قبل أن يطلب منها الزواج الآن. بينما هي تنصت لحكايته هذه، لم تستطع كاثرين المرعوبة، وسط كل المخاوف والتوقعات، إلا أن تبتهج للحذر اللطيف الذي أنقذها به هنري من اضطرارها إلى الرفض بدافعٍ من الضمير، بأن حاز موافقتها قبل إثارته للموضوع. وحين شرع في إعطاء التفاصيل، وشرح الدوافع وراء سلوك والده، سرعان ما قست مشاعرها حتى تحوَّلت إلى بهجة مشوبة بالانتصار. لم يكن لدى الجنرال ما يتهمها به، ولا شيء يجرِّمها، سوى كونها هدفًا لخداعِه من دون وعي ولا رغبة من جانبها، ولم تستطع كرامته غفران الأمر، رغم أن الكرامة الحقة كانت سترفض الاعتراف بتعرضها لذلك الخداع من الأساس. كان كل ذنبها أنه اتضح له أنها أقل ثراء مما ظن في بادئ الأمر. بسبب اعتقاده الخاطئ بشأن ما تمتلكه من ثروة وعلاقات اجتماعية، سعى لمعرفتها في باث، وطلب استضافتها في نورثانجر، وخطَّط لأن تصير كنته. عندما اكتشف خطأه، بدا أن أفضل ما يمكنه عمله هو طردها من المنزل، على الرغم من أنَّ ذلك لم يكن يُعدُّ دليلًا في رأيه على استيائه منها واحتقاره لأسرتها.

كان جون ثورب هو من ضلَّله في بادئ الأمر. حين لاحظ الجنرال أنَّ ابنه يولي الآنسة مورلاند اهتمامًا كبيرًا في المسرح خلال إحدى الأمسيات، سأل ثورب على نحوٍ عارضٍ ما إذا كان يعرف عنها ما هو أكثر من مجرد اسمها. أحسَّ ثورب بالسعادة لحديثه مع رجلٍ بأهمية الجنرال، فاستفاض

في الحديث ببهجة وتفاخر. لم يكن حينها يتوقع أن يخطب مورلاند إيزابيلا في أي يوم فحسب، بل عقد العزم أيضًا على زواجه هو من كاثرين، فدفعه غروره لتصوير الأسرة بوصفها أكثَّر ثراءً حتى مما كان يتخيل هو بدافعٍ من غروره وجشعه. كلما كان بصحبة شخصٍ ما، أو بات من المحتمل أن يصير على صلة بشخص ما، كانت مكانته هو تتطلَّب أن تكون مكانتهم كبيرة، وكلما ازدادت صلته بأحد معارفه عمقًا، ازدادت ثروتهم هم تباعًا. لذا فإن ثروة صديقه مورلاند، التي بالغ هو في تقدير حجمها منذ البداية، أخذت تزداد تدريجيًّا منذ تعارفه على إيزابيلا، وضاعف ثورب هذا كي يزيد من جلال اللحظة فحسب، وذلك بأن زاد من المبلغ الذي كان يعتقد أن السيد مورلاند يحصل عليه من عمله ككاهنٍ بمقدار الضعف، كما زاد من ثروته الخاصة بمقدار ثلاثة أضعاف، ومنحه عمة ثرية، وأنقص نصف عدد الأبناء، وبهذا تمكَّن من تصوير الأسرة بأكملها للجنرال في أفضل ضوءٍ. أما بالنسبة إلى كاثرين، محل اهتمام الجنرال بالتحديد، ومحل تكهنات ثورب نفسه، فقد كان لديه المزيد مما يمكنه إضافته، وسيشكل مبلغ العشرة أو الخمسة عشر ألف جنيه التي يمكن لوالدها أن يمنحها إياها، إضافة رائعة إلى ممتلكات السيد ألين. إذ جعلته علاقتها المقربة بآل ألين يعتقد بجدية أنها ستفوز بميراثٍ ضخم لاحقًا، وبالتالي كان من الطبيعي أن يتحدث عنها باعتبارها الوريثةٍ المستقبلية المؤكدة لفولرتون. وتصرَّف الجنرال بناء على هذه المعلومات، حيث لم يخطر بباله قطٌّ الشك في مصداقيتها. بدا أن اهتمام ثورب بالعائلة لاقتراب ارتباط شقيقته بأحد أفرادها، وتوقعاته هو بالارتباط بفرد آخر (وقد تفاخر بذلك بصراحة تامة) دلائل كافية على صدقه. كما أُضيف إلى ذلك الحقيقة المطلقة لكون آل ألين أثرياء ومن دون أبناء، وكون الآنسة مورلاند تحت رعايتهما، وأنهما -ما إن اقترب منهما بما يكفي للحكم على ذلك بنفسه- يعاملانها بلطفٍ أبوي. سرعان ما اتخذ قراره. كان قد لاحظ على ابنه بالفعل أمارات الإعجاب بالآنسة مورلاند. أحسَّ بالامتنان للمعلومات التي باح له بها السيد ثورب، وقرَّر على الفور تقريبًا ألا يدخر جهدًا في إحباط رغبته التي تباهى بإعلانها، وتخريب أقصى آماله. لم تكن كاثرين نفسها تدري أي شيء من ذلك حينها، أكثر مما كان يدري أبناؤه. لم يرَ هنري وإليانور أي شيء مميزٍ في وضعها يستحق الفوز باحترام والدهما على ذلك النحو الخاص، وراقبا بدهشة مدى اهتمامه المفاجئ والمتواصل. وعلى الرغم من أنَّ هنري بات على قناعة لاحقًا بأن والده يعتقد أنها مصاهرة مربحة، وذلك من خلال بعض التلميحات التي صاحبها أمرٌ صريحٌ تقريبًا بأن يفعل ابنه كل ما في وسعه لجعلها تتعلق به، إلا أنهما لم تكن لديهما أدنى فكرة عن الحسابات الخاطئة التي حدت به لهذا الاندفاع، حتى علما بذلك التفسير المتأخر في نورثانجر. عرف الجنرال بخطأ تلك الحسابات من نفس الشخص الذي اقترحها، من ثورب نفسه، الذي التقاه مرة أخرى في لندن بطريق الصدفة. كان ذلك الأخير تحت تأثير مشاعر مناقضة تمامًا وقد أزعجه رفض كاثرين، وما هو أدهى من ذلك فشله مؤخرًا في محاولته للصلح ما بين مورلاند وإيزابيلا، فبات على قناعة من افتراقهما للأبد، ورفض صداقة بدت كأنَّها لم تعد مفيدة بالنسبة إليه، فسارعٍ لنفي كل ما سبق وأن ذكره في صالح آل مورلاند، واعترف بأنه كان مخطئًا تمامًا فيما يتعلَّق بظروفِهم وشخصيتهم، وأنَّه انخدع بتفاخر صديقه فاعتقد أن والده رجلٌ ذو ثروة ومكانة، في حين أثبتت تعاملات الأسبوعين أو الثلاثة أسابيع الماضية خلاف ذلك. فبعد أن تقدم ذلك الأخير بحماسٍ في البداية عند أول اقتراح بالمصاهرة بين الأسرتين، وقدَّم عرضًا ماديًّا فائق الكرم، أُجبر على الاعتراف، عندما اضطَّرته إلى ذلك فطنة المحامي، بأنه غير قادرٍ حتى على تقديم الدعم اللائق للشابين. كانوا في الواقع أسرةٍ معدمة، يفوق عددهم كلَّ حدٍّ، ولا يحظَون بالاحترام في حيِّهم السكني

بأي حالٍ من الأحوال، كما أتيح له الاكتشاف مؤخرًا، وكانوا يهدفون للعيش بمستوى حياة لا تسمح لهم به إمكاناتهم، ويسعون لتحسين مستواهم من خلال إقامة علاقات مع من يفوقونهم مكانة وثروة، إذ كانوا يتصفون بالإلحاح والتباهي والمكر.

أصيب الجنرال بالرعب، ونطق اسم ألين بنظرة متسائلة، وهنا أيضًا أعلن ثورب أنه أدرك خطأه. كان آل ألين يقطنون بالقرب منهم منذ فترة طويلة على حدِّ اعتقاده، لكنه كان يعرف الشاب الذي ستؤول إليه ملكية فولرتون في النهاية. لم يعد الجنرال بحاجة للمزيد. امتلأ غضبًا حيال كل من بالعالم تقريبًا، عدا نفسه، وانطلق متوجهًا إلى الدير في اليوم التالي، حيث شهد الجميع أداءه.

أتركُ الأمر لذكاء القارئ لتحديد مقدار ما تمكَّن هنري من إخبار كاثرين به في ذلك الوقت من بين كل ذلك، ومقدار ما علم به هو من والده، وما هي النقاط التي ربما يكون استعان فيها بتكهناته الشخصية، وما الجزء الذي عليه الانتظار حتى يرويه جيمز في رسالة. لقد جمعتُ الأحداث تيسيرًا على القراء، وعليهم هم تقسيمها للتيسير عليَّ. على أي حالٍ، سمعت كاثرين ما فيه الكفاية حتى تشعر بأنها باشتباهها في كون الجنرال تيلني قتل زوجته أو حبسها، لم تخطئ كثيرًا في حق شخصيته، ولم تبالغ في تصوير قسوته.

عندما اضطر هنري إلى رواية مثل هذه الأشياء عن والده، بدا مثيرًا للشفقة بنفس الدرجة تقريبًا كما كان حينما اضطر إلى الاعتراف بالأمر لنفسه لأول مرة. تخضَّب وجهُه خجلًا لضيق أفق تلك الآراء التي اُضطرَّ إلى الإفصاح عنها. كان الحديث بينهما في نورثانجر عدائيًّا للغاية. عبَّر هنري عن سخطِه بجرأة ووضوح، عند سماعه بكيفية معاملة كاثرين، وإدراكه لآراء والده، الذي أمره بالانصياع لآرائه تلك. اَعتاد الجنرال فرضَ أوامره على أسرته في جميع المناسبات العادية، ولم يكن على استعداد لأن يعارضه أحدهم سوى بالمشاعر فحسب، كما لم يكن لأحد أن يجرؤ على التعبير عن اعتراضه بالكلمات، لذا لم يتحمَّل معارضة ابنه له، على الرغم من أنه كان يحظى بتأييد العقل وما يمليه الضمير. لكن في مثل هذه الحالة، وعلى الرغم من غضبه الصادم، إلا أنه لم يتمكَّن من إثارة الخوف في نفس هنري، الذي صمد على موقفِه لقناعتِه بعدالتِه. أحسَّ بارتباطه بالآنسة مورلاند بوازعٍ من الشرف، بقدر ما كان ذلك بدافعٍ من العاطفة، ونظرًا لإيمانه بأنه بات يمتلك ذلك القلب الذي أُمر بالفوز به، فلم يكن بوسع أي تراجع غير لائق عن الموافقة الضمنية، ولا أي قرارات عكسية بدافعٍ من الغضب غير المبرر، أن تزعزع إخلاصه أو تؤثِّر على القرارات النابعة منه.

رفض بثباتٍ مرافقة والده إلى هيرفوردشير، وهو ارتباطٌ التزم به لحظتها تقريبًا، ليساعده على التخلُّص من كاثرين، وأعلن بقدرٍ مماثلٍ من الثبات عن نيتِه في طلب الزواج منها. ثارت ثائرة الجنرال، وافترقا وبينهما خلافٌ مروِّعٌ. كان هنري في حالة من الاضطراب الذهني، يحتاج معها إلى أن يمضي ساعاتٍ كثيرة بمفرده حتى يتمكَّن من أن يتمالك نفسَه، فعاد إلى وودستون على الفور تقريبًا، ثم بدأ رحلته إلى فولرتون بعد ظهيرة اليوم التالي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 16 -

اندهش السيد والسيدة مورلاند للغاية عندما طلب السيد تيلني موافقتهما على زواجه من ابنتهما، ودامت دهشتُهما تلك لبضع دقائق، إذ لم يطرأ على ذهنِهما الشكُّ في تعلُّق أي منهما بالآخر. لكن في النهاية، بما أنَّ ذلك كان من الطبيعي تمامًا، نظرًا لطبيعة كاثرين التي تجعلها محببة للآخرين، سرعان ما فكرا في الأمر بسعادة وفخرٍ، ولم يكن لديهما من جانبهما أي مانع. كان حُسن سلوكه وحُسن تقديره بمثابة تزكية واضحة له، وحيث إنهما لم يسمعها عنه ما يشين، فلم يكن من شيمتهما افتراض الشر في الآخرين. اكتفيا بما بدا من حسن نواياه، عوضًا عن معرفتهما الشخصية به، لذا لم تكن شخصيته بحاجة لمن يزكيها. كان النذير الوحيد هو تعليق والدتها، حين قالت: «من المؤكد أنَّ كاثرين ستكون ربة بيت شابة مهملة»، لكن سرعان ما واست نفسها بأنه لا شيء يضاهي التدريب والممارسة.

لم يبقَ باختصارٍ سوى عقبة واحدة توَجَّب ذكرها، وحتى تزول تلك العقبة، كان من المستحيل بالنسبة إليهما الموافقة على الخطوبة. كانت طباعهما تميل إلى التسامح، إلا أن مبادئهما كانت ثابتة، وطالما بقي والده على رفضه الصريح لهذا الارتباط، فلم يكن بوسعهما التشجيع عليه. لم يكونا بمكانة تدفعهما للتفاخر واشتراط حضور الجنرال بنفسِه كي يطلب المصاهرة، ولا حتى لأن يبدي موافقته القلبية بحرارة، لكن كان من الواجب الحفاظ على المظاهر اللائقة، والحصول على موافقته، وبمجرد الحصول عليها -إذ كانا على يقين قلبي من أنه لا يمكنه الرفض طويلًا- كانت موافقتهما ستليه على الفور. كانت موافقته هي كل ما يرغبان فيه. لم يكن لهما الحق في مطالبته بأي أموالٍ، ولم يكونا يريدان ذلك. كان ابنه سينال في نهاية المطاف ثروة كبيرة أمَّنها له اتفاق الزواج بين والديه، كما كان دخله الحالي يضمن له الاستقلال والراحة، ومن جميع وجهات النظر المادية، كان هذا الزواج يفوق ما يمكن أن تفوز به ابنتهما.

لم يفاجأ الشابان من هذا القرار. تأثَّر شعورهما وأحسَّا بالأسى، لكنهما لم يستطيعا الاستياء من ذلك. افترقا على أمل أن يغيِّر الجنرال رأيه سريعًا، وهو الأمر الذي كانا يظنانه يكاد يكون مستحيلًا، حتى يمكنهما الاجتماع مرة أخرى والاستمتاع بكامل محبتهما. عاد هنري إلى ما صار الآن منزله الوحيد، ليراعي مزروعاته ويستكمل التحسينات التي يجريها من أجل تلك التي كان يتطلَّع بلهفة لقدومها ومشاركتها إياه، بينما بقيت كاثرين تبكي في فولرتون. دعونا لا نتساءل ما إذا كانت رسائله السرية تخفِّف من عذابات غيابه، فلم يوجه السيد والسيدة مورلاند ذلك السؤال قطُّ، وكانا ألطف من أن يطلبا قطع أي وعود. وكلما تلقَّت كاثرين خطابًا في تلك الفترة، وهو ما كان يحدث كثيرًا، دومًا ما كانا يتجاهلان الأمر.

أخشى أنَّ هذه الحالة من القلق بخصوص المحصلة النهائية للأمور، والتي لا بد وأنها كانت من نصيب هنري وكاثرين، وكل من يحبونهما، لا يمكنها أن تمتد إلى قلوب قرائي، الذين سيرون من قلة عدد الصفحات الباقية أمامهم أننا جميعًا نمضي قدمًا على وجه السرعة نحو السعادة التامة. يبقى الشك الوحيد هو كيفية إتمام زواجهما سريعًا، وما الظروف المحتملة التي أمكنها التأثير على مزاجٍ مثل مزاج الجنرال؟ كان الظرف الذي أفادهم بشكلٍ أساسيٍّ هو زواج ابنته خلال الصيف من رجلٍ بالغ

الثراء ذي مكانة، مما مثل إضافة لمكانته هو، وجعله ذلك في حالة مزاجية طيبة، لم يتعافَ منها إلا بعد أن نالت منه إليانور الصفحَ عن هنري، كما نالت له الإذن منه بأن «يتصرف بحماقة، طالما كان يرغب في ذلك!».

إن زواج إليانور تيلني، وابتعادها عن كل الشرور التي انطوى عليها المنزل في نورثانجر بعد رحيل هنري، وانتقالها إلى منزلٍ من اختيارها ورجلٍ من اختيارها، لهو حدثٌ أتوقع أن يرضي جميع معارفها بشكلٍ عامٍّ. كما أنَّ فرحتي أنا بهذه المناسبة صادقة للغاية، فلا أعرف من يستحق أن ينعم بالسعادة أكثر منها، لصدق فضائلها، ولكثرة ما عانته. لم يكن ميلها لهذا الرجل حديثًا، ولم يمنعه من التقرُّب منها لفترة طويلة سوى كونه يقل عنها مكانة. لكن فوزه غير المتوقع باللقب والثروة أزال كلَّ العقبات التي واجهته، ولم يسبق للجنرال أن أحسَّ بهذا القدر من الحب تجاه ابنته طوال ساعات صحبتها له وخدمتها له وتحمُّلها بصبرٍ، مثلما أحسَّ حين ناداها لأول مرة « يا سيادة الليدي»! كان زوجها جديرًا بها حقًّا، بصرف النظر عن لقبِه وثروتِه وعلاقاته، حيث كان أكثر شابٍّ فاتن في العالم بأسره. ولا حاجة لوصف أي ميزة أخرى من مميزاته، إذ إننا بوسعنا جميعًا أن نتخيَّل على الفور أكثر شاب فاتن في العالم. أمَّا فيما يتعلَّق بالشخص المعني، فعليَّ أن أضيف (حيث إنني على دراية بأن قواعد الرواية تمنعني من تقديم شخصية غير مرتبطة بحكايتي) أنه كان نفس الرجل الذي تركت خادمته المهملة تلك المجموعة من فواتير الغسيل، الناتجة عن زيارة طويلة لنورثانجر، والتي تورطت بطلتي بسببها في واحدة من أكثر مغامراتها إثارة للقلق.

ومما ساعد الفيكونت والفيكونتيسة على التوسُّط لشقيقهما، هو إلمامهما بالظروف الحقيقية للسيد مورلاند، والتي تمكَّنا من شرحها للجنرال ما إن سمح لهما بذلك. علم أنه لم يتعرَّض للخداع فيما يتعلَّق بمبالغات ثورب الأولى حول ثروة الأسرة فحسب، بل أيضًا فيما يتعلَّق بتهوينه الخبيث من شأنهم لاحقًا، وأنهم لم يكونوا بأي حالٍ من الأحوال معوزين أو فقراء، وأن كاثرين ستحصل على ثلاثة آلاف جنيه. مثَّل ذلك تعديلًا جوهريًّا لتوقعاته الأخيرة، مما أسهم بشكلٍ كبيرٍ في التخفيف من حدة كبريائه. كما كان هناك أثرٌ كبيرٌ للمعلومات الخاصة التي تجشَّم العناء للحصول عليها، والتي علم من خلالها أن ملكية فولرتون كانت تحت التصرف الكامل لمالكها الحالي، وبالتالي كان الأمر مفتوحًا أمام كل التكهنات الجشعة. (24)

بناءً على هذا، سرعان ما سمح الجنرال لابنه بالعودة إلى نورثانجر بعد زواج إليانور، ومن ثم جعله يحمل موافقته إلى السيد مورلاند، التي صاغها بأسلوبٍ فائق التهذيب في صفحة كاملة مليئة بالادعاءات الفارغة. وسرعان ما أعقب ذلك الحدث الذي أذنت به الرسالة: تزوج هنري وكاثرين، ودُقَّت الأجراس، وابتسم الجميع. وحيث إن ذلك حدث في غضون اثني عشر شهرًا من اليوم الأول للقائهما، فلا يبدو بعد كل التأخير المروع الذي سببته قسوة الجنرال، أنهما تضررا من ذلك على نحوٍ بالغ. كونهما بدءا بسعادة تامة في سن السادسة والعشرين والثامنة عشر على التوالي، يعني أنهما أبليا بلاءً حسنًا. علاوة على ذلك، عليَّ الاعتراف باقتناعي التام بأن التدخلات الجائرة للجنرال، بدلًا من كونها ضارة بسعادتهما، ربما كانت في الواقع عونًا لهما؛ لأنها حسَّنت من معرفة بعضهما ببعضٍ، وزادت من قوة ارتباطهما. أترك لمن يهمه الأمر تحديدَ ما إذا كان هذا العمل يميل بصفة عامة إلى التوصية بالاستبداد الأبوي، أو بمكافأة عصيان الأبناء.

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

Notes

[←1]

(1) لم تكن جين أوستن تحب اسم ريتشارد، ولم تستخدم الاسم قطٌّ لأيٍّ منٍ شخصيات رواياتها التي يدور على لسانِها حوارٌ، على الرغم من أنَّ سبب نفورها ذاك ظلّ غير معروف. من ضمن التخمينات المحتملة هو الشعبية الزائدة في تلك الفترة لمسرحية شكسبير، ريتشارد الثالث، التي كان بطلُها قمة في الشر، مما ربما يكون قد أسهم في خلق جوٍ من العداء حيال الاسم.

[←2]

(2) كانت القباقيب عبارة عن أحذية جلدية تُلبس فوق الحذاء العادي لحمايته من الأوساخ والرطوبة، يرتديها عادة المسافرون في العربات.

[←3]

(3) كانت المحفات التي يحملها رجلان وسيلة انتقال شائعة في باث، نظرًا لصعوبة مرور العربات خلال الطرقات الضيقة في المناطق الأقدم من المدينة.

[←4]

(4) كانت القاعة مجاورة للحمامات الرومانية في المدينة، وتُضخ إليها المياه المعدنية من الحمامات، حيث يمكن للناس شرب المياه أو تناول أي مشروبات أخرى، والتجمُّع للقاءات الاجتماعية.

[←5]

(5) أضافت أوستن هامشًا هنا توضح فيه أن المقصود هو صمويل ريتشاردسون، في مقالٍ له في صحيفة رامبلر.

[←6]

(6) الهلال من أشهر معالم باث، وهو بناية على شكل هلال، بُنيت على تلٍّ مرتفعٍ.

[←7]

(7) تشير إيزابيلا إلى رواية «أسرار أودولفو»، من تأليف آن رادكليف، وهي رواية رعب تعتبر من النماذج الأولى للرواية القوطية.

[←8]

(8) يعكس تعصب ثورب ضد الأجانب ومن يخالطونهم سلوكًا عامًا كان سائدًا آنذاك، ضاعف من حدَّته الحرب المريرة التي كانت بريطانيا تخوضها ضد فرنسا.

[←9]

(9) القاعة ثمانية الأضلاع هي غرفة متسعة في قاعة الحفلات الشمالية بالمدينة، تستخدم كمكان للاجتماع وكقاعة للحفلات الموسيقية أحيانًا.

[←10]

(10) كل تلك الأشياء التي انشغلت كاثرين بالتفكير فيها متعلقة إما بآل تيلني أو بأحداثٍ من رواية أودولفو، وهما الشيئان اللذان تشتت بينهما تفكيرها.

[←11]

(11) فالانكور هو بطل رواية أودولفو. بعد وقوعه هو وإميلي في الحب، يفترقان عندما تصير عمتها وصية عليها بعد وفاة والدها، حيث ترافق عمتها إلى إيطاليا، بينما يذهب هو مع فرقته العسكرية إلى باريس.

[←12]

(12) صمويل جونسون وهيو بلير هما اثنان من أهم خبراء اللغة في ذلك العصر.

[←13]

(13) ديفيد هيوم، ووليام روبرتسون من كبار المؤرخين.

[←14]

(14) كان جيمز مورلاند يعد نفسه ليصير كاهنًا مثل والده.

[←15]

(15) ديفايزيز مدينة تقع شرق باث، وهي في الطريق إلى لندن.

[←16]

(16) كانت كاثرين على الأرجح تستخدم شمعة مصنوعة من دهن الحيوانات، وكان ذلك النوع من الشموع له إضاءة خافتة إلى حدٍّ ما، ويُستخدم لبعض المهام التي لا تتطلب إضاءة قوية، مثل الاستعداد للفراش. كانت مشكلة هذا النوع من الشموع أن أجزاءً من الفتيل التي لم تحترق كليًّا قد تبقى أحيانًا من دون أن تسقط بعد انصهار الشمع، مما يؤدي لخفوت الإضاءة. لذا كان الناس يقصون تلك الأجزاء من رأس الشمعة بمقص خاص، وكان ذلك يتطلب الحرص حتى لا تنطفئ الشمعة تمامًا. وهو ما قامت به كاثرين بطريق الخطأ نظرًا لاستعجالها.

[←17]

(17) كانت مصابيح الزيت أشد إضاءة من الشموع، إلا أنها كانت أغلى تكلفة. وكانت شدة إضاءتها وانطفاؤها فجأة، بدلًا من ارتعاش شعلتها كالشموع، سببًا في كون انطفائها أكثر تأثيرًا من انطفاء الشمعة.

[←18]

(18) من الممكن زراعة زهور الياقوتية داخل المنزل بأوانٍ بها ماء فحسب، لذا ذكر هنري أنَّ حبَّها مرتبطٌ بالمنزل، في حين أن الورد يُزرع بالخارج فقطً، مما يشجع على الخروج.

[←19]

(19) يقصد الجنرال أنه في وجود اثنين من الأبناء فقط، بخلاف الابن الأكبر، فريدريك، فبوسعه أن يضمن لهنري نصيبًا من الميراث يغنيه عن الحاجة للعمل.

[←20]

(20) قبل حركة الإصلاح في إنجلترا، كان الأثرياء يلعبون دورًا مهمًّا في تمويل الأديرة، بما في ذلك تشييد أو إعادة تصميم الأبنية. بالتالي فإنَّ الجنرال تيلني يبدو كأنه يواصل ذلك النمط، على الرغم من أنَّ نورثانجر لم يعد ديرًا.

[←21]

(21) كان مونتوني هو الشرير في رواية أسرار أودولفو، الذي أساء معاملة زوجته، عمة البطلة، بأن حبسها حتى ماتت من قسوة المعاملة.

[←22]
(22) المقصود هنا هو أنَّ هنري، بوصفه الشقيق الأصغر، سيفوز بنصيبٍ من الميراث يقلُّ كثيرًا عن فريدريك، الشقيق الأكبر، وبالتالي قد يكون هذا سببًا في تصميم الجنرال على أن تكون زوجته أكثر ثراءً حتى.

[←23]

(23) كانت العربات تقف في نقاط محددة على الطريق حيث يتولى العاملون بمكاتب البريد التأكد من سلامة العربات والبريد الذي تنقله تلك العربات، ويتم تبديل الخيل لإتمام الرحلة بجياد جديدة بدلًا من تلك المنهكة.

[←24]

(24) كانت معظم الإقطاعيات تخضع لعقودٍ قانونية تشترط أن يؤول الجزء الأعظم منها للابن الأكبر للمالك الحالي، أو لمن يليه من الأقارب في حال عدم وجود أبناء، بغض النظر عما يرغب فيه المالك. لكن على ما يبدو فإن السيد ألين لم يكن مقيدًا بمثل هذا العقد، وبالتالي بوسعه أن يوصي بممتلكاته لمن يشاء بعد وفاته.